محمد غانم
الرميحي

أزَمات وقضايا
إقليمٌ في المَهَبّ

مؤسسة دار الجديد
DAR AL JADEED

محمد غـــانم
الـرميحـــي

أزَمـــات وقضايـــا
إقلـــيمٌ في الـمَهَبّ

مؤسسة دار الجديد
DAR AL JADEED

مؤسسة دار الجديد

الطبعة الأولى، ٢٠٢١
دارة محسن سليم ـ حارة حريك
بيروت ـ لبنان
صندوق بريد: ٥-٢٥ الغبيري
هاتف: ٩٦١-١-٥٥٣٦٠٥
www.dar-al-jadeed.com

أيادٍ بيضاء

تدقيق: الشيخ وليد بو مهدي
تحرير: قلم دار الجديد
أنشأته كتابًا: إليسار الرشعينيّ
ترقيم دولي: 978-9953-11-214-5

في الكتـــاب

مدخـــل

إقليـم فـي المَهـبّ بيـن دفّتـي **أزمـات وقضايـا ـ إقليـم فـي المهـبّ** مجموعـةٌ مـن الدراسـات شـاء لهـا كاتبهـا الأسـتاذ والباحـث محمّـد غانـم الرميحـي أن تعالـجَ بعـضَ مـا تعيشُـه المنطقـة مـن مقالـق ومخاطـر. فبعـد أن مَحْـوَر العـربُ سياسـاتِهم حـول فلسـطين «أم القضايـا» بانـت فـي العقديـن الأخيريـن تراجيديّـات، أدّت إلـى دمـار بـلادٍ عزيـزة، اسـتحقّت بدورهـا أن لا يُذكـر اسـمها إلا مصحوبًـا بوسْـم «القضيّـة». فمـن رحـم القضيّـة الأم، تناسـلت قضيّـة لبنـان (حروبـه الأهليّـة ومـا اسـتتبعها مـن احتـلالات وانهيـار مـدوٍّ)، وقضيّـةُ العـراق (الإنـزال الأميركـيُّ وإسـقاط نظـام صـدّام حسـين وهيمنـة الميليشـيات)، وتبعتهمـا بخطـىً حثيثـة قضيّـة سـوريا والبحريـن واليمـن.

مـن فلسـطين أم القضايـا، ينطلـق إذًا الدكتـور الرميحـي مُحلِّـلًا الأسـباب التـي حالـت، ومـا زالـت تحـولُ دون بلـورة حـلٍّ لهـذه المأسـاة.

الكتـاب يتألّـف مـن جزءَيْـن: جـزء يبحـث فـي علاقـة المنطقـة بجوارهـا «الإمبراطـوريّ» أي تركيـا وإيـران ومـا تروّجـان لـه كلّ بحسـب مذهبهـا مـن إسـلام قابـل للتصديـر، وجـزء يبحـث فيمـا طـرأ علـى العالـم مـن تبـدّلات فـي العقديـن الأخيريـن، كمـا

يحـاول التفكيـر فـي مسـتقبل علاقـات دول الخليـج بشـريكتها الأسـاس، الولايـات المتّحـدة، المنسـحبة علـى أطـراف أصابعهـا مـن المنطقـة الملتهبـة.

يرسـم الدكتـور الرميحـي صـورة واقعيّـة متشـائمة لمـا يـدور حولنـا ويسـدي صفحـة تلـوَ الأخـرى النصـحَ لمـن يريـدُ أن ينتصـح. فـلا حلـول برأيـه وسـط الصراعـات والحـروب والأنانيّـات؛ بثقـةِ وحكمـة مَـن عايـش تاريـخ هـذه المنطقـة المُعذّبـة يدعـو أهـل الحـلّ والربـط إلـى «رأب الصـدوع»، وإلـى «تبديـل مواقفهـم المتشـنّجة» و«الإصغـاء إلـى لغـة العقـل».

سـند الأمـس، الولايـات المتّحـدة، اسـتحال ديمقراطيّـة شـعبويّة تخلّـت عـن القيـم التـي بنـت عليهـا مجدهـا: «لـم يَبْـقَ مِـنْ عَظَمَـةِ الولايَـات المُتَّحـدةِ سـوى «اسْـتِبدادِها الديمُقراطـيّ». كيفَ للاسـتِبدادِ أن يتـزاوجَ والديمُقراطيّـة؟ أميـركا اليـوم بلـدٌ شـعبويّ يعبـثُ بالقانـون الدُّوَلـي وبأبسـط القواعـد الإنسـانيّة.

إن كان العالـمُ سـفينةً فرَبَابِنَتُهـا قَراصِنـةٌ يفرِضـون «كسـر لـوح الشـرائع حيثمـا حلّـوا».

إلـى هـذا الاسـتنتاج وإلـى مجموعـة مـن الأسـئلة المُمِضّـة يخلـص الكتاب.

أمـا حـان لعالَـم غلبَـه وبـاءٌ شـرس أقعـده واحتبـاسٌ حـراريّ مرعبٌ ونقـصٌ فـادحٌ بالميـاه أن يعيـد رسـم سياسـاته كـي يجتـرح حلـولًا

لقضاياه النازفة؟ وهل ولّى زمن البحبوحة والرخاء الذي شهده الخليج إلى غير رجعة؟

إقليمنا في المهبّ كما عَنوْن الدكتور الرميحي، فعسى الرياحُ ترأف بمن قُدّر له أن يولد في هذه المنطقة.

دار الجديد

المشهــد الخليجيّ والنيـران الدانيـة

١

عاصفة الحزم والأمن المجتمعي الخليجي

حصان طروادة ما نشهده في السنوات الأخيرة في الفضاء السياسي العربي، هو في الأغلب سيولة كبيرة تشمل الساحة السياسية من أقصاها إلى أدناها. أفرزت تلك السيولة مجموعة من الظواهر الاجتماعية ـ السياسية، منها «ظاهرة الحراك الحوثي في اليمن»، وهي ظاهرة تربط بين «القيد المذهبي والانتماء السياسي». وهو توجُّه نُكوصي، مرتبط بأحداث ماضوية انتهت صلاحيتها منذ زمن بعيد، بعد التطور الذي شهدته الإنسانية في ترتيب العلاقات السياسية بين مكونات المجتمع الواحد في الدولة الحديثة أو في علاقات الدول بعضها ببعض. ليس التعدد المذهبي في فضائنا العربي الإسلامي بجديد، ولا الانتماء السياسي أيضًا. ففي القرن العشرين شهدت المجتمعات العربية قبول التعددية السياسية العابرة للطوائف، بوصفها شكلًا من أشكال الدولة العربيّة الحديثة، التي ظهرت بعد الانفكاك من الهيمنة العثمانيّة ـ الغربيّة.

الجديد، هذا الربط بين المذهب والسياسة الذي تبنَّته الدولة الإسلامية الإيرانية، منذ أن تحوَّل الحكم فيها من نظام الشاه المدني إلى نظام الملالي الثيوقراطي، في توظيف سياسي قصده التوسع القومي. وقد أسس هذا الربط في

محيطنـا العربـي مـا أسـمِّيه «حصـان طـروادة الإيرانـي»، وقـد تبنَّتـه إيـران فـي ثلاثـة أماكـن ظاهـرة: **الأوّل فـي لبنـان** وقـد أنتـج حـزب اللـه، و**الثانـي فـي العـراق** بميليشـيات مسـلحة، **والثالـث فـي اليمـن** بِحُوثِيِّـهِ. وقـد حاولَـت بشـكل مُمَنْهـج إنتـاج مثـل هـذه الجيـوش صغيـرة كانـت أو كبيـرة، فـي أكثـر مـن مـكان مـن الفضـاء العربـي، مثـل: مصـر والمغـرب والبحريـن والكويـت والمملكـة العربيـة السـعودية، أي إنهـا حاولـت ربـط «الفِرقـة المذهبيـة بإطـار سياسـي يخـدم الأهـداف القوميـة الإيرانيـة». وقـد سـلكت لتحقيـق أهدافهـا السياسـيّة خدعـة «حصـان طـروادة» عبـر الإيديولوجيـا والمـال والسـلاح. هكـذا، ظهـر فـي المجتمعـات العربيـة مـا يمكـن تسـميته بالجماعـات التابعـة والعابـرة للأوطـان.

فـي خضـمِّ هـذا التسـارع، توخَّـت الدولـة الإيرانيـة مجموعـة مـن الشـعارات الجاذبـة للجماهيـر العربيـة، أو التـي يمكـن أن تغطـي المشـروع الأكبـر والأهـم، وهـو «تسـريع النفـوذ القومـي الإيرانـي وتوسـيعه» فتبنّـت «تحريـر فلسـطين». وهنـا وجـب لفـت النظـر إلـى أنـه حتـى فـي لبنـان تخلّـى المشـروع الإيرانـي عــن الاسـتعانة بالفلسـطينيين، أو حتــى بالحركـة الوطنيـة اللبنانيـة الجامعـة، باعتبارهـم رأس حربـة للتحريـر المفتـرض، توجّهـت إلـى تكويـن جماعـة لبنانيـة مذهبيـة صِرْفـة، تابعـة مباشـرة للولـي الفقيـه «حـزب اللـه اللبنانـي»؛ كمـا اسـتخدمت مفاهيـم مـن مثـل: «الدفـاع عـن المسـتضعَفين» أو «محاربـة الشـيطان الأكبـر» أو «الثـورة الدائمـة». ولـم يغفـل المشـروع

الإيرانـي أن يتخفـى مـا اسـتطاع تحـت سـتار مـن التعميـم خـارج «الطائفيـة»، حيـث حـاول أن يمـد يـده إلـى جماعـات سـنِّيّة لهـا علاقـة بالمشـروع الإسـلامي السياسـي، كمـا فعـل مـع حمـاس فـي غـزة مثـلًا، أو كمـا فعـل مـع بعـض أطـراف جماعـة الإخـوان المسـلمين تحـت غبـار الشـعارات الكبيـرة، مثـل: «إقامـة الشـريعة» أو «إنصـاف الفقـراء» أو «إزاحـة الاسـتكبار عـن الحكـم فـي بعـض بـلاد المسـلمين».

حصـان طـروادة الإيرانـي هـذا، تسـلّل إلـى الخواصـر العربيّـة المشـرقيّة، ولـم يتمكّـن مـن اختـراق الـدول الإسـلاميّة شـرق وشـمال شـرق إيـران، مثـل: باكسـتان أو أفغانسـتان أو إندونيسـيا أو غيرهـا مـن بـلاد الإسـلام الواسـعة. مقصـد المشـروع الأكبـر هـو الوصـول إلـى «المـدن الإسـلامية المقدسـة»، وهـذا مـا يفسـر جهـد المشـروع الـدؤوب فـي محاصـرة المملكـة العربيـة السـعودية والخليـج مـن الشـمال والجنـوب.

المشـروع الحوثـي فـي اليمـن ظهـر المشـروع، أوّل مـا ظهـر، فـي بلـد مثـل لبنـان خـرج مـن حـرب أهليـة ضـروس، مُثخَـن بالجـراح والتفـكك يشـكو مـن ضعـف الدولـة. ففرضـت عليـه الدولـة السـورية نظامًـا أمنيًّـا سـوريًّا ـ لبنانيًّـا، جعـل الفرصـة سـانحة لظهـور حـزب اللـه وتَمـدُّده، مـع تقليـص القـوى الوطنيـة الأخـرى ومحاربتهـا. سـوريا كانـت ضليعـة فـي المشـروع الإيرانـي منـذ فتـرة طويلـة، أي منـذ الحـرب الطويلـة بيـن بغـداد وطهـران (١٩٨٢- ١٩٨٨)، ولكـن ذلـك الضلـوع كان محسـوبًا بدقـة فـي السـنوات الأولـى أيـام حافـظ الأسـد، علـى أسـاس تبـادل المصالـح

ـ ربما شبه المتكافئةـ. إلا أنه في سنوات بشار الأسد اللاحقة التي بدأت مع مطلع القرن الواحد والعشرين، انزلقت سوريا، ومعها لبنان، في المشروع الإيراني. وكلما ضعفت الدولة السورية بسبب سوء إدارة بشار الأسد الكارثية، فقدت استقلالها لمصلحة إيران، حتى غدت اليوم شيئًا يشبه قليلًا أو كثيرًا «محافظة إيرانية». ولما دخلت سوريا في حرب أهلية، أصبح الحل والربط في دمشق يأتيان من طهران لا من غيرها. حدث ذلك أيضًا في العراق، الذي أدخله نظام صدام البعثي في نفقٍ مظلم، مثل الإدارة البعثية في سوريا، حتى جرى احتلاله ثم تسليمه إلى المشروع الإيراني، الذي جهد في استتباع بغداد إلى مداره، من خلال تهميش واسع المدى لمكون عراقي هم السُّنّة العرب، تحت ذرائع مختلفة، حتى أصبح الاحتراب الطائفي فرضًا على الجميع.

المشروع الحوثي ليس بعيدًا عن ذلك السيناريو في سوريا ولبنان والعراق. فاليمن فيه أكثر من مكوِّن من الفرق الإسلامية، والظاهر على السطح مكوِّنان تعايشا طويلًا، هما المكوِّن السُّنِّي «الشافعي» والمكوِّن «الزيدي». وتميل الديموغرافيا والكثافة السكانية إلى الأول منهما. الزيدية فيها من التوافق والتَّماسِّ مع أهل السُّنّة، الكثيرُ من حيث العقيدة ومن حيث العبادة، وفي العقود التي أعقبت مطلع القرن العشرين تقارب المذهبان إلى حد بعيد. ثم إنّ الزيدية تختلف مع الطوائف الشيعية الأخرى «مثل الاثني عشرية والإسماعلية» في بعض الفروع. فالاثنا عشرية تؤْمن

تاريخيًّا بترك السلطة الزمنية حتى ظهور المهدي المنتظر، وتُرجئ الصراع مع الحاكم الزمني نتيجة تاريخ طويل من الصراعات السياسية، حتى إن الخميني نفسه له نصٌّ نُشر في عام ١٩٤٤ في كتاب **كشف الأسرار**، يقول فيه بترك السلطة الزمنية للحاكم، وكذلك التراث الشيعي لم يقل، حتى وقت متأخر، إن المُلْك أو السلطة حقٌّ للفقهاء. ثم إن الزيدية تختلف في وجوب «عصمة الإمام»، وأيضًا في «زواج المتعة»، وتتفق مع الاجتهاد الاثني عشري في جواز زكاة الخُمس والركون إلى «التقية». وهي سلوكيات لا يستشعر أحد منها ضيقًا أو استنكارًا، حيث تختلف المذاهب الإسلامية في الفروع.

غيَّر الخميني رأيه، لأسباب تاريخية وسياسية، وقال بولاية الفقيه حتى يظهر الإمام الغائب ـ والفقيه هنا هو نائب الإمام الغائب ـ وكان ذلك بسبب صراعه وتابعيه مع السلطة الشاهنشاهية. فبدأت مجموعات من الزيدية بعد ذلك برسم صورة ذهنية مختلفة للحكم في إيران، حيث روَّجت فكرة أن إيران بقولها بـ«الثورة الدائمة» أصبحت «زيدية»، لأنها «تحشد الجماهير لمواجهة القوى الأجنبية والحكام الظالمين». وبصرف النظر عن الاختلافات الثانوية الأخرى. ساعَد على انتشار ذلك الفكر بين شريحة في اليمن عاملان: الأول منهما فساد السلطة في اليمن تحت حكم علي عبدالله صالح، ومِن ثمّ تَفكُّك الدولة اليمنية بعد الثورة الشعبية في عام ٢٠١١، وضُمورٌ مَرَضِيٌّ للدولة الموروثة من

علـي عبدالله صالـح فـي التعامـل مـع المسـتجدات. والعامـل الثانـي هـو عامـل الدفـع مـن طهـران بالمـال والسـلاح والتدريـب والدعـوة السـابقة والتحضيـر الأيديولوجـي. وقـد تطـوَّر المشـهد اليمنـي إلـى تحالـف غيـر مقـدس أو تحالـف الضـرورة، بيـن طائفـة مسـلحة ومسـنودة بقـوة إقليميـة هـي إيـران، وحاكـمٍ متشـبث بالسـلطة لا تـزال لـه ولاءات فـي قطـاع مـن الجيـش، الـذي ظـل يرعـاه ثلاثة عقـود. وفي غياب مشـروع وطنـي حديث واضـح المعالـم، تراخـت الـدول المسـاندة لـه عـن متابعتـه وإنجـازه، وظهـر «الغـول» الحوثـي أكبـر مـن حجمـه، واجتـاح المـدن اليمنيـة التـي حدثـت فيهـا نقلـة نوعيـة فـي الخمسـين سـنة الماضيـة باتجـاه «المدنيـة» والبعـد عـن السـلاح، وتحدثـت طهـران بفخـر بسـقوط أربـع عواصـم عربيـة فـي حضنهـا، هـي: دمشـق، وبغـداد، وبيـروت، والرابعـة صنعـاء. اِختطـف الحوثيـون شـعارات حديثـة جاذبـة للجيـل الجديـد، منهـا: «بنـاء الدولـة المدنيـة، والحريـة، ومحاربـة الأجانـب، واسـتقلالية اليمـن»، إلـى آخـر ذلـك مـن تلـك الشـعارات التـي تفنَّنـت فيهـا الآلـة الإعلامية لحـزب اللـه اللبنانـي، وهـو اليـد الطُّولَـى لإيـران القـادرة علـى صياغـة الشـعارات التـي تُدغـدغ الشـعور العربـي. إضافـةً إلـى الحديـث مـن جهـة أخـرى عـن حـرب «الدواعـش والقاعـدة»، التـي يصفـون بهـا المقاومـة اليمنيـة الوطنيـة تبخيسًـا وازدراءً لدورها، وترويجًا لعدم قبولهم في السـاحة الدولية.

فـي هـذا الجـو المشـحون، لـم يَعُـدْ للـدول الكبيـرة فـي المنطقـة، وخاصـة المملكـة العربيـة السـعودية، صبْـرٌ علـى أن تمشـي علـى

قشـور البيـض. لقـد اسـتنفدت طهـران كل الصبـر الـذي فـي حوزتهـا، وظهـر المشـروع واضحًـا جليًّـا، وهـو تطويـق المملكـة وجاراتهـا الصغيـرة، ثـم نقـل المعركـة إلـى أرضهـا لتحقيـق الحلـم الوهمـي، وهـو أن «المهـدي المنتظـر سـوف يظهـر فـي مكـة فـي عاشـوراء، وينتقـل إلـى الكوفـة، ويمـلأ الأرض عـدلًا بعـد أن مُلئـت جـورًا».

وجـاءت عاصفـة الحـزم لـم يكـن مـن المقبـول ولا المنطقـي ألَّا تُتَّخـذ قـرارات حاسـمة فـي هـذا الأمـر. فجـاء القـرار الشـجاع والتاريخـي للملـك سـلمان بـن عبد العزيـز بمجـرد وصولـه إلـى الحكـم. وبسـبب مخزونـه الشـخصي مـن التاريـخ، وفهمـه العميـق لتحـولات الأزمنـة وبنـاء الـدول، اتخـذ قـرار عاصفـة الحـزم الـذي مهَّـد لـه بحِـذْق، عبْـر تحالُـف واسـع للمتضرِّريـن مـن المشـروع الإيرانـي القومـي التوسـعي، مـن المغـرب حتـى الخليـج. فجـاءت عاصفـة الحـزم لتفصـل بيـن مرحلتيـن: الأولـى منهمـا الصبـر علـى المـكاره، والثانيـة ملاقـاة تلـك المـكاره ومقارعتهـا علـى الأرض. لـم تكـن عاصفـة الحـزم تسـعى لتغليـب فريـق يمنـي علـى فريـق آخـر، بـل جـاءت أوّلًا وأخيـرًا لوقـف المشـروع الإيرانـي الزاحـف. لذلـك، وجدنـا إيـران الرسـمية قـد فقـدت صوابهـا فـي سلسـلة مـن التصرفـات والتصريحـات، كشـفَت فيهـا عـن وجههـا السياسـي القبيـح، فانتقـل الصـراع مـن الظـل إلـى الشـمس.

لقـد قامـت إيـران بعـدد مـن الاسـتفزازات ضـد المملكـة العربيـة السـعودية طـوال أكثـر مـن ثلاثـة عقـود، وارتكـب عملاؤهـا عددًا مـن جرائـم قتـل الدبلوماسـيين السـعوديين، أو حاولـوا قتلهـم

(كالمحاولة الأخيرة لقتل سفير المملكة في واشنطن). وربما حاولوا نسبة ذلك ـ لو حصل ـ إلى السلطات الأميركية، لدقِّ إسفين عميق بين الدولتين، مرورًا بتفجيرات الخبر (عام ١٩٩٦). دخلت إيران في حرب إلكترونية كما حدث في آب (أغسطس) ٢٠١٢، حيث تعرضت شركة النفط السعودية (أرامكو) لهجوم إلكتروني، نسبَته المخابرات الأميركية إلى إيران. هذا وقد أنشأت إيران فيلق القدس، الوحدة ٤٠٠، لتستهدف الدبلوماسيين التابعين للدول التي كانت تحاول تقويض المشروع النووي الإيراني، وسبَّبَت الكثير من صراعات الظل التي عانتها دول المنطقة، أي المملكة العربية السعودية وجيرانها في الخليج، مثل الأحداث التي وقعت في البحرين والكويت. في الآونة الأخيرة، أُذِنَ لوسائل الإعلام الإيرانية بالهجوم الشرس على المملكة وعلى عدد من دول الخليج، شارك فيه عدد من المسؤولين الإيرانيين، ومنهم علي خامنئي.

لقد استقر في ذهن متخذ القرار الإيراني الفكرة الشاهنشاهية القديمة، وهي فكرة «قومية» تُفيد أن إيران هي المُدافع عن دول الخليج. قال القائد العام السابق للقوات المسلحة الإيرانية الجنرال محسن رضائي لقناة الميادين التلفزيونية (التابعة لإيران وتبثُّ من بيروت): «أسلحتنا هي للدفاع عن السعودية وقطر والإمارات والعالم الإسلامي كله»؛ وذلك في إعادة إنتاج وتوسيع للمقولات الشاهنشاهية قبل الثمانينيات من القرن الماضي. وترغب

السياسة الإيرانية في الخليج في أن تتعامل مع دول الخليج فرادى، طمعًا في السيطرة والنفوذ. إن ما هو أمامنا اليوم، ليس «خلافًا طائفيًّا» كما يحلو للمتعجلين والمستفيدين توصيفه. فمعارك الطائفية انتهت تاريخيًّا بضمور أسبابها، وإنما هي محاولة لاختطاف عقول البشر للزجِّ بهم في حروب «دون كيشوتية»، وهي في حقيقتها توسُّع قومي إيراني. فإيران هي الدولة غير المعنية بالشيعة العرب، التي يوجد على أرضها عشرة ملايين شيعي عربي، لم يُدقّ مسمار في مدنهم وقراهم، ولم يُرصف لهم طريق، بل عُلِّقت رقاب كثير منهم على المشانق كما تُعلق النعاج، ليس لشيء إلّا لأنهم طالبوا بحقوق المواطنة.

عاصفة الحزم والأمن المجتمعي الخليجي «حصان طروادة الإيراني» صغيرًا كان أم كبيرًا مهيَّأ للقفز على دول الخليج. هو ينتظر الوقت والفرصة فقط، لا القرار. لذلك، فإن عاصفة الحزم وضعت إيران أمام خيارين: إما أن تترك «حروب الظل» وتأتي إلى العلن، أو تنسحب مع أوهامها الإمبراطورية من المشهد العربي. فلم يعد المجتمع العربي يَقبل مثل هذه المناوشات، التي خربت الأوطان من سوريا إلى لبنان إلى العراق إلى اليمن، ولا محاولات اللعب في الحديقة الخلفية لدول الخليج من أجل استنزافها، مثل إخضاع اليمن لولاية الفقيه.

عاصفة الحزم هي حرب استباقية ودفاعية، وفي نفس الوقت هي ليست من أجل إنقاذ اليمن فقط، ولكن لدحر المشروع

بكامله المتمثل بتلك الشهية الإيرانية للتوسع، وقفل باب «حصان طروادة» قبل أن يُفتح على مصراعيه في ساحات عربية أخرى. أمنُ الخليج هو أمن واحد لعدد كبير من الأسباب. فهي دول مرتبطة جغرافيًّا، لا حواجز طبيعية أو اجتماعية. فالمملكة على سبيل المثال: ترتبط جغرافيًّا بكل دول الخليج الخمس، وأيضًا باليمن، ثم إنّ شعوبها تحمل ثقافة متقاربة، ومجتمعاتها متداخلة. لذا، أمْنها واحد لا يتجزأ، وأيُّ تدخُّل «إيراني» في اليمن، هو تدخُّل في صميم أمن الخليج. وفي حال ترك ذلك التدخل دون تصدٍّ له، فإن حصان طروادة الإيراني سوف يتمدد بنفس الطريقة إلى بقية بلدان الخليج، المتعدّدة ثقافيًّا واجتماعيًّا مما قد يغري العقل الإيرانيّ المغامر.

من هنا، فإن الوقوف الحازم مع عاصفة الحزم ـ الأمل قضيةُ أمنٍ وطني خليجي، من الواجب حشد كل الإمكانيات لها ومعها. أيضًا العمل الجاد للوصول إلى وضع سياسي مستقر في اليمن، لا يُخرج أيَّ مكوِّن سياسي من التسوية، ويمنع أيَّ تدخُّل خارجي في نفس الوقت. من جانب آخر، لا بد من التفكير خليجيًّا في المشروع المضاد الذي يستطيع أن يقف أمام «حصان طروادة الإيراني»، وهو من شِقَّين: التوجه إلى وحدة خليجية حقيقية ومبتكرة تستطيع حشْدَ الطاقات والإمكانيات لمواجهة الأخطار القائمة والمحتملة، والاعتمادَ على النفس؛ وأيضًا وضعُ مشروع للحوكمة الرشيدة القائمة على سيادة القانون، والمساواة بين المواطنين، ودعم مشاريع

التنميـة، وخلْـق سـوق للعمالـة والعمـل مفتـوح بيـن دول الخليـج. وتلـك مرحلـة يجـب التفكيـر فيهـا منـذ اليـوم، حيـث إن التبـدلات فـي العلاقـات الدوليـة سـريعة، والمنطقـة تمـرُّ بكاملهـا بحالـة من السـيولة بحسـب مـا أسـلفنا، عنوانهـا العـام أن الحلـول القديمـة لـم تعـد تَصلـح لعـلاج المشـكلات الجديـدة.

١ تموز (يوليو) ٢٠١٥

٢

سوريا: اللهيب السوريّ والأمن العربيّ والجوار

الأنظمـة الصلبـة فـي عِلـم الفيزيـاء وهـو عِلـم متشـعب وخطيـر يقـول الباحثـون إن الأشـياء الصلبـة تتفتـت إلـى قطـع أصغـر، بأسـرع ممـا تتفتـت الأشـياء الرخـوة أو المرنـة. إنْ نقلْنـا هـذا القـول إلـى علـم السياسـة وإدارة الـدول، فـإن الـدول التـي تتخـذ مـن المركزيـة الصلبـة والشـمولية ـ بواسـطة القمـع ـ سلاحًا لهـا، للسـيطرة والبقـاء فـي السـلطة، هـي أقـرب إلـى التفتّـت لحظـة مواجهتهـا صدمـة كبـرى. وفـي تاريـخ الإنسـانية الحديـث نجـد الكثيـر مـن الأمثلـة علـى المسـتوى الدولـي وعلـى المسـتوى الإقليمـي، فمثـلًا: الاتحـاد السـوفيتي بوصفـه إمبراطوريـة واسـعة، تنتهـج سياسـة مركزيّـة شـموليّة، تعتمـدُ علـى المخابـرات والقمـع، وفـي أول فرصـة، تَفتَّتَـت تلـك الإمبراطوريـة بعوامـل مـن داخلهـا وخارجهـا.

لـم يكـن حُكـم إيـران إبَّـان مرحلـة الشـاه إلا حُكمًـا «صُلبًـا» بالمعنـى السياسـي، حيـث اعتَمـد علـى الأجهـزة السـرية وكتـم الأصـوات وملاحقـة المختلفيـن، ليـس فـي إيـران فقـط، بـل فـي العالـم، أيًّـا كانـت درجـة اختلافهـم، فنتَـج مـن ذلـك مـا نـراه الآن مـن تفتُّـت، ومِـن ثَـم سـقوط ذلـك الحكـم. وليـس حُكـم معمّـر القذافـي فـي ليبيـا بخـارج عـن هـذا السـياق، ولا حُكـم صـدام حسـين فـي العـراق، الـذي تهـاوى فـي أيـام قليلـة، دون أن

يجد له نصيرًا حتى من داخله. تلك طبيعة لصيقة بالأنظمة «الصلبة»، أي الأنظمة السياسية التي تعكف على سحق أي رأيٍ يخالف توجهاتها، فتضمحّل الثقة بين الناس وتهيمن الخشية. يعتقد الحاكم أن شعبه راضٍ، في الوقت الذي تتفاقم فيه مشاعر التململ لدى معظم المبتلين من الناس. وعندما تأتي الصدمة، لا يجد النظام له نصيرًا، لأن الجميع يريد التخلص من نِيرِهِ وممن يكمّم الأفواه ويدوس على الرقاب.

سوريا ليست بعيدة عن تلك الأمثلة السابقة، حيث بَنى الحاكم الأسد (الأب أولًا ثم الابن) نظامًا مركزيًّا شموليًّا، اعتمد فيه على عدد من الأجهزة، جُلُّها مخابراتية، وقائمة على قيادات من طائفته (العلوية)، تترصّد المواطنين ليل نهار وتدفعهم إلى التحوّل إلى مخبرين. ولم يألُ جهدًا في تهميش المعارضين أينما كانوا، ومطاردة كل مَن تُسول له نفسه أن يبدي رأيًا، ولو بتصفية الآخرين على طريقة «آل كابوني»[(١)]، حتى أصبح الجميع إما «معه» يسيرون كقطيع من الخراف كاتمين أصواتهم، أو أنصارًا مزيَّفين للنظام، اتِّقاء المحاسَبة الفظَّة، أو الاختفاء القسري خلف الشمس. هكذا اكتظّت سجون النظام الأسدي بالمعارضين والمشكوك في ولائهم، ثم تَحوَّل الأمر إلى تفريغ السجون من «ضيوفها»، عن طريق تصفيتهم أو إخفاء أيِّ أثرٍ لهم يُذْكر.

---

(١) طريقة آل كابوني: القتل في الشوارع، حيث كانت تلك العصابة المافياويّة تعمل في ثلاثينيات القرن الماضي في مدينة نيويورك، كما فعل نظام الأسد عندما قتل عبر وكلائه رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري.

بعـد أربــع ســنوات مــن التفتُّــت بعـد أربـع سـنوات مـن التظاهـرات العارمـة تعسـكرَ ربيـع سـوريا، واسـتحالت المطالـب المحقّــة حربًــا أهليّــة اســتفاد منهــا الديكتاتــور شــاهرًا شــعاره المعــروف: «نحكمكــم أو نقتلكــم».

لقـد غـرق المشـهد السـوري فـي الـدم والأسـلحة الكيميائيّـة، فقام النظــام بمواجهــة المطالبــات الشــعبية بقــوة الرصــاص والنــار، مؤكّـدًا: «إن أيَّ نظـام، يفـرز معارضـة علـى شـاكلته»؛ وهـو ما دفع مجموعـات مختلفـة مـن الشـعب السـوري إلـى حمل السـلاح، من أجـل مواجهـة العنـف بالعنـف. وبسـبب ضعـف النظـام العربـي، وتـردُّد النظـام الدولـي، وتشـابُك المصالـح المختلفـة غرقت سـوريا فـي حـرب أهليـة، وانبثقـت جماعـات مسـلحة مختلفـة المشـارب، منهـا مـا رفَـع الشـعار الدينـي سـواء المعتـدل أو المتشـدد، ومنهـا مـا رفـع شـعارات الوطنيّـة، إلا أن كل تلـك الجماعـات لـم تسـتطع أن تحســم. ســاد الأراضــي الســوريّة فلَتــانٌ أتــاح لمجاهديــن مــن مختلــف المشــارب «غــزو» ســوريا المســتباحة. وفــد مقاتلــون أجانـب، مـن لنصـرة النظـام ودعمـه (حـزب اللـه اللبنانـيّ، فصائـل مـن الحشـد العراقـيّ، زينبيّـون مـن أفغانسـتان) بدعـم ومباركـة إيرانيّــة وروســيّة، ومــن لنصــرة المعارضــة. مــن جهــة أخــرى، أصبحـت سـوريا بعـد تفتُّـت القشـرة الصلبـة، مكانًـا يجـذب كلَّ «الغاضبيـن» و«المغامريـن» و«المؤدْلَجيـن» مـن خـارج الجغرافيـا السـورية ـ العراقيـة. فجـاء إلـى سـاحة القتـال خليجيون وتونسـيون ومغاربـة وجزائريـون، وآخـرون مـن دول غربيـة مثـل: بريطانيـا وفرنسـا، والولايـات المتحـدة الأميركيـة. لتتويـج المسـار الجهـاديّ

ظهرت «داعش» وأعلنت قيام «الدولة الإسلاميّة»، وقد قام التنظيم بأعمال إجرامية شنيعة استنكرها العالم، من قتل وحرق واستباحة محرَّمات. تعج الساحة السورية اليوم بعدد كبير من التنظيمات (صغيرها وكبيرها)، ولا يُعرف على وجه الدقة طريقة تمويلها أو أهدافها النهائية.

بعض التحليلات ترى أن القشرة الصلبة للنظام السوري، مع قرب تفتُّتها، هي التي أفرزت في وقت ما بعض تلك الجماعات التي سمَّت نفسها في البداية «قوات ميليشيات النظام» أي (الشَّبِّيحة) بالمعنى السوري الدارج، ثم تحولت إلى قوى محاربة، تميل إلى هذا الطرف أو ذلك. في فوضى هذه الساحة استيقظ عدد من القوى العِرقية والإثنية والمذهبية، التي تُشكل بعض فسيفساء المجتمع السوري، مثل الأكراد الذين انقسموا بين مؤيد للمعارضة ومؤيد للنظام. وبعضهم أراد أن يكون للمكوِّن الكوردي ـ السوري استقلالٌ في مناطقهم، فحمل الجميع السلاح، وقامت مجموعات أخرى مثل الدروز والعَلويين والمسيحيين، كل بما يستطيعه، للدفاع عما يعتقد أنه حقوق له لم تنصفه فيها دولة الأسد.

مستقبل الاضطراب الأمني السوري في الإقليم مع وجود كل هذه القوى المختلفة على الأرض السورية، وتفتُّت الإقليم السوري إلى مناطق نفوذ، وأيضًا مع التدخُّل الخارجي، تَشعر كل دول الإقليم في الجوار وجوار الجوار بالقلق من نتائج «فشل الدولة السورية». فالجار التركي يرى أن استمرار هذا الوضع يؤثر سلبًا في الأمن الوطني التركي من جانبَين:

الأول منهما انهيار الدولة السورية بكاملها، وما سبَّبه ويسبِّبه من تدفق هائل لِلَّاجئين إلى الحدود الجنوبية لتركيا. والجانب الثاني هو احتمال قيام «كيان كوردي» شمال سوريا والعراق، يؤثر سلبًا في موقف الأكراد من تركيا نفسها، التي خاضت ولا تزال صراعًا طويلًا مع المكون الكوردي الداخلي في تركيا، الذي يعطي الاضطرابَ الأمني وغياب الدولة في الجوار، فرصًا مواتية للتنظيم والحشد. من جهة أخرى، فإن تعداد العَلويين في تركيا لا يستهان به، ولهم صِلات بِعَلوِيِّي سوريا. إنّ استمرار الصراع قد يؤدي إلى تصفيات فئوية، تُشكل ضربًا من الاضطراب في الداخل التركي. فتركيا الدولة الجارة مَعنيَّة بما يحدث في سوريا، وقد تقوم بالتدخل المباشر، بعد سنوات من التدخل غير المباشر.

في الجوار اللبناني، ومع التدخل الناشط والعسكري لحزب الله اللبناني، بتعليمات من طهران، في الشأن السوري الداخلي، ثار أولًا خلاف عميق بين المكوِّن السني اللبناني وبعض المسيحيين والدروز. هذه القوى ترى في هذا التدخل، أوّلًا جرّ لبنان إلى ما لا يطيق باعتباره دولة، وثانيًا أنه تدخُّل «شيعي» لمناصرة «شيعي آخر»، ضد أغلبية سنية سورية، تربطها الكثير من الوشائج مع سنة لبنان. من جهة أخرى، وبعد تكبُّد حزب الله الكثير من الضحايا، بدأت أصوات شيعية لبنانية تَنفر من تدخُّل حزب الله وتعلن خلافها معه. وذلك تطوُّر آخر في الساحة اللبنانية، يعني أن الاضطراب في سوريا يؤثر سلبًا في السِّلم الاجتماعي اللبناني، خاصة

إنْ أضفنا العدد الضخم من اللاجئين السوريين الذين تدفقوا إلى لبنان (وكثير منهم سُنّة)؛ ما يؤرق المكون المسيحي أوّلًا ثم الشيعي، ويقوّي احتمال بقاء معظم هؤلاء في لبنان عدة سنوات، وأيضًا سوف يؤثر في الديموغرافيا اللبنانية لغلبة المكون السني.

مع تورُّط إيران في الحرب الأهلية الطويلة، وضعف الدولة السورية تحت ضربات التمزق الهائلة، فإن إيران تجد نفسها أكثر وأكثر متورطة في «المستنقع السوري». في البداية، كانت تتدخل بالسلاح والمال، ثم اضطُرَّت، أمام تراجع قوة الدولة السورية الحربية، إلى أن تتدخل بإرسال مقاتلين. وقد جرى بالفعل إعلان قتل قيادات عسكرية معروفة في الساحة السورية؛ ما خلق بلبلة في أوساط الطبقة الوسطى الإيرانية، التي ترى أن تورط بلادها في تلك الساحة لا مبرر له ولا ضرورة، خاصة بعد الاستنزاف المالي والسياسي الكبير، الذي تدفعه إيران في أكثر من منطقة ملتهبة في الجوار. تتأثر الجارة الأردنية بهذا الاضطراب من جهتَين، إحداهما التدفُّق الضخم لِلَّاجئين السوريين، الذي أثقل كاهل الدولة الأردنية. والثانية إشاعة شيء من القلق في النسيج الأردني، بأن ذلك الخلل العظيم يمكن أن يُسمع في الداخل الأردني. في المحصّلة، يتأثّر الإقليم برمته بما يجري في سوريا والعراق، ما يُعرّض الأمن والسلم في هذه المنطقة للخطر.

تأثير الاضطراب السوري في الخليج تَتهم أوساط إيرانية وسورية دولَ الخليج بالتمويل والدعم لبعض الجماعات

المحاربة في سوريا، وهو ادعاء تنقصه الأدلة. إلا أن دول الخليج في معظمها مؤيدة للمعارضة السورية المعتدلة، وقد دعمَتها سياسيًّا في أكثر من وقت وعلى أكثر من منبر، لأنها ترى أن القتل الممنهج للشعب السوري، وتشريد ملايين من أبنائه، عملٌ مُنافٍ للقيم الإنسانية والإسلامية والعربية، وأن الشعب السوري مهضوم الحقوق الأولية ويحتاج إلى مساعدة. هذا الموقف يدفع كلًّا من إيران، بمساعدة عراقية وسورية، إلى محاولة تصدير الاضطراب إلى دول الخليج، من خلال العمل أوّلًا على خلخلة الصف الخليجي سياسيًّا، وثانيًا التطلع إلى مساعدة مِن بعض المكونات الخليجية الطائفية على خلْق خلل أمنيّ، كما يَحدث بوضوح في البحرين.

من جهة أخرى، تَدفَّق إلى ساحات القتال بعضُ الشباب الخليجي ـ على عكس ما تريد دُوَله ـ ، مدفوعًا بغضب على ما يحدث من قتل في سوريا والعراق وتصفيات للمكون السني، لمناصرة هذا الفريق أو ذلك من المقاومين، خاصة أصحاب «الرايات الإسلامية». وقد أصدرت بعض دول الخليج تشريعات تَمنع مواطنيها من الانخراط في القتال، تحت أي شعار أو في أية ساحة، كما فعلت المملكة العربية السعودية. إلا أن تلك التشريعات لم يُستجَب لها. فعلى المستوى الشعبي، أصبح هناك تعاطُفٌ بين بعض الجماعات في الداخل الخليجي، كان دافعه الشعورَ العميق برفض القتل العشوائي، الذي تقوم به السلطة السورية ومناصروها. بعض التعاطف سببه الكراهيَة الطائفيّة ويجذب المساعدات العينيّة ويحثّ الشباب على الالتحاق بجبهات القتال. من هنا، فإن

بعض التبرعات الشعبية الخارجة عن القانون تُجْمع لبعض تلك الجماعات المحاربة، وتتسلل عناصر شبابية إلى جبهات القتال، على عكس ما تريد دول هؤلاء «المجاهدين»، إذ إنّهم سيشكلّون بعد حين خطرًا داهمًا على الأمن في الخليج. ثم إنّ الاحتقان الطائفي قد أفرز بعض المظاهر والأعمال السلبية المفزعة للأمن والاستقرار الخليجي، نتيجة ما يَحدث مباشرة في الساحتين السورية والعراقية، مثل تفجير مسجد في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية في بلدة القديح محافظة القطيف، أو محاولة تفجير مسجد آخر في حي العنود في الدمام مع سقوط قتلى، أو تفجير مسجد الإمام الصادق في الكويت (الجمعة ٢٦ حزيران (يونيو) ٢٠١٥)، مع سقوط ثمانية وعشرين قتيلًا وجرْح أكثر من مئتين من المصلين من الطائفة الشيعية في الكويت.

مِثل هذه الأعمال المستنكَرة، هي إفرازات سلبية للصراع في كل من سوريا والعراق بشكل مباشر. ومِن الإفرازات محاولات إيرانية بغطاء عراقي، للقيام بالتفجيرات وأعمال عنف في البحرين آخرها في ١٨ أيّار (مايو) ٢٠١٥، وهي جزء من سلسلة من المحاولات لإشاعة الاضطراب. وسوف تستمر إفرازات الاضطراب الأمني في العراق وسوريا في التأثير في دول الخليج من جانبين: الأول منهما تدفُّق بعض الشباب الخليجي إلى ساحات القتال، مأخوذين بحماس تحت غطاء ديني ـ مذهبي باعتبارِه ردَّ فعل، ومُطعَّمين بمقولات دينية خارجة عن سياقها من جهة، وبمحاولات مضادة لتدريب شباب خليجيين من حزب الطائفة الشيعية من قِبل أيٍّ من حزب الله «العراقي»

أو «اللبنانـي»، لإشـاعة اضطـراب مشـابه فـي الشـكل ومختلـف فـي المضمـون فـي بعـض دول الخليـج. ليـس سـرًّا أن ماكينـة حـزب الله اللبنانـي، قـد بـدأت منـذ مـدة بعمليـات تحشـيد وتعبئـة زادت فـي الفتـرة الأخيـرة، وخاصـة بعـد تفجيـر مسـجد الإمـام الصـادق فـي الكويـت، إلـى درجـة الإعـلان علـى اليوتيـوب عبـر أحـد الأبـواق الإعلاميـة، أن «علـى الكويـت أن تنحـاز إلـى سـوريا وإيـران»[٢]، فـي تدخُّـل سـافِر فـي شـأنٍ داخلـي كويتـي.

التعصـب المذهبـي فـي المنطقـة، يُطلـق تعصُّـبًا مذهبيًّـا آخـر مسـاويًا لـه فـي المقـدار، ومضـادًّا لـه فـي الاتجـاه. وتحويـلُ الصـراع السياسـي الحقيقـي إلـى صـراع مذهبـي، يسـهل الحشـد والتجنيـد. تلعـب وسـائل الاتصـال الاجتماعـي الحديـث دورًا مسـهِّلًا فـي التجنيـد والتجنيـد المضـاد، وخلْـق بيئـة تَقبـل تلـك الأفـكار. لـم تعُـدِ المعركـة فـي سـوريا مجـرد معركـة للمطالَبـة بالحريـات، وأيضًـا ليسـت مجـرد حـرب أهليـة. هـي فـي الواقـع «صـراع اسـتراتيجي»، يُسـمع فـي كل المنطقـة مـن العـراق حتـى اليمـن، مـرورًا بـدول الإقليـم قاطبـة، بأنـه صـراع يمكـن توصيفـه بيـن «دول متوسـطة القـوة» لهـا مظاهـر ديمغرافيـة، وأيضًـا اقتصاديـة. نـرى مـن التقاريـر الدوليـة أن بـلادًا مثـل: العـراق وإيـران واليمـن وسـوريا، هـي بـلاد وضْعُهـا الاقتصـادي «مُتـدنٍّ»، بـل إن بعـض التقاريـر توصلهـا إلـى حـدود «الفقـر»، وتُصنِّفهـا باعتبارهـا مـن الـدول «الفاشـلة». مـن جانـب آخـر نـرى ظاهـرة

---

(٢) ناصـر قنديـل، نائـب لبنانـي سـابق مقـرَّب مـن حركـة أمـل وحـزب اللـه، يتّهـم الكويـت بلهجـة محرّضـة عبـر التلفزيـون بأنهـا «سـاحة مناصـرة لداعـش».

معاكسة، هي أن هذه الدول مِن أكبر الدول في المنطقة، ويشتمل مكوِّنها الديمغرافي على قطاع الشباب[٣]. لذلك، فإن ظاهرة الإرهاب تجد لها بيئة حاضنة ودوافع إيديولوجية، حتى ارتفعت حوادث الإرهاب بين العامين ٢٠١٠- ٢٠١٣ حوالي ثلاث مرات[٤]. ثم إنّ أكثر المناطق دموية هي العراق وسوريا واليمن، ومعظم من ارتكب الفظائع هم «مسلمون يقتلون مسلمين»، حتى غدت مُفرَدة «المسلم» أو «السلام القادم» تعني عكسها.

اللافت أن هذا الاضطراب هو حلقة محيطة بدول الخليج، ووجود بعض شباب الخليج في تلك الساحات أمرٌ ينذر بخطر مقيم في المستقبل، مِثله تمامًا تجنيد شباب من طوائف أخرى خليجية لأعمال «إرهابية» مضادة لمجتمعاتها. أصل المشكلة في السياسة، وفرعها المغذي في الثقافة، والحلول الأمنية مؤقتة ومسكِّنة لا غير. ولن نستطيع حل مشكلة الإرهاب (بمعناه العميق)، إلا من خلال حل المشكلة السياسية إما بالحرب أو بالدبلوماسية، لأنها تَحمل معادلة صعبة ورغبة في التوسع «الإيراني» من جهة، و«تردُّدًا في المواجهة الثقافية وإقامة الدولة المدنية، بكل ما تتطلبه تلك الإقامة من رغبة ورؤية وقدرة»، من جهة ثانية.

١ آب (أغسطس) ٢٠١٥

---

(٣) انظر دراسة أنتوني كرودزمان الموسوعيّة:

The Revolution in Civil -Military Affairs, Burke Chair CSIS, 2nd of July, 2015.

(٤) ورد الإحصاء في الدراسة السابقة: ١٥٠٠ إلى ٤٦٥٠ حادث.

٣

أعطال الحوار العربيّ التركي: هل من سبيل إلى رأب الصدع؟

خرائط العلاقات الوعرة لفتت تركيا أنظار العرب على نحوٍ لم تفعله طوال قرن منذ انهيار الدولة العثمانية. ففي وسط العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين، توجَّه الرأي العام والحكومات العربية إلى تركيا، لأسباب عديدة، على رأسها توليفة من عاملين هما: النجاح الاقتصادي، والحكم ذو الخلفية الإسلامية. لم تصل تركيا فجأة إلى هذا النجاح الاقتصادي والسياسي، الذي أوصلها إلى أعلى قمة في العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين، بل سبق ذلك تجارِبُ بعضها مرير، وصراعٌ أوصل الأتراك إلى حد الانقسام العمودي الحاد، في كلا المجالين: الاقتصادي، والخلفية الإسلامية. فقد تعثّرت تركيا اقتصاديًّا، حتى وصل الأمر ألَّا يُسمح لمسافر تركي بأخذ أكثر من مائة دولار معه أيًّا كانت وجهته، بل عليه أن يُعيد الباقي إلى الدولة إنْ بقي من ذلك المبلغ شيء، وذلك دليل على أن الوضع الاقتصادي التركي متعثر ضيّقٌ، وأنّ تجربة حكم الإسلام السياسي لم تنجح اقتصاديًّا وذلك يعود إلى راديكاليّة موجة الإسلام السياسي التركي الأولى (نجم الدين أربكان)، الذي وصل إلى الحكم بوصفه رئيس وزراء سنة ١٩٩٦، وكانت فترة مربكة ومشوشة جديدة، وكان الانقسام فيها واضحًا في الجبهة الداخلية التركية.

إنّ النجاح الذي وصلت إليه تركيا في بداية القرن الميلادي الحالي، قد مهَّدَت له منذ عهد حكم تورغوت أوزال في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، حيث كان رئيسَ وزراء بين الأعوام ١٩٨٩ـ١٩٩٣ من القرن الماضي، وهو الذي أجرى التحول التاريخي في كل من الاقتصاد والسياسة، من جمهورية علمانية كان قد أقامها مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٤، واستمرت تقريبًا ثمانية عقود جعلت من الصعب استمرارها كما هي، واقتصاد متعثر تتدخل الدولة في معظم مفاصله. فجاء أوزال ليقوم بخطوتين مهمتين في مسيرة تركيا الحديثة، الأولى منهما تحرير الاقتصاد التركي من جهة، والثانية إتاحة الفرصة لحزب ديني، يتجلبب بما يشبه الحداثة للعمل العلنيّ. أيًّا تكن الأسباب، فقد صعدت تركيا في أعين المراقبين إلى قمة الإدارة الحديثة والنجاح الاقتصادي، بسبب قيادة أصغت إلى مطالب الشعب التركي. وبدأ العرب الذين كانوا يرون في التجربة التركية شيئًا افتقدوه، يتقربون من التجربة التي حملت دولة حديثة ذات مرجعية دينية، ولكن في نفس الوقت ديمقراطية إلى حد بعيد، تحفظ حقوق الإنسان وتعتني بالإنتاج.

على هذه الخلفية بدأ «الوَلَه» العربي وخاصة الخليجي تجاه التجربة التركية، الذي كان دافعًا إليه القوةُ الجديدة لما يُعرف بـ«الإسلام السياسي» المعتدل، خاصة تلك القوى الخليجية التي تعمل في السوق والتجارة والعمل الأكاديمي والنشطاءَ السياسيين. أضِف إلى ذلك «الإعجابَ» الذي سبّبه البعد

الشـعبي «فنتازيـا المسلسـلات التركيـة» التـي بهـرت المتلقـي الخليجـي، حتـى صـار بعضهـم يسـمِّي أبنـاءه بأسـماء أبطـال المسلسـلات[1].

موقـف السياسـة الخارجيـة التركيـة فـي تلـك الفتـرة (العشـرية الأولـى مـن القـرن الواحـد والعشـرين)، زاد من ذلـك الانبهار، حيث بـدأت تحـت شـعار «تصفيـر المشـكلات» خاصـة تجـاه العـرب تُصفِّـي المشـكلات العالقـة، وكان أمـرًا مرحبًـا بـه مـن قطاعـات واسـعة عربيـة، وخاصـة خليجيـة. زادت حـدة تصاعـد الخـلاف بيـن تركيـا وإسـرائيل[2] عمـق تفهُّـم العـرب للموقـف التركـي، وخاصـة تجـاه قضيتهـم الكبـرى. فقـد وجـدوا فـي تركيـا نصيـرًا خالـف كل مـا كان يقـوم بـه، واهتـم بالقضيـة إلـى درجـة حـدوث صِـدام دبلوماسـيّ مـع إسـرائيل. بسـبب كلّ تلـك التوتّـرات التـي افتعلهـا حـزب التنميـة والعدالـة زاد التقـارب العربـيّ والخليجـيّ تحديـدًا مـن الأتـراك.

التقـارب المؤسَّسِـي فـي منتصـف العقـد الأول مـن القـرن الواحـد والعشـرين، وعلـى خلفيـة النجـاح الاقتصـادي، والخلفيـة الإسـلامية التـي بـدأت تحـدّد علاقـات تركيـا الدوليّـة، بـدأ الحـوار الخليجـي ـ التركـي. وكان ذلـك فـي عـام ٢٠٠٥، وعلـى مسـتوى

---

(١) كانـت تلـك الأسـماء العربيـة مـن نسـج خيـال المترجميـن الذيـن دبلجـوا تلـك المسلسـلات.

(٢) ظهـر الخـلاف الإسـرائيلي ـ التركـي الحـاد علنًـا يـوم غـادر الرئيـس أوردوغـان قاعـة الحـوار فـي دافـوس، كانـون الثاني (ينايـر) ٢٠٠٩ محتجًّـا علـى مداخلـة الرئيـس الإسـرائيلي شـيمون بيريـز.

وزراء الخارجيـة، والـذي تفرعـت منـه عددٌ مـن اللجـان «العملية». بعدهـا عُقـدت ثلاثـة حـوارات علـى مسـتوى القمـة كان آخرهـا عـام ٢٠١٢، كانـت علـى التوالـي سـنة ٢٠٠٨ فـي الكويـت، وسـنة ٢٠١٠ فـي جـدة، وسـنة ٢٠١٢. كان نتيجـة هـذا التقـارب بيـن الخليـج وتركيـا، أنْ قفـز حجـمُ التبـادل التجـاري بيـن المنطقتيـن مـن مليـارَي دولار عـام ٢٠٠٠ إلـى ٢٠ مليار دولار عـام ٢٠١٠. هذه القفـزة النوعيّـة الكبيـرة، تـدل علـى متانـة العلاقـة بيـن الأتـراك والخليجييــن فــي هــذه الفتــرة. تدفقــت مليــارات الــدولارات باعتبارهـا اسـتثمارًا فـي تركيـا، سـواءٌ اسـتثماراتٍ شـخصيةً (شـراء عقـارات) كانـت، أو اسـتثماراتٍ رأسـماليّةً وخدميـة مثـل: افتتـاح فــروع للبنــوك الخليجيــة، أو مشــاركة فــي مصانــع، أو ســياحة خليجيـة إلـى تركيـا أو عبْرهـا إلـى أوروبـا؛ بـل شـهدت تلـك الفتـرة أعلـى كثافـة زيـارات رسـميّة خليجيّـة لأنقـرة، أو مـن أتـراك للعواصـم الخليجيـة. فالعقـد الأول مـن القـرن الواحـد والعشـرين شـهد مـا يمكـن أن يسـمَّى «شـهر العسـل» التركـي ـ الخليجـي. فـي نفـس الوقـت، بـدأت بعـض النخـب العربيـة والتركيـة بالتفكيـر فــي تكويــن تجمــع عربــي تركــي (شــعبي) للحــوار، فأُنشِــئَت مجموعـة الحـوار العربـي ـ التركـي الـذي أُشـهر فـي إسـطنبول، وعُقـد أربعـة اجتماعـات بيـن إسـطنبول والمنامـة فـي البحريـن علـى التوالـي، ثـم عُقـدت مجموعـة مـن الحـوارات بيـن النخـب التركيـة والعربيـة فـي عـدد مـن العواصـم العربيـة وإسـطنبول، وأيضًـا فـي العواصـم الخليجيـة.

مـا الـذي عطَّـل الحـوار؟ الربيـع العربـي وأحداثـه وتفاعلاتـه وصدْمَتـه عطَّـل جزئيًّـا الحـوار، بـل رفـع مـن وتيـرة الشـكوك. فقـد

وجـدت السياسـةُ التركيـة أن «أحـداث الربيـع» هـي فرصـة لهـا مـن أجـل تسـويق مشـروعها السياسـي (الإسـلام السياسـي الحديـث)، ووجـدت بعـض الـدول العربيـة والخليجيـة بالـذات، أن السـلوك السياسـي التركـي فـي هـذا الموضـوع هـو سـلوك متعجـل لا يأخـذ بالحسـاب المصالـح الخليجيـة. كان سـفرُ السـيد رجـب طيـب أردوغـان، بوصفـه رئيـس الـوزراء، إلـى كل مـن القاهرة وتونـس إبَّان الثـورة الربيعيـة فـي عـام ٢٠١٢، دليـلًا عنـد الآخريـن علـى أن تركيـا تؤسـس لعلاقـات جديـدة، وتديـر ظهرهـا للعلاقـات السـابقة بـدول الخليـج. أيضًـا تَصاعُـد تأييـد تركيـا للقـوى «الإسـلامية المتشـددة» العربيـة، ولخوضِهـا مغامـرات فـي هـذا الأمـر، زاد مـن الريبـة بيـن عـدد مـن الـدول الخليجيـة تجـاه تركيـا.

تَبيَّـن لتركيـا فيمـا بعـدُ أن بـرْق «الربيـع»، هـو بـرْقٌ خُلَّـب. لـم يتفهـم الأتـراك الفـرق المنهجـي بيـن «الإسـلام السياسـي» فـي البـلاد العربيـة و«التجربـة التركيـة»، مـع أن تركيـا ـ لا سـيّما بعـد زيـارة أردوغـان لمصـر والإدارة الإخوانيـة فـي القاهـرة ـ تَبيَّـن لهـا أن هنـاك فروقًـا لا يمكـن تجسـيرها فـي التفكيـر بيـن التيارَيـن. إلا أن الخطـأ الآخـر الـذي ارتكبَتـه تركيـا هـو اسـتمرارها فـي احتضـان «الإخـوان»، علـى الرغـم مـن فشـلهم فـي مصـر، وإلـى حـد بعيـد فـي تونـس. ولـم تَفهـم أنقـرة أن مـا حـدث فـي مصـر مـن تغييـر ضـد الإخـوان، يوافِـق رغبـة الشـعب المصـري ـ أو أغلبـه ـ فـي رفـض الحكـم المتشـدد للإخـوان. هـذا الأمـر، أي اسـتمرار تركيـا فـي دعـم الإخـوان بتجلياتهـم المختلفـة فـي أكثـر مـن دولـة عربيـة، جعـل بعـض دول الخليـج تأخـذ «خطـوة إلـى الخلـف» تجـاه تركيـا، التـي هـي نفسـها واجهـت صعوبـات سياسـية أيضًـا

في سوريا. وقد اختلفت من جديد بعض دول الخليج مع تركيا في الثلاث سنوات الأولى من ثورة السوريين، بسبب الاختلاف في المنظور والأولويات، الذي يتطلَّب الأخذ بها تجاه تطورات الأحداث في سوريا. من جهة أخرى، لم تُبْدِ تركيا «حماسة» متوقَّعة منها في الحرب ضد الحوثيين في اليمن، عندما اندلعت الحرب في آذار (مارس) ٢٠١٥.

تلك كانت الملفات التي أخرت التفاهم والتفهم بين تركيا ودول الخليج، إلا أن بعض الدول الخليجية، وخاصة قطر، كانت ترى في الكثير من الملفات ما تراه تركيا، وهو ما جعل التمهل من دولٍ خليجية تجاه تركيا يزداد مع شيء من الشكوك غير المسكوت عنها، خاصة أن تركيا أصبحت أرضًا لاستقطاب كبار «الإخوان» العرب.

في السياسة تتبدل الأمور قد تتبدل السياسة بشكل سريع، خاصة في المراحل الانتقالية، مثل ما تشهده المنطقة العربية والشرق الأوسط الكبير اليوم. فقد أوشكت الحرب في سوريا أن تصير حربًا «عالمية» يشارك فيها العديد من الدول، بعضها عضوٌ أساسي في مجلس الأمن مثل روسيا، والأخيرة تُبْدي عداءً شديدًا ومعلَنًا للدولة التركية، بعد اشتباك الطيران الذي أوقع طائرة روسية في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥، حيث «اعتبرته روسيا إهانة لقوتها». وأيضًا الرد الروسي كان يعمل على تقوية كل أعداء تركيا الدولة في الجوار، خاصة أكراد تركيا وأكراد سوريا، وهو ما يسبب صداعًا مستمرًّا لأنقرة. أضف إلى ذلك أن «المستنقع»

السوري، أوقع تركيا الرسمية في إشكال كبير. فلا يبدو أن حلفاءها في الغرب يتفهمون موقفها؛ إذ طالبت تركيا بـ«منطقة عازلة» فوق شمال سوريا، لجعلِها مكانًا يأوي إليه اللاجئون، وربما منطلَقًا لأعمال عسكرية، لكنها لم تفلح في إقناعهم. ثم تدفقت هجرة اللاجئين السوريين من تركيا إلى أوروبا بأعداد كبيرة؛ ما أوقع تركيا في إشكال جديد مع جيرانها الأوروبيين، وجعلتْها حائرة في أيٍّ من الملفّات تبدأ. فقد احتاجت إلى أصدقاء، ومن هؤلاء الأصدقاء الصف الخليجي، الذي يرى أن أُولى الخطوات التي يجب أن تتخذها تركيا هي «مصالحة تركية ـ مصرية»، من أجل نزع شوك التخوف والريبة الذي يشعر به المصريون من جهة، ومن أجل تصلُّب موقف الدول «السُّنّية» في المنطقة من جهة ثانية، في وجه هجمة توظفها إيران تحت شعار طائفي، لخلخلة الوضع في المنطقة العربية بشكل عام، وفرض نفوذها التوسعي، ودفع مصالحها إلى مكان يُقلق العرب والأتراك معًا.

أمام تركيا إذًا ملفات للتفكير العميق، واتخاذ خيارات استراتيجية، شاءت أم أبَت، لمواجهة مجموعة من المتغيرات، جميعُها لها أثَر سلبي في أمنها القومي، بل وخطِرة على الدولة الوطنية التركية. من جهة أخرى، فإن دول الخليج ترغب في أن تتعاون مع تركيا بشكل إيجابي، لأن ما تملكه تركيا من موارد استراتيجية تحتاج إليها دول الخليج في مرحلة الصراع مع إيران، في ظل تراجع الرغبة الأميركية في التدخل الناشط أمام الهجوم الروسي ـ الإيراني. من هنا، فإن

خطوات المصالحة التركية ـ المصرية، واحدة من أولويات العمل القادم في السياسة التركية ـ الخليجية، وهي سياسة منسقة في كل من سوريا ولبنان وربما اليمن أيضًا، وتُعَدُّ من المتطلبات العَجْلى لكِلْتا السياستين التركية والخليجية في الأشهر القليلة المقبلة.

الأمور السياسية في المنطقة ـ كما ذكرتُ آنفًا ـ هي في مرحلة خطيرة وصعبة الضبط. فليس من المتوقع أن يكون هناك اتفاقٌ يقود إلى سلام ما في الربوع السورية في وقت قريب. فهناك في تلك الساحة سوف تتصارع إرادات، وتتداخل مناورات، ويحدث تفكيك وتركيب جديد بين دول فاعلة، ليس أقلَّهُ من وجهة النظر التركية أن يكون هناك «كيان تركي» في كل من سوريا والعراق، يُنبت دولة جديدة هي في طريق التشكيل نتيجة الصراع الدائم. ثم إنّ النتيجة في اليمن قد لا تكون محسومة، وقد يَنتج منها أيضًا شيء من التقسيم، إما على الشكل القديم (يمن شمالي وجنوبي)، أو ربما أكثر من ذلك. ولا يوجد حتى الآن رأس جسر لتوافق مصري ـ تركي، وهو حجر الزاوية في احتمال قلب المعادلة ضد الهجمة الإيرانية. هذا ويزيد تراجُع أسعار النفط التي تعتمد عليها دول الخليج، في تهدئة سرعة التبادل التجاري التركيّ ـ الخليجيّ. ولا بد أن ننظر إلى الداخل التركي الذي يشهد صراعًا معلَنًا، بين قوى رافضة للسياسات التي تتبعها الإدارة الحالية وتلك القوى التي ترغب في الاستقلال الكامل أو الجزئي عن التراب التركي.

كل تلـك الأسـباب تجعـل إعـادةَ الحـوار الاسـتراتيجي التركـيّ ـ الخليجـي، ذات أهميـة قصوى فـي هـذه المرحلـة الصعبـة، والتـي يجـب أن توضـع لهـا أولويـات، منهـا:

• إعـادة اللحمـة التركيـة ـ المصريـة بأسـرع وقـت ممكـن، مـع تصعيـد تلـك العلاقـة؛ مـن علاقـة عاديـة إلـى علاقـة تعـاون وثيـق فـي الملفـات الإقليميـة العاجلـة.

• وضـع خطـة مشـتركة للملـف السـوري، والعمـل علـى النطـاق العالمـي بشـكل مشـترك للدعـوة إلـى تلـك الخطـة، ومـن بينهـا صـرف بشـار الأسـد مـن السـلطة في أقـرب وقـت ممكـن، وتمكين حكومـة وطنيـة مـن الأجهـزة العسـكرية والأمنيـة والاقتصاديـة.

• التعـاون فـي الملـف اليمنـي، الـذي يتطلّـب نشـاطًا تركيًّا يقـوم علـى التعـاون العسـكريّ والدبلوماسـيّ.

• مسـاعدة تركيـا علـى التغلـب علـى مشـكلاتها مـن خـلال الدعـم الاقتصادي والدبلوماســي.

• توحيـد المنظـور الخليجـي فـي الملفـات القائمـة والصعبـة بشـكل أكبـر ممـا هـو عليـه الآن.

• السـعي الجـاد لوحـدة خليجيـة مبتكـرة وفاعلـة، تقـف بحـزم أمـام تطلعـات الـدول الإقليميـة وخاصـة إيـران فـي الهيمنـة والسـلوك العدوانـي، عـن طريـق عـدد مـن وكلائهـا المحلييـن.

• العمـل علـى النطـاق العالمـي والتنسـيق الدبلوماسـي، لوضـع العديـد مـن القـوى «المـادُون الدولـة»، فـي كل مـن تركيـا ولبنـان

وليبيا وبلاد أخرى على قائمة «الإرهاب الدولي»، ومطاردة مصادرها المالية واللوجستية.

ليس هناك اليوم أكثر من أهمية الحوار التركي ـ الخليجي الاستراتيجي. فهناك العديد من الملفات التي تجعل من هذا الحوار ذا أهمية قصوى، وهو لا يتعلق بالاقتصاد أو التعاون فقط، بل يتعلق بالأمن القومي لكل من تركيا ودول الخليج. ولقد بدأ بالفعل تواصل سعوديّ ـ تركي، لبدء الحديث في «خارطة طريق» للتعاون، وأيضًا هناك دول خليجية بدأت تنظر إلى أهمية التعاون على اعتبار أنها ضرورة استراتيجية. ثم إن هناك رأيًا عامًّا خليجيًّا وتركيًّا محبِّذًا لهذا التواصل، وتصفية المشكلات العالقة بأسرع وقت ممكن، حتى تصل رسالة إلى المعسكر المعادي، مُفادُها جدّية التوجّه الذي لا يقتصر على استقبل وصرَّح وودَّع فالسلام عليكم...

٦ آذار (مارس) ٢٠١٦

٤

القضيــة الفلســطينيّة فــي ضــوء المتغيــرات السياســية العربيــة والدوليــة

أمّ القضايــا فــي تشــرين الثانــي (نوفمبــر) مــن العــام ٢٠١٧، يكـون قـد مـرَّ علـى القضيـة الفلسـطينية قـرن كامـل، منـذ إعـلان وعـد بلفـور فـي ٢ تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ١٩١٧[١]. ومنـذ ذلـك الوقــت تَصاعــد مــا عُــرف فــي تاريــخ الأدب السياســي العربــي بمُســمَّى «القضيــة»، وهــي التــي ســادت جميــعَ الأحــداث بعــد ذلـك التاريـخ حتـى السـاعة. «القضيـة» وبجانبهـا «اكتشـاف النفط وتســويقه» فــي المنطقــة العربيــة، شــكَّلا معًــا السِّــمة الرئيســية لمجمــل التداعيــات والتطــورات، فــي هــذا العالــم الممتــد مــن المحيـط إلـى الخليـج، منـذ مطلـع القـرن العشـرين حتـى اليـوم. لقــد ســاهمت تداعيــات «القضيــة» بشــكل مباشــر أو غيــر مباشــر فــي الكثيــر مــن الأحــداث والتطــورات فــي هــذه المنطقــة، مثــل: الثــورات، والحــروب الأهليــة، والقمــع، والدكتاتوريــات، وتغييــر أنظمــة وانقلابــات، واغتيــالات، وظهــورِ أحــزاب واختفائهــا، حتــى الإرهــاب أيضًــا. وجــرت التغييــرات فــي حــدود الــدول العربيــة،

(١) وعْـدُ بلفـور أو رسـالة بلفـور، هـو الاسـم الشـائع الـذي أطلـق علـى الرسـالة (الوعـد)، التـي أرسـلها أرثـر جيمـس بلفـور إلـى اللـورد ليونيـل والتـر روتشـيلد، يشـير فيهـا إلـى تأييـد الحكومـة البريطانيـة إنشـاء وطـن قومـي لليهـود فـي فلسـطين.

خاصة المجاورة لإسرائيل «التي أعلنت وطنًا قوميًّا تنفيذًا لذلك الوعد في عام ١٩٨٤، مع عدد غير قليل من الأحداث الكبرى المتتابعة في منطقة الشرق الأوسط العربية، والتي كانت عبارة عن تأثير «ميكانيزمات القضية وملابساتها» التي أثَّرت في حياة ملايين العرب والمسلمين في هذه المنطقة. لقد أصبحت «القضية الفلسطينية» بمنزلة «قميص عثمان العصر الحديث»، بالمعنى الحرفيّ لا المجازي. وربما تؤثر مفاعيل هذه القضية برُمَّتها في الأجيال العربية القادمة، حتى في غير العربية التي تعيش في هذه المنطقة من العالم.

القضية من الجانب العربي، فإن الإشارة إلى «القضية» في الإعلام وفي العمل السياسي، تعني «القضية الفلسطينية». وفي دراسة تطوراتها، يتبين لنا اليوم كم من الأخطاء الكبرى ارتُكبت ولا تزال تُرتكَب باسمها وذلك بسبب الجهل السياسيّ والشعبويّة وعوامل أخرى. أثَّرت تلك الأخطاء في المسيرة التاريخية للقضية، وفي تطور الدول العربية الناشئة بعد الحرب العظمى الأولى، وخاصة قُبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها. نلاحظ هنا حزمة اقتصادية ـ اجتماعية ـ سياسية ـ ثقافية، ساهمت في تطور مسار القضية كما سارت حتى الآن. فقد استفاد «الصهيوني المغتصِب» من علوم مختلفة تطورت في القرن التاسع عشر في أوروبا (التي صدَّرت أولى الهجرات الصهيونية إلى فلسطين). فاستفاد من تلك العلوم الحديثة، ومنها: العلوم العسكرية والنفسية، قبيل إنشاء

الدولـة اليهوديـة وبعدهـا، لكـي يسـتخدمها فـي قضـم الأراضـي الفلسـطينية، والتوسـع وشـن الحـروب. علـى سـبيل المثـال، عنـد مراجعـة «مـا عُـرف بالإرهـاب» وجـذوره فـي منطقـة الشـرق الأوسـط، نجـد أن «الموسـوعة البريطانيـة» فـي طبعاتهـا الأولـى تُقـرر فـي موضـوع «الإرهـاب فـي الشـرق الأوسـط»، أنـه إرهـاب نابـع مـن عمـل «العصابـات الصهيونيـة»، التـي انتعشـت إبَّـان الاحتـلال البريطانـي لفلسـطين (الانتـداب)، بيـن الحـرب العالميـة الأولـى وخـروج بريطانيـا عـام ١٩٤٨. وكان ضحيـةُ ذلـك الإرهـاب عـددًا مـن ضبـاط الاحتـلال البريطانـي فـي فلسـطين وجنـوده، والفلسـطينيين العـرب السـكان الأصلييـن فـي البـلاد[٢] أيضًـا. مـن جهـة أخـرى، لقـد اسـتَخدمت تلـك العصابـات «ثقافـة العـار» المترسـخة لـدى المجتمـع الفلسـطيني ـ وخاصـة الفلاحيـن فيـه ـ ، لإشـاعة التخويـف مـن عمليـات «الاغتصـاب للفتيـات والنسـاء». فقامـت بالفعـل بعمليـات «قتـل واغتصـاب»، وضخَّمَتها دعايتُهـا؛ مـا جعـل قطاعًـا كبيـرًا مـن أهـل القـرى الفلسـطينية يهجـرون منازلهـم «خوفًـا» مـن تلـك الفَعْلـة. فـكان أن غـادر بعضهـم منازلَهـم وقراهـم علـى أمـل عودتهـم لهـا فـي القريـب، بسـبب تدخُّـل «القـوات العسـكرية العربيـة»[٣] الموجـودة آنذاك.

---

(٢) الكثيـر مـن أعضـاء تلـك العصابـات الإسـرائيلية، خدمـوا بعـد ذلـك فـي مؤسسـات الدولـة فـي مراكـز رفيعـة.

(٣) هنـاك عـدد مـن الكتـب ناقشـت هـذا الموضـوع، مـن أهمِّهـا كتـاب أصدرتـه «بـي بـي سـي»:

Aharon Bregman and Jihan El-Tahri, **The Fifty Years War :Israel and the Arabs**, BBC books Penguin Books, 1998.

وهكـذا، تعاملـت العصابـات الصهيونيـة باسـتخدام العِلـم الاجتماعـي والعِلـم الوضعـي، لتوسـيع سـيطرتها علـى الأرض الفلسـطينية فـي مجـالات شـتى، وأيضًـا العِلـم العسـكري والعلم الاسـتخباراتي، فـي مقابـل ردود فعـل عربيـة «فلسـطينية»، فـي الغالـب عاطفيـة وقاصـرة عـن فهـم العمـل السياسـي أو أهميـة العلـم الحديـث فـي المقاومـة. لقـد صـادف «العِلـمُ» «الجهـلَ» فـي عـدد مـن الملفـات فـي مسـار القضيـة، وكان مـن الطبيعـي أن ينتصـر العلـم. دون التسـلح بالعِلـم الحديـث «الاجتماعـي والبحثـي والتطبيقـي»، والاعتمـاد عليـه، فـإن معركـة «إحقـاق الحـق» سـوف تطـول. إلا أنـه لا بـد مـن القـول: إن «المقاومـة» التـي أبداهـا الشـعب الفلسـطيني طـوال هـذا الزمـن، ولا يـزال يقدمهـا أبنـاؤه، تعنـي أنـه لـدى هـذا الشـعب قـوى كامنـة، علـى نخبتـه توظيفهـا بالطـرق الصحيحـة والفعالـة والعلميـة.

الثـورات العربيـة مـن أهـم نتائـج «الهجمـة الإسـرائيلية علـى فلسـطين»، أن جميـع الثـورات العربيـة أو الانقلابـات التـي قامـت فـي الـدول العربيـة، كان شـعارها الأكثـر وضوحًـا هـو «فلسـطين»، مــن زمــن الثــورة المصريــة عــام ١٩٥٢، إلــى العراقيــة فــي الخمسـينيات، وإلـى السـودانية والليبيـة واليمنيـة، كلهـا كانـت تبـرّر انقلابهـا علـى النظـام السـابق بأنّـه «سـاعد» علـى ضيـاع فلسـطين. لذلـك، يجـب تغييـره. فـي مصر على سـبيل المثـال: كان هنـاك مـا عُـرف بـ«فضيحـة الأسـلحة الفاسـدة»، حيـث تصاعـدت احتجاجـات مـن المحاربيـن علـى الجبهـة المصريةالفلسـطينية،

بأنهـم زوَّدوا النظـام «الملكـي» بأسـلحة فاسـدة. وفـي العـراق، كان الاتهـام المعلـن هـو أن النظـام السـابق «تقاعَـس أو تآمَـر» علـى فلسـطين. أمـا فـي سـوريا، فقـد كان موضـوع فلسـطين هـو مـا دار حولـه الصـراع بيـن الجماعـات المتنافسـة، للوصـول والاحتفـاظ بالحكـم فـي دمشـق. أمـا فـي ليبيـا، فقـد كانـت «القضيـة الفلسـطينية» هـي الخبـز والزبـد لنظـام السـيد معمـر القذافـي.

بِاسْـم فلسـطين والاسـتعداد لاسـترجاعها، اختفـت فـي عـدد مـن الـدول العربيـة الحريـات العامـة، وتلاشـت خطـط التنميـة، وانتُهكـت حقـوق الإنسـان، وعَظُـم بنـاء السـجون، وتفنَّنـت الأنظمـة فـي تعذيـب قطاعـات كبيـرة مـن الشـعوب وتهميـش النخـب، فـي مقابـل قصـف غيـر منقطـع علـى الـدول التـي لـم تكـن فـي هذا الـوارد (وارد القمـع). فعُيّـرت بالمحافظـة والرجعيّة. مـا شـق الصـف العربـي، وأضعـف مقاومتـه للمتغيـرات، وخاصـة «التوسـع الإسـرائيلي» فـي الجـوار. لقـد اعتقـدَت النخـب العربيـة أو كثيـر منهـا أن «الثـورات العربيـة» سـوف تُعِـدُّ العـدة لتخليـص فلسـطين مـن الاحتـلال الإسـرائيلي، وتسـامحت مـع الاختـلال الداخلـي العميـق، الإنسـاني والاقتصـادي والثقافـي، فـي سـبيل يـوم «التحريـر» الموعـود، حتـى جـاء عـام ١٩٦٧ (أي منذ خمسـين عامًـا) تقريبًـا، لتقتنـع النخبـة العربيـة أو بعـض مسـتنيريها علـى الأقـل، بـأن مـا ظنَّتـه «أسَـدًا» لـم يكـن أكثـر مـن «نعجـة». وأن الشـعوب المغلوبـة داخليًـا لا يمكـن أن تنتصـر خارجيًـا. وأن مـن يعتمـد علـى الجهـل غيْـرُ مـن يعتمـد علـى العلـم. بعـد ذلـك

العام ١٩٦٧، دخلت «القضية» مرحلة أخرى شبيهة بما جرى في السابق، ولكن بأيديولوجيات أخرى، تَشابَه فيها المَخْبر واختلف المَظْهر.

الحرب ضد المغتصِب في أراضٍ أخرى بعد هزيمة ١٩٦٧، التي أحدثت زلزالًا في المنطقة ولدى الشعوب العربية، وخُفِّفَت إعلاميًّا باستخدام مفهوم غامض ومضلِّل هو «النكسة»، وبعد أن سميت «الخسارة الأولى» سنة ١٩٤٨، أو عُرفت بمفهوم «النكبة» الغامض، توَجَّه كثير من النشطاء إلى البحث عن ساحات أخرى وأيديولوجيات تبحث عن مخرج. فكان النمو والتصاعد لما عُرف لاحقًا بـ«الإسلام السياسي»، على اختلاف ألوان قَوس قُزَح الذي اشتمل عليه، مثل: «إخوان، سلف، سلف جهادي، ولاية الفقيه» وغيرها من الجماعات الناشطة. حضرت «القضيّة الفلسطينيّة»، الشعارُ الرابح دومًا من جديد.

لقد كان «الإخوان في مصر وخارجها» ينظرون إلى تجربة عبد الناصر، على اعتبار أنها حُكم «قامع لهم ومُعادٍ للإسلام»[٤]. لذلك، عوقب نظامه وما يدعو إليه بـ«الهزيمة»، وزادت الدعوة إلى الخروج من ذلك المأزق بالعودة إلى «الإسلام وحمْل راية الجهاد». وتضافَر عدد من الأحداث من أجل إنعاش مثل ذلك التصور، خاصة بعد احتلال الاتحاد السوفيتي وقتها لأفغانستان المسلمة عام ١٩٧٩، وانطلاق

(٤) في عهد عبد الناصر، مع أنه كان معاديًا للحركة الإسلامية السياسية، إلا أنه بنى أكبر عدد من المساجد في مصر، ومنع تجديد الكنائس.

مقاومة ضد ذلك الاحتلال، معظم حاملي أعلامها المختلفين كان شعارهم هو الإسلام. ورأى عدد من العرب والفلسطينيين أن العودة إلى فلسطين تمرّ عبر تحرير كابل[٥]! ورأى آخرون أنها من خلال تحرير القاهرة أو أية عاصمة عربية، وذلك يُمهِّد الطريق إلى فلسطين!

هكذا أصبحت القضيّة تحمل شعارات الإسلام السياسيّ. فكان عبد الرحمن عزام والزرقاوي، وسلسلةٌ طويلة من الذين قادوا «الجهاد» في أراضٍ بعيدة، يرون أن ذلك هو الطريق الصحيح إلى عودة فلسطين. دخل على الخط آخرون، منهم الجمهورية الإسلامية الإيرانية، التي استغلَّت ذلك الشعار «القريب إلى القلب العربي»، وهو تحرير فلسطين، لتُنشئ مشروعًا من الجيوب التابعة لها (مثل حزب الله في لبنان)، وتُقدم مساعدات لفصيل من الفلسطينيين (حماس) من أجل كسب تَعاطُف بعض العرب، ومِن ثَمَّ التحكم في مقدَّرات المنطقة. وقد انطلى ذلك الأمر على كثيرين، إلى اليوم. أما بعضهم الآخر، فقد اكتشفوا أن «حزب الله وأمثاله» ليس أكثر من «مخلب قِطّ»، للطموحات الإيرانية وولاية الفقيه لا غير.

العودة إلى القضية من جديد من زاوية الحريات ما إنْ تتوتّر الأمور في فلسطين، حتى تَظهر القضية من جديد.

---

(٥) شعار العودة إلى فلسطين، «بِيعَ لِلعامة» أكثر من مرة، تارة من بيروت، وأخرى من كابل، وثالثة من بسمان (قصر الحكم في عمَّان ـ الأردن)، وتارة من دسمان (مقرّ السكن للحُكم الكويتي).

وقد حدث ذلك حين انفجر الصراع حول «الصلاة في الحرم القدسيّ» (تموز (يوليو) ٢٠١٧). إلا أن القضيّة «هي إذًا مُشعلة أبديّة لساحة السياسة العربيّة، تتوهّج برهة ثمّ تخبو علمًا أنّ «اغتصاب فلسطين» هو أصل الشرور»[٦]. القضية الأمُّ، قضيّتنا المركزيّة، تختفي عن شاشة الرادار السياسي العربي، لتعود وتَظهر من جديد بصور مختلفة؛ إما بقوة أو من خلف الستار، لكنها موجودة هناك في خلفية أيّ صورة سياسية في شرقنا المبتلَى. القضيّة موجودة منذ «معاهدة سايكس بيكو» التي حلَّت ذكراها المئوية منذ سنة (أيْ منذ عام ١٩١٦)، والتي كانت ثلاثية لا ثنائيّة، إذ أَسْقَط منها التاريخ الجزء الخاص بالطرف الروسي، مرورًا بوعد بلفور، ثم خُطَب المسؤولين العرب المعاصرين، كخطاب الرئيس عبد الفتاح السيسي في افتتاح محطة كهرباء غرب أسيوط (أيار (مايو) ٢٠١٦)، حيث عرّج على الموضوع الفلسطيني، وقدم أفكارًا حول إمكانية الدفع بهذا الملف إلى شيء من الحوار الدولي الجاد، على خلفية المبادرة الفرنسية التي أُرجئت وقت ذاك إلى وقت آخر، ثم نُسِيَت[٧]. حديث رئيس الجمهورية المصرية عن فلسطين، بعد كل ما حدث في الشرق الأوسط من تغيرات ضخمة، له دلالة يجب التوقف عندها، وهي صلب التوتر الهائل الذي أصاب منطقتنا وارتداداته. ولكن التوجه إليها

---

(٦) محمد الرميحي، جريدة الشرق الأوسط، ٢١ أيار (مايو) ٢٠١٦.

(٧) تَحمَّس رئيس الجمهورية الفرنسية السابق فرانسوا هولند في آخر شهور حُكمه، ودعا إلى مؤتمر دولي يُعقد في باريس لبحث القضية، إلا أن مقاومة إسرائيل للفكرة وَأَدَتْها في مهدِها.

يجب أن يكون من منظور آخر، هو الحريات، والتطور الأخير ذو مداخل أربعة على الأقل.

المَدخل الأول. إن كثيرين ممن كتبوا عن «الربيع العربي» أشاروا إلى ظاهرة لافتة في نظرهم، وهي أن كل الشعارات التي ظهرت في الميادين من مصر إلى تونس إلى ليبيا إلى سوريا إلى اليمن، لم تأت من قريب أو بعيد على ذكر «القضية الأم». فاستنتج المعلّقون على اختلاف مشاربهم أنّ «القضيّة الفلسطينيّة»، لم تعد مَركز اهتمام المواطن العربي العادي، المشغول بحريّته ولقمة عيشه، التي حُرِمَها بسبب «ذريعة فلسطين». كل تلك التحليلات كانت بعيدة عن الواقع، حتى وإن لم تَظهر كلمة فلسطين في الشعارات الميدانية، فقد كانت في خلفية الصورة هي الحاكمة، وكانت الدافع والمحرِّك، ولكن لم يلاحظها أحد. لقد كانت المطالَبةُ بالحرية، على اعتبار أنها أحد أهم الأسلحة لمحاربة إسرائيل. فالمجتمع غير الحر لا يستطيع أن ينال حقوقه الوطنية أو القومية.

المَدخل الثاني. إن كل الانقلابات في بلاد العرب منذ الحرب العالمية الثانية، بدأت من مصر إلى سوريا إلى ليبيا إلى السودان إلى اليمن ـ بحسب ما أسلفنا ـ، وكل من ركب الدبابة العسكرية، وذهب إلى مقر الحكومة للانقضاض على السلطة من العرب، كان شعاره «تحرير فلسطين». لقد بدأ تاريخ العرب مع الثورات العسكرية في فلسطين، وانتهى

بدونها. ظنَّ بعضهم، وراهَن على أن هؤلاء العسكر الذين قادوا الثورات، سوف يقومون بتحرير فلسطين من النهر إلى البحر، قبل أن يرتدَّ للمواطن العربي طرْفُهُ. بل إن شخصيةً من تلك الشخصيات الملتبسة، هي رئيس جمهورية سوريا في وقت ما السيد أمين الحافظ، الذي وعَد في مبنى الجامعة العربية أن يُعطَى فقط مهلة «أسبوعين»(٨) لتحرير فلسطين. أُدْخِلَ الشعبُ العربيُّ في كل تلك البلاد «الثورية» في قفص شبكات المباحث والسجون المظلمة و«المقاومة أخيرًا»، من أجل تحرير فلسطين. فحُرِمَ الحرية وحُرِمِ الخبز معًا، تحت ذريعة ذلك الشعار الذي قُدِّم للعامة معجونًا بالتسلط والقمع، إنه الطريق إلى فلسطين. فأصبحت «فلسطين» تحت تلك الأنظمة «نقمة» على الشعوب. لذلك، كان مطلب الحرية الذي نادى به «أهل الربيع العربي» هو الجسر إلى التحرير.

المدخل الثالث. اكتشفت القوى الإقليمية مركزية فلسطين في ضمير المواطن العربي، فاستخدمَتها بالكثير من الانتهازية والمزايَدة السياسية. وقامت تركيا باستدرار عطف العرب المتمسكين بقضيتهم الأم، فاستخدمت هذه البطاقة في القول وفي الفعل؛ حيث انسحب السيد طيب أردوغان (رئيس وزراء تركيا) من مناظرة في ندوة دافوس مع شيمون بيريز، في شباط (فبراير) ٢٠٠٩، حقَّقَت له شعبية لدى العرب، فأطلق غزّاويّون اسمه على مواليدهم الذكور. بعدها، أرسل

(٨) كان الحديث في ذلك الاجتماع العربي وقتها في «تحويل مياه نهر الأردن».

مساعدات إلى شواطئ غزة في سفينة «مرمرة» التي حملت أيضًا متطوّعين متحمّسين في أيار (مايو) ٢٠١٠، حيث صدَّتها إسرائيل بجلافة. بعد ذلك دخلت الإدارة التركية في جفاء مع إسرائيل، التي كانت متحالفة معها فترة طويلة إلى درجة التعاون العسكري. إلا أن المصالح غلبت المواقف، فعاد ما اختُلف عليه في العلن إلى الوفاق في السر، ثم ظهر إلى العلن.

المَدخل الرابع. قامت إيران ـ ولاية الفقيه، وبِاسْم فلسطين بإنشاء ميليشيات لها في كل من لبنان واليمن، ظاهرُها «الحرب على إسرائيل»، ورفعت شعارات «الموت لإسرائيل وأميركا» في ضاحية بيروت الجنوبيّة، وفي ساحة السبعين في صنعاء، كما في ساحات طهران. في الوقت الذي تتعامل فيه إيران رسميًّا مع إسرائيل في أكثر من مجال سابقًا ولاحقًا، حيث ظهر أخيرًا بثٌّ قنوات إيرانية برامجَها إلى العالم العربي عبْر القمر الصناعي الإسرائيلي (أموس)، والذي كشفت مصادر روسية النقاب عنه. وهو دليل آخَر على استخدام اسم فلسطين في العلن للتغرير بالعامة والبسطاء، والظهور بمظهر يجذب بعض العرب إلى الحلقة الإيرانية، وفي نفس الوقت إباحة التعامل من خلف الستار مع المحرَّم.

معظم الشرور التي ابتُلي بها المواطن العربي والوطن العربي، كانت بسبب الاستخدام الانتهازي والمبرمَج للقضية الفلسطينية. وقد نتج من ذلك موجات من الإرهاب تحت غطاء اسم فلسطين، لتفريغ المظلومية في السياسية بشكل عبثي. صبري

البنّا (أبو نضال)، الذي قَتل من الفلسطينيين والعرب أكثر من أيِّ عدو آخَر، وعبد الله عزام، وأحمد الخلايلة (الزرقاوي)، حتى مجموعات «المقاومة في الضاحية الجنوبية» والتي هي ليست أكثر من عصابات مسلحة مأجورة ـ كلها نتائج مباشرة أو غير مباشرة لاختطاف القضية الأم.

أن يعود الرئيس المصري ـ على الرغم من كل ما تواجهه مصر اليوم من تحديات سياسية وتنموية ـ إلى أصل المشكلة، يعنى أن هناك اعترافًا بأن أصل الشرور ـ ومن ضمنها الإرهاب المنتشر ـ يعود إلى تلك القضية الأم، التي عانى شعبُها ظُلمًا بيِّنًا واضطهادًا مستمرًّا طوال أكثر من سبعة عقود حتى اليوم. ثم إنّ الوجه الانتهازي في استخدام تلك القضية، أصبح واضحًا للجميع ومفضوحًا، وحلَّ أوان تعريته، سواء الأنظمة التي ركِبَت الموجة لاضطهاد شعوبها وحرمانهم الحريةَ، ووضعِهم جميعًا في سجون مفتوحة، أو الدول الإقليمية المزايدة التي تريد أن تمرِّر طموحاتها التوسعية تحت مظلَّة الخيمة الفلسطينية.

العلة الداخلية أكبرُ الأخطاء المرتكَبة في مسيرة القضية، ارتكبها يا للأسف أبناء القضية. فالتشرذم الذي أصاب الحركات السياسية الفلسطينية، جعل من المناسب للقوى الدولية المناصِرة لإسرائيل ـ وأيضًا للدولة الإسرائيلية ـ أن تستفيد من هذا التشرذم. ولم يستطع أحد بعْدُ من العرب أو من غيرهم، إقناعَ القوى الفلسطينية بأن خلافهم الحادَّ فيما بينهم هو خلاف على «طريدة لم تُصطَد بعد»، وبأن المتغيرات العالمية على الساحة الدولية تضع «القضية»

بشكلها الحالي والانقسام بين أهلها، في زاوية حرجة. فيواجه الفلسطينيُّ اليوم خلافًا حادًّا بين «السلطة الفلسطينية وفتح» و«حماس». في بعض الأوقات يكون التناقض بينهما، أكبر وأوسع حتى من التناقض بين أحدهم وإسرائيل ـ هكذا يبدو للمراقب ـ فليس هناك مبرِّر عقلي أو سياسي أو ثقافي أو مصلحي يسوق هذا الخلاف، إلا إنْ حسبنا «الخلاف على الكراسي والامتيازات وصراع الشخصيات»، وهو علة ثقافية عربية. في الوقت الذي يعاني فيه الفلسطينيُّ المواطن صلَفَ الاحتلال وتَبِعاته الكارثية، نرى أن القيادات في وادٍ آخر تمامًا، وغير مَعنيَّة إلا بالشعارات، وكل ما مرَّ يومٌ بدا أن هذا الشقاق يَكبر، وتتدخل في مساره قوى إقليمية ودولية، من أجل توسعة الشُّقَّة وإبعاد الوفاق.

لقد قامت دول عربية عديدة بمحاولات مُضْنِية، لجلب الفريقين إلى مكان من التوافق، كما فعلت المملكة العربية السعودية، إلى درجة قيام الفريقين بحلف أغلظ الأيمان أمام الكعبة المشرفة(٩) في ٨ شباط (فبراير) ٢٠٠٧. ومع ذلك فشلت تلك الجهود، كما فشلت غيرها. فبِدُون توحيد الجهد الفلسطيني، سوف تظل القضية عائمة في وسط صراع ثقيل، وسوف يبقى الشعب الفلسطيني يعاني أكثر أنواع الاضطهاد عنفًا في القرن الواحد والعشرين. ويَأسف المطَّلع أنَّ قرنًا جديدًا من

(٩) ما عُرف باتفاق مكة، وكان راعيه المرحوم الملك عبد الله بن عبد العزيز، وسُمِّي في الصحف وقتها «وَأْد الفتنة»، وكان بين حركتي فتح وحماس الفلسطينيتين. انظر جريدة الرياض ٩ شباط (فبراير) ٢٠٠٧.

الآلام أمـام شـعب عربـي هـو الشـعب الفلسـطيني، سـبَبُه جزئيًّـا الجهـلُ العميـق بطبيعـة الظـروف الدوليـة والنضاليـة المتسـارعة حولنـا، مـن قِبـل قيـادات الجماعـات الفلسـطينية، والجهـلُ بتاريـخ حـركات التحريـر الوطنـي فـي العالـم. فلـم تسـتطع أيُّ حركـةِ تحريـرٍ وطنيـة فـي العالـم الحديـثِ الحصـولَ علـى نتائـج إيجابيـة، وهـي تَدخـل فـي الصـراع مـع مناوئيها برأسـين. وسـوف تبقـى رُدود الفعـل اللحظيـة علـى هـذا أو ذاك مـن أعمـال الإسـرائيليين فـي الأرض وعلـى البشـر، وتَظهـر ثـم تختفـي كمـا حـدث أخيرًا فـي أزمة «الصـلاة فـي المسـجد الأقصـى». إنَّ عـدم قـراءة المتغيـرات الدولية الحادثـة سـوف يؤخـر النضـال الفلسـطيني، ومـا الاسـتجابة ـ علـى حيـاء ـ[١٠] لمتطلبـات العصـر، إلا دليـل علـى أن الخطـوات المهمـة المطلوبـة تُتَّخـذ مـن قِبـل بعـض القـوى الفلسـطينية فـي السـاعة الخامسـة والعشـرين.

٢٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٧

---

(١٠) مثـل إعـلان حمـاس أخيـرًا برنامجهـا الـذي تَقبـل فيـه بعـض ما قبِلَتـه فتح قبـل ربع قرن.

٥

عند انفجار صراع مسلح تكون ساحة المعارك هي الساحة الخليجية

إيران النوويّة والخليج اتفق الباحثون في علم الاجتماع السياسي، أنّ ما تأخذه الولايات المتحدة من قرارات يُحدِثُ ارتدادات تَصغر أو تَكبر لدى طائفة من الدول، صغيرها وكبيرها، بعيدها وقريبها.

لمَّا كانت القضية الساخنة هي القضية الإيرانية، وحيث إن الصدام بين القوة الكبرى (أميركا) والقوة الإقليمية (إيران) يجري قريبًا من الفضاء الجغرافي الخليجي والعربي، وأيضًا لما كان شكل الصدام له احتمالات متعددة، فمن الطبيعي أن تتأثر هذه المنظومة «الخليجية» والعربية، تَبعًا لمجريات هذا الصراع وتداعياته السياسية والاقتصادية، بل حتى الاجتماعية، وربما العسكرية.

لقد نشأ من جرَّاء الصراع مجموعة من الشروط والمطالب المسبقة بين كلا الطرفين، منها الشروط التي طالبَت بها أميركا من أجل إعادة التفاوض، والاشتراطات الإيرانية المضادة. فكما جاءت الشروط الأولى على مرحلتين: الرئاسة، ووزير الخارجية، قابلَتها الاستجابة الايرانية أيضًا على مرحلتين. ومن أجل الإحاطة بالصورة، نَعرض هنا شروط الطرفين لبسط الفكرة على «ساحة المعركة».

شروط الولايات المتحدة لم يكن خفيًّا أن السيد دونالد ترامب كان قد أعلن أثناء الحملة الرئاسية الانتخابية عام ٢٠١٦، أن من بين أولوياته إعادة النظر في الاتفاق النووي الذي وقَّعت عليه في ١٥ تموز (يوليو) ٢٠١٥، الدول الست (خمس زائد واحد وإيران)[١]، وأن ذلك الاتفاق مُعيب من وجهة نظره[٢]، وسوف تجري مراجعته في حال فوز المرشح ترامب. سارت التخمينات بين المراقِبين بين احتمالين: خروجُ الولايات والمتحدة من الاتفاق، أو بقاؤها مع تعديلات طفيفة على الاتفاق. وكانت بعض التحليلات قد ذهبت إلى عدم جدية الإدارة الأميركية في الانسحاب من ذلك الاتفاق الدولي، خاصة مع وجود معارضة شديدة من شركائها الأساسيين، وهم دول أوروبا الغربية (ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا)، حتى إنّ بعض المحلِّلين خارج تلك المنظومة الغربية وجدوا أن هناك صعوبات تكتنف الانسحاب، بسبب أن الخيارات الأخرى غير واضحة، أو غير متاحة. إلا أن الأمر أخذ وجهة أخرى، ففي ٨ أيار (مايو) ٢٠١٨ أعلن الرئيس الأميركي انسحاب بلاده من الاتفاق، والتشدد في إعادة المقاطعة الاقتصادية مع إيران خلال أشهر، حيث تبدأ المرحلة الأولى في ٦ آب (أغسطس)، والمرحلة الثانية في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٨. أيضًا شدد الإعلان على فرض عقوبات اقتصادية على أي دولة أو

---

(١) الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن هي: الولايات المتحدة، والصين، وروسيا الاتحادية، وبريطانيا، وفرنسا؛ ومعهم ألمانيا الاتحادية.

(٢) يشاركه في هذا التوجه عدد من أعضاء الكونغرس الأميركي.

شـركة تتعامـل مـع إيـران بعـد ذلـك التاريـخ. وعلـى الرغـم مـن الزيـارات التـي قـام بهـا عـدد مـن رؤسـاء الـدول الغربيـة قبـل الإعـلان مباشـرة بالبيـت الأبيـض[٣]، مـن أجـل إقنـاع الإدارة الأميركيـة باتخـاذ تدابيـر مخففـة، وعلـى الرغـم مـن الزيـارات السـابقة لـوزراء الخارجيـة الغربييـن[٤] لإيـران مـن أجـل البحـث فـي مخـارج لإبقـاء الولايـات المتحـدة فـي صلـب الاتفـاق مـع تعديـلات ترضـى بهـا إيـران، فـإنَّ قـراءة إيـران للتوجـه الأميركـي لـم تكـن أكثـر مـن «مناورة». راهنـت طهـران علـى تدخُّـل الـدول الغربيـة لمنـع الولايـات المتحـدة من الخـروج من الاتفـاق، وكانت المراهنـة خاسـرة. عقـب أيـام مـن إعـلان الخـروج مـن الاتفـاق (تقريبًـا ثلاثـة عشـر يومًـا)، جـاءت التفاصيـل، حيـث ظهـرَت فـي ٢١ أيـار (مايـو) شـروط الإدارة الأميركيـة لمعـاودة التفـاوض مـع إيـران علـى قاعدتهـا، والتـي أعلنهـا مايـك بومبيـو وزيـر الخارجيـة الأميركـي، فـي كلمـة ألقاهـا فـي معهـد هيرتيـغ فـي العاصمـة الأميركيـة واشـنطن، تؤكّـد أنّ الموقـف الأميركـي مـدروسٌ. أمّـا الشـروط الاثنـا عشـر فهـي كالآتـي:

١ـ الكشـف عـن كل التفاصيـل المرتبطـة ببرنامـج طهـران النـووي، والسـماح لوكالـة الطاقـة الذريـة الدوليـة بالتفتيـش المسـتمر.

٢ـ التوقـف عـن تخصيـب اليورانيـوم، وغلـق مُفاعـل أراك النـووي الـذي يعمـل بالمـاء الثقيـل.

---

(٣) مثّل السيد ماكرون فرنسا، والسيدة ميركل ألمانيا.

(٤) كان أهمهـم وزيـر خارجيـة فرنسـا قبـل أشـهر مـن إعـلان الخـروج مـن الاتفـاق، وقـد قوبـل فـي طهـران بعـدم اهتمـام لمـا يقولـه أو يُحـذّر منـه.

٣ـ منـح الوكالـة الدوليـة نفـاذًا شـاملاً لـكل المحطـات النوويـة الإيرانيـة.

٤ـ وضـع حـد لانتشـار الصواريـخ البالسـتية والصواريـخ التـي يمكـن أن تحمـل رؤوسًـا نوويـة.

٥ـ إطـلاق سـراح الأميركييـن، وكل المواطنيـن الحامليـن لجنسـيات مـن دول حليفـة لواشـنطن المحتجَزيـن فـي إيـران.

٦ـ وضـع حـد لدعـم «المجموعـات الإرهابيـة فـي الشـرق الأوسـط».

٧ـ وضـع حـد لدعم حركـة طالبـان والقاعـدة والجماعـات الإرهابية الأخرى.

٨ـ وضع حد لدعم فيلق القدس في الحرس الثوري.

٩ـ وضـع حـد لتصرفـات طهـران تجـاه إسـرائيل والـدول الحليفـة لواشـنطن فـي الشـرق الأوسـط.

١٠ـ نزع سلاح الميليشيات الشيعية في العراق.

١١ـ وضع حد لدعم ميليشيات جماعة الحوثي في اليمن.

١٢ـ الانسـحاب مـن سـوريا وسـحب ميليشـيات الحـرس الثـوري الإيرانـي هنـاك.

تلـك الشـروط الواسـعة تشـير إلـى كل مـا تـراه واشـنطن مـن أضـرار، نتيجـة السياسـات التـي تتبعهـا طهـران منـذ مـدة، ولـم يتعامـل معهـا المفاوضـون فـي الـدول السـت (٥+١). وقـد تَفاعـل الإعـلام العالمـي والعربـي مـع تلـك الشـروط، بعضهـم مـن المناصريـن لإيـران رأى أنهـا «تعجيزيـة»، وبعضهـم الآخـر وجـد أنهـا موضوعيـة، وهـي ـ إن لـم تُسـتَوفَ فـي معظمهـا ـ مقدمـة

«لتغيير النظام الإيراني» بعد تصعيد مبرمَج للصراع. أضاف الوزير بومبيو في خطابه: «إن الولايات المتحدة سوف ترسل مجموعات متخصصة إلى دول العالم لشرح سياسة الإدارة الأميركية تجاه إيران، والكشف عن الدور التخريبي الذي تقوم به في المنطقة». وأردف: «إذا لم تُغير إيران مسارها، فسوف تزداد العقوبات». والجملة الأخيرة هي صدًى لما صرَّح به الرئيس ترامب في وقت سابق، بما معناه أن إيران سوف تشهد حصارًا اقتصاديًّا لم يُعهد من قبل. أيضًا وَضع الخطابُ اللوم على النظام في تردِّي الأوضاع المعيشية في إيران. بعد الإعلانين في ٨ و٢١ أيار (مايو)، بدأت مباشَرةً الشركات الكبرى الغربية ـ تحسُّبًا لأية مخاطر ـ تنسحب من السوق الإيراني، ثم إنّ الدول الغربية التي حاولت إيجاد حلول وسطى بين الموقفَيْن الأميركي والإيراني، وجدَت نفسها تميل إلى الاصطفاف مع الولايات المتحدة، إما بسبب تفهُّمها للمخاطر التي تُسبِّبها إيران تجاه مصالحها في المدى البعيد، وإمّا لأنها لا تستطيع أن تضحِّي بالمصالح الاقتصادية والسياسية التي تربطها بالولايات المتحدة، خاصة في ظروف تَصاعُد «الشد والجذب» في القطاع الاقتصادي الذي يُنذر بـ«حرب اقتصادية دولية»، وأيضًا تَوجُّه الولايات المتحدة إلى فرض ضرائب على الاستيراد من الغرب. ذلك الميل يمكن قراءته في تصريح السيدة أنجيلا ميركل (المستشارة الألمانية)، الذي نُشر على لسانها وهي في زيارة للأردن[٥]، حيث قالت: إنها

(٥) الشرق الأوسط في ٢٢ حزيران (يونيو) ٢٠١٨.

«قلِقة حول سياسة الصواريخ الإيرانية البالستية، ووجود إيران في سوريا ودورها في اليمن».

شروط إيران المُضادة في ٢٤ أيار (مايو)، أي بعد ثلاثة أيام من إعلان شروط الولايات المتحدة التفصيلية، طَرح المرشد الإيراني علي خامنئي عددًا من الشروط على الدول الأوروبية لبقاء إيران ضِمن الاتفاق النووي، لعلها تضغط على تلك الدول. وهي من جديد قراءة غير دقيقة لما يَجمع الدول الأوروبية بالولايات المتحدة. وطالَب علي خامنئي الدول الأوروبية بتقديم ضمانات لمواصلة الاتفاق النووي، وحماية مبيعات النفط الإيرانية من الضغوطات الأميركية، ومواصلة شراء النفط الإيراني، وبألّا تسعى للتفاوض حول برنامج إيران للصواريخ البالستية، أو نشاط إيران في منطقة الشرق الأوسط. أيضًا طالَب البنوك الأوروبية بحماية التعاملات التجارية مع إيران، مشيرًا إلى أن طهران لا تريد الدخول في نزاع مع الدول الأوروبية (الأطراف الثلاثة في الاتفاق النووي)، وهي: بريطانيا وألمانيا وفرنسا، مع أنها لا تثق بها. واضحٌ من هذه الشروط أنها ردٌّ استعلائي. ثم إنّ المرشد لم يذكر موضوع اليمن، وربما تجاهَله عن قصد.

أما الرد الإيراني الموسع، فقد جاء في مقالة مطولة للسيد جواد ظريف وزير الخارجية الإيراني، نُشرت يوم الخميس ٢١ حزيران (يونيو)، وكانت مُزايدة على الشروط الاثني عشر، حيث جاءت في خمسة عشر بندًا، هي:

١ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تحتـرم اسـتقلال إيـران وسـيادتها الوطنيـة، وتعطـي ضمانًـا بأنهـا سـتُنهي تدخلاتهـا فـي إيـران بموجِـب مـا تعهَّـدت بـه عبـر معاهـدة الجزائـر لعـام ١٩٨٠.

٢ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تتخلـى رسـميًّا عن أسـلوب التهديد، واسـتخدام القـوة كأداة للسياسـة الخارجيـة ضـد الجمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة وغيرهـا مـن الـدول، ممـا يتناقـض مـع المبـادئ الآمـرة فـي القانـون الدولـي وميثـاق الأمـم المتحـدة، وقـد ألحَـق خسـائر جمـة بشـعوب العالـم، وشـعوب منطقتنـا والشـعب الأميركـي.

٣ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تحتـرم حصانـة حكومـة الجمهورية الإسـلامية الإيرانيـة، الأمـر الـذي يُعتبـر مـن المبـادئ الأساسـية للقانـون الدولـي، وأن تُلغـي مـا أصدرَتـه مـن أحـكام تعسـفية غيـر قانونيـة، وتَكـفّ عـن تطبيقهـا سـواء داخـل الولايـات المتحـدة أو فـي سـائر الـدول.

٤ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تعتـرف بالأعمـال غيـر القانونيـة التاليـة التـي قامـت بهـا طـوال العقـود المنصرمـة ضـد الشـعب الإيرانــي، كمـا عليهـا أن تقـوم بالتعويـض عــن الخسـائر التــي لحقـت بالشـعب الإيرانـي مـن جـراء ذلـك، وتُقـدم ضمانًـا يمكـن اختبـار مصداقيتـه بأنهـا سـتكف عـن الاسـتمرار فيهـا والعـودة إليهـا:

• دورهـا فـي الانقلاب العسـكري الذي أدَّى في ١٩ آب (أغسـطس) ١٩٥٣ إلـى إسـقاط الحكومـة الوطنيـة الشـرعية فـي إيـران، وألحق خسـائر وأضـرارًا كبيـرة بالشـعب الإيرانــي مــن جـراء اسـتمرار الحكومـة الانقلابيـة المسـتبدة فـي إيـران طـوال ٢٥ سـنة.

• قيامها بحجز ومصادرة عشرات المليارات من الدولارات من أموال وممتلكات الشعب الإيراني بلا وجه قانوني، سواء ما تم تجميده منها في أميركا بعد انتصار الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، أو ما تمت مصادرته خلال الأعوام الماضية تحت ذرائع واهية وعلى غير وجه قانوني.

• اعتداؤها العسكري على الأراضي الإيرانية عام ١٩٨٠، وانتهاكها الصارخ والسافر لسيادة إيران ووحدة أراضيها.

• مساعداتها العسكرية والتسليحية والاستخباراتية السخية للدكتاتور العراقي المقبور صدام حسين خلال فترة ٨ سنوات من الحرب المفروضة على الشعب الإيراني.

• دورها المباشر في معاناة جمع غفير من الإيرانيين المصابين بالأسلحة الكيمياوية العراقية التي تم تزويد صدام بمكوّناتها من قِبل أميركا وحلفائها الغربيين.

• إسقاط طائرة ركاب مدنية إيرانية بواسطة فرقاطة وينسنس الأميركية في ٣ حزيران (يوليو) ١٩٨٨، مما أودى بحياة ما يزيد على ٢٩٠ مدنيًّا بريئًا من الركاب والطاقم، ثم منح الوسام لقائد تلك الفرقاطة.

• قيامها بضرب المنصات النفطية الإيرانية عبر هجمات متكررة خلال ربيع عام ١٩٨٨.

• توجيه تهم وإساءات واهية إلى الشعب الإيراني الشريف باستمرار؛ كتسميتها الشعب الإيراني بـ«الشعب المتمرد المجرم» أو «الشعب الإرهابي» أو «محور الشر».

• إدراج المسلمين بمن فيهم المواطنون الإيرانيون في قائمة الممنوعين من دخول الأراضي الأميركية، وذلك بأسلوب غير قانوني وعنصري وغير مبرَّر. إن الإيرانيين في أميركا هم من أكثر الجاليات نجاحًا وثقافة والتزامًا بالقانون، كما أنهم قدَّموا خدمات كبيرة لمجتمعهم. وها هم اليوم محرومون من اللقاء بأقربائهم حتى الجدّ والجدة.

• قيامها بإيواء أشخاص من دعاة ممارسة العنف ضد إيران في أميركا، وحماية الجماعات الشريرة من الميليشيات والمنظمات الإرهابية التي كانت بعضها طوال سنوات ضمن قائمة الجماعات الإرهابية لدى الحكومة الأميركية نفسها، ثم تم شطبها من هذه القائمة قبل عدة سنوات بفعل محاولات لوبي مؤجِّجي الحروب، ومن يتقاضون الرواتب من هذه المنظمات ممن أصبح بعضهم اليوم في عداد المسؤولين من الطراز الأول في الإدارة الأميركية الحالية.

• دعمها للمنظمة الاستخباراتية التابعة للكيان الصهيوني (موساد) لغرض القيام بأعمال إرهابية أسفرت عن استشهاد علماء نوويين إيرانيين.

• قيامها بعمليات التخريب في المشروع النووي الإيراني من خلال الحروب السايبرية.

• العمل على تزوير المستندات وخداع المجتمع الدولي والترويج للأزمة المفتعلة.

٥ـ على الحكومة الأميركية أن تتخلى عن سياساتها العدوانية

وعدوانها الاقتصادي المستمر طوال أربعة عقود ماضية ضد الشعب الإيراني، وأن تلغي العقوبات الظالمة الواسعة النطاق والمباشِرة والتي تتعدى حدود أميركا، وتُوقِف فورًا مئات من اللوائح والأوامر التنفيذية الصادرة بهدف عرقلة المسار الطبيعي للتنمية في إيران، مما يشكل انتهاكًا سافرًا للقانون الدولي والمعاهدات النافذة، وتم إدانته من قبل الجميع، وتقوم بالتعويض عن الخسائر الجسيمة التي لحقت بشعب إيران واقتصادها من جراء ذلك.

٦ـ على الحكومة الأميركية أن تُوقف فورًا أسلوبها في الغدر، ونقض العهد ونقضها السافر للاتفاق النووي، مما ألحق بإيران خسائر مباشرة وغير مباشرة تَبلغ مئات المليارات من الدولارات بسبب فرض الحظر على التجارة مع إيران والاستثمار فيها، وأن تُعوّض عن الخسائر التي أُلحقت بالشعب الإيراني، وتتعهد بطريقة يمكن اختبار مصداقيتها بأنها تُنفِّذ دون قيد أو شرط كل ما تعهدت به في الاتفاق النووي، وأنها بموجب ما نص عليه الاتفاق النووي ستمتنع عن أي عمل يُعرقل طريق تطبيع العلاقات الاقتصادية الإيرانية.

٧ـ على الحكومة الأميركية أن تبادر فورًا إلى إطلاق سراح جميع المواطنين الإيرانيين وغير الإيرانيين ممن وُجّهت إليهم تهم مفتعلة بخرق العقوبات المفروضة علي إيران، فأُودعوا السجون الأميركية أو تم اعتقالهم في سائر الدول بفعل الضغوط اللاقانونية من قِبل الحكومة الأميركية لغرض تسليمهم إلى أميركا، وهم يعانون أقسى الظروف تحت

الاعتقال اللاقانوني، كما يجب أن تقوم بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بهؤلاء وذويهم، حيث يوجد بينهم نساء حوامل وشيوخ طاعنون في السن ومَرْضى، وقد لقي البعض منهم حتفه في السجن.

٨ـ على الحكومة الأميركية أن تعترف بتداعيات غزوها العدواني التدخُّلِي لهذه المنطقة، بما فيها العراق وأفغانستان وكذلك الخليج الفارسي، وتسحب قواتها من المنطقة وتضع نهاية لتدخُّلها في شؤون المنطقة.

٩ـ على الحكومة الأميركية أن تضع نهاية للسياسات والإجراءات التي أدت إلى إيجاد جماعة داعش الإرهابية اللاإنسانية وغيرها من الجماعات المتطرفة، وتُرغم حلفاءها في المنطقة على إيقاف الدعم المالي والتسليحي والسياسي للجماعات المتطرفة في هذه المنطقة وفي العالم، وذلك بطريقة يمكن اختبار مدى مصداقيتها.

١٠ـ على الحكومة الأميركية أن تتخلى عن توفير السلاح للطرف المعتدي في اليمن والمشاركة في الهجمات المتكررة على الشعب اليمني المظلوم وقتل الآلاف من أبنائه وتدمير بلده، وأن تُرغم حلفاءها على إنهاء العدوان على الشعب اليمني والتعويض عن الخسائر الناجمة عنه.

١١ـ على الحكومة الأميركية أن تحترم القوانين والأنظمة الدولية وتُبادر إلى وقف دعمها اللامحدود للكيان الصهيوني، وتدين سياسة الأبارتهايد والانتهاك المستمر لحقوق الإنسان من قِبل هذا الكيان، وتدعم بشكل فعلي حقوق الشعب

الفلسـطيني وبوجـه خـاص حقـه فـي تقريـر المصيـر وإقامـة دولـة فلسـطينية مسـتقلة عاصمتهـا القـدس الشـريف.

١٢ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تُبـادر إلـى وقـف بيـع الأسـلحة الفتاكـة بقيمـة مئـات المليـارات مـن الـدولارات إلـى المناطـق المتأزمـة فـي العالـم وبخاصـة منطقـة غـرب آسـيا. فبـدلًا مـن أن تُحـول المناطـق المتأزمـة إلـى مخـزن بـارود، يجـب أن تـدَع هـذه المبالـغ الباهظـة تُوظّـف لتنميـة الـدول ومكافحـة الفقـر فـي العالـم، حيـث إن جـزءًا مـن نفقـات شـراء الأسـلحة مـن قبـل زبائـن أميـركا مـن شـأنه أن يكـون عامـلًا لإزالـة الجـوع والفقـر المدقـع، وتوفيـر الميـاه الصالحـة للشـرب، ومكافحـة الأمـراض فـي كل أرجـاء العالـم.

١٣ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تتخلـى عـن معارضتهـا لموقـف المجتمـع الدولـي المُطالِـب منـذ خمسـة عقـود بإيجـاد منطقـة خاليـة مـن أسـلحة الدمـار الشـامل فـي الشـرق الأوسـط، وأن ترغـم الكيـان الصهيونـي المحتـل المعتـدي علـى نـزع سـلاحه النـووي، وتعمـل علـى إزالـة أكبـر خطـر يهـدد فعـلًا السـلام والأمـن الإقليميّيـن والعالميّيـن، أيْ وجـود أفتـك أنـواع الأسـلحة بيـد كيـان هـو أكبـر معتـدٍ ومؤجـج للحـروب علـى مـر التأريـخ المعاصـر.

١٤ـ علـى الحكومـة الأميركيـة التخلـي عـن اعتمادهـا المتزايـد علـى الأسـلحة النوويـة ومنهـج التهديـد، باسـتخدام هـذه الأسـلحة اللاإنسـانية أمـام الأخطـار غيـر النوويـة، ممـا يُعتبـر انتهـاكًا سـافرًا لمـا تعهـدت بـه تلـك الحكومـة بموجـب المـادة ٦ مـن

معاهـدة حظـر انتشـار الأسـلحة النوويـة، والقـرار الاستشـاري الصـادر عـن محكمـة العـدل الدوليـة، والبيـان الصـادر عـن اجتمـاع مراجعـة وتجديـد معاهـدة حظـر الأسـلحة النوويـة عـام ١٩٩٥، وقـرار مجلـس الأمـن رقـم ٩٨٤؛ وأن تعمـل بواجبهـا الأخلاقـي والقانونـي والأمنـي فـي نـزع السـلاح النـووي بشـكل كامـل، الأمـر الـذي يشـكل مطلـب الأغلبيـة السـاحقة مـن أعضـاء الأمـم المتحـدة وحتـى وزراء خارجيـة أميـركا السـابقين، كمـا أنـه مطلـب كل أبنـاء البشـر الموجوديـن علـى وجـه الأرض بالتأكيـد. فـإن الحكومـة الأميركيـة ـ باعتبارهـا الدولـة الوحيـدة التـي سـجلت فـي التاريـخ باسـمها عـارَ اسـتخدام السـلاح النـووي ـ عليهـا أن تُخلـّص البشـرية مـن كابـوس المَحرقـة النوويـة العالميـة المشـؤوم والأمـن الوهمـي الـذي أُرسـي بنيانـه علـى أسـاس الـزوال الحتمـي للطرفيـن.

١٥ـ علـى الحكومـة الأميركيـة أن تتعهـد لجميع الأطـراف المتعاقدة معهـا وللمجتمـع الدولـي بأنهـا تحتـرم مبـدأ الوفـاء بالعهـد الـذي يُعـدّ أهـم قاعـدة فـي القانـون الدولـي ويمثـل أساسًـا للعلاقـات الإنسـانية المتحضـرة، وأن تتخلـى رسـميًّا، بـل وأهـم مـن ذلـك عمليًّـا، عـن المنهـج الخطـر المتمثـل فـي اسـتغلال القانـون الدولـي والمنظمـات الدوليـة كـإحدى الأدوات المتواجـدة فـي جعبـة أدوات الولايـات المتحـدة»[٦].

(٦) احتفَـظ الكاتـب بالترجمـة الأصليـة مـن الفارسـية إلـى العربيـة، ويلاحـظ أن النـص يسـتخدم كلمـة الأميركيـة وهـي اللفظـة المتبعـة لـدى اهـل الشـام.

إن ما سبقَت الإشارة إليه من سياسات حكومة الولايات المتحدة، يُعدّ نموذجًا من أسباب عدم ثقة الشعب الإيراني بحكومة الولايات المتحدة. ليس هذا فحسب، وإنما هو أحد الأسباب المهمة الرئيسية لفقدان العدالة وانتشار العنف والإرهاب والحرب وفقدان الأمن في العالم، وعلى وجه الخصوص في منطقة غرب آسيا. ولم تُؤتِ هذه السياسات ثمارًا للشعب الأميركي الشريف المتحضر، سوى العبء الثقيل المالي والروحي، والعزلة الحقيقية لدى الرأي العام في الأغلبية الساحقة لدول العالم. فلم يَجنِ ثمارها إلا عدد محدود من مُنتجي الأسلحة الفتاكة. وإنِ امتلكت حكومة الولايات المتحدة شجاعةً تُمكِّنها من التخلي عن هذه السياسات رسميًّا وفعليًّا من أجل أمن شعبها ورفاهيته، فإنَّ عزلة أميركا الدولية في هذه الحالة تنتهي، وتَبرز صورة جديدة عن أميركا في إيران والعالم، وتتهيأ الظروف الملائمة لحركة مشتركة باتجاه الأمن والاستقرار والتنمية الشاملة والمستدامة.

علينا أن نعترف بأن التطلع إلى تغيير سلوك الولايات المتحدة، لا يبدو، يا للأسف، واقعيًّا في ضوء الظروف الراهنة. ولذلك، بذلت الجمهورية الإسلامية الإيرانية جهودها دومًا على المستوى العالمي، في سبيل الترويج للشمولية والتعددية والحوار واحترام سيادة القانون ونزع السلاح النووي، وذلك من خلال تقديم مبادرات من قبيل «حوار الحضارات»، و«العالم ضد العنف والتطرف»، والمشاركة الفعالة في المساعي العالمية الرامية إلى تحقيق نزع سلاح

نـووي، ونظـام دولـي مبنـي علـى القانـون. ثـم إننـا قدَّمنـا حلـولًا عمليـة لحـل الأزمـة فـي كل مـن سـوريا واليمـن سـلميًّا؛ وذلـك منـذ أوائـل أيـام هاتيـن الأزمتيـن، حيـث شَـارَكْنا بفعاليـة فـي المبـادرات السياسـية الجـادة. إلا أنــه فــي كل هــذه الأزمــات قامـت الولايـات المتحـدة بحمايـة المعتديـن والإرهابييـن. وأيضًـا علـى أثـر انسـحاب أميـركا مـن الاتفـاق النـووي بذلنـا جهـودًا صادقـة مـع سـائر أعضـاء الاتفاقيـة المتبقِّيـن، مـن أجـل الحفـاظ علـى هـذا الإنجـاز الدبلوماسـي العالمـي المهـم، ولا نـزال نواصـل هــذا المســار(٧).

تلــك هــي الســاحة الواســعة لِـ«مســرح العمليــات» الجديــد فــي الشــرق الأوســط. والشــهور المقبلــة ســوف تُبيــن لنــا مــا الســيناريوهات التــي ســوف تُخــاض فيهــا عمليــات الصــراع علــى هــذا المســرح، الممتــد مــن أفغانســتان شــرقًا حتــى ضفــاف البحــر الأبيــض غربًــا، علــى أقــل تقديــر. ثــم إن الشــروط والشــروط المضــادة واضــحٌ أنهــا تَحمــل مســاحة واســعة مــن المبتغيــات، وعلــى هــذه الســاحة الواســعة ســوف تصطــدم الإرادات والإدارات.

السـيناريوهات المحتمَلـة التـي يمكـن أن يطوِّرهـا الصـراع فــي العلاقــة الأميركيــة ـ الإيرانيــة واضــح مــن الشــروط والشــروط المضــادة أن المســارَين فــي تصــادُم، وأن الشــروط الإيرانيــة نابعــة مــن «فخــر وطنــي» غيــر مبــرَّر. فهــي تُقــدِّم تلــك الشــروطَ التعجيزيــة مــن أجــل كســب رأي عــام محلــي، وإظهــار

---

(٧) جرى نقل الشروط الإيرانية بكليتها لأهميتها في إطار هذه الدراسة.

القضية وكأنها ثأرٌ تاريخي، يعود تاريخه منذ منتصف القرن الماضي («أحداث مصدّق»)[٨]. أيضًا لم يبرِّر الرد الإيراني وجود قوات إيرانية في كل من العراق وسوريا، أو دعمٍ لقوى عميلة له في كل من لبنان واليمن، أو عبثٍ بمقدَّرات بلاد أخرى في الخليج[٩]. إلا أن حدود التصادم لا تزال تُرسم في الخلفية، فيبدو أوّل وهلة أن «الحرب الساخنة المباشرة» مستبعَدة، على الأقل في الأشهر القليلة المقبلة، ولكن، حروبٌ من أصناف أخرى تتفاعل؛ حرب اقتصاديّة معلنة، خطوطها معروفة، وهي أولًا على الصناعات النفطية والقطاع المالي، فلا بيع أو شراء من المنتَج النفطي الإيراني. ثم إنّ المنظومة المصرفية العالمية سوف تتشدد في التعامل مع إيران تدريجيًّا، أيْ لا تحويل من العملة الإيرانية وإليها. فأول الضحايا سوف يكون الريال الإيراني الذي سوف يشهد تراجعًا في قيمته، ما سيترجم تضخمًا وعوزًا اقتصاديًّا. أيضًا سوف تُستهدف القوى العسكرية الإيرانية، خاصة الحرس الثوري الإيراني بتفرعاته المختلفة. ومن المحتمَل شن حرب أعصاب

---

(٨) مع العلم أن أحداث عام ١٩٥٣ في إيران كانت قصة فشل للمخابرات الأميركية ـ البريطانية، ولكن الذي حدث أن الملالي حشدوا الجمهور ضد ما أشاعوه من أنَّ مصدّق سوف يحوِّل إيران إلى بلد شيوعي. فثار العامة وفشلت حكومة مصدّق، وعاد الشاه محمد رضا من منفاه، وحكم ٢٥ عامًا، وهي نفس المدة التي وقَّع فيها اتفاقية مع كونسورتيوم لاستغلال النفط الإيراني. ويَعجب المؤرخون من أن سقوط حكم الشاه عام ١٩٧٩ تَزامن مع إنهاء الامتياز.

(٩) منها مملكة البحرين والمنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية.

علـى النظـام، وخلخلتـه مـن الداخـل، كمـا حـدث أخيـرًا[١٠] فـي نشـر وجـود أمـوال ضخمـة لأبنـاء مسـؤولين فـي النظـام الإيرانـي الحالـي؛ مـا أثـار لغطًـا واسـعًا علـى وسـائل التواصـل الاجتماعـي بيـن الفرقـاء فـي إيـران. وربمـا تتصاعـد هـذه الضغـوط مـن خلال المعلومـات السـرية، التـي تحتفـظ بهـا الإدارة الأميركيـة حـول شـؤون إيـران المختلفـة. مـن جهـة أخـرى، تتصاعـد الضغـوط علـى وجـود قـوات عسـكرية إيرانيـة فـي سـوريا، ويبـدو أن هنـاك تفاهمًـا إسـرائيليًا ـ روسـيًّا ـ أميركيًّـا، علـى دفـع تلـك القـوات بعيـدًا عـن الحـدود الإسـرائيلية والأردنيـة.

سـيناريو العلاقـات الإيرانيـة العربيـة والعلاقـة بالجـوار

مـن القضايـا التـي طالمـا «سَـرقت الدعايـةُ الإيرانيـة» فيهـا بعـضَ العقـول العربيـة، قضيـةُ فلسـطين، وهـي القضيـة الحساسـة لـدى العـرب. اسـتطاعت إيـران لأسـباب مختلفـة ـ منهـا قصـور فـي الوعـي الجماعـي العربـي ـ أن تسـتغلّ القضيـة مـن طريقيـن: نشـر دعايـة أنهـا تُقـاوم إسـرائيل، وتقديـم بعـض المسـاعدات لبعـض القـوى السياسـية الفلسـطينية. وقـد صـدَّق كثيـرون تلـك الأطروحـات[١١]. مـن النتائـج غيـر المباشـرة لانسـحاب الولايـات

(١٠) نشـرت جريـدة الجريـدة الكويتيـة عنوانًـا عريضًـا علـى صفحتهـا الأولـى يـوم السـبت ٢٣ حزيـران (يونيـو)، يقـول: «فضائـح ماليـة تهـزّ أركان نظـام طهـران». وفـي التفاصيـل أنـه اسـتنادًا إلـى وزيـر الخزانـة الأميركيـة، هنـاك عـدد مـن أبنـاء مسـؤولين فـي النظـام الإيرانـي يملكـون ١٤٨ مليـار دولار أميركـي فـي الولايـات المتحـدة، وهـي مبالـغ مهرّبـة تعـود بالطبـع إلـى الشـعب الإيرانـي.

(١١) كالقـول: إن الـدول العربيـة لـم تهـزم إسـرائيل، بـل هزمهـا حـزب اللـه اللبنانـي بمسـاعدة إيـران، وهـو قـول ملتبـس.

المتحـدة مـن الاتفـاق النـووي، انكشـاف الموقـف الإيرانـي تجـاه «المقاومـة وتحريـر فلسـطين». فبعـد ضربـات الطيـران الإسـرائيلي الموجعـة علـى تجمعـات إيرانيـة عسـكرية فـي سـوريا، ردت تلـك القـوات بعـدد مـن الصواريـخ لـم تتجـاوز هضبـة الجـولان، وكثيـر منهـا سـقط فـي العـراء. فـي نفـس الوقـت لـم يتحـرك حـزب الله فـي لبنـان «للثـأر» مـن إسـرائيل، رغـم تهديـد زعمائـه[١٢]. واضـحٌ مـن سـير الأحـداث أن إيـران فـي سـوريا لـن تلجـأ إلـى إثـارة إسـرائيل، ولـن تسـمح لهـا روسـيا «المهيمنـة اليـوم علـى القـرار السـوري» بـأن تفعـل ذلـك، فـإذا بِنـا أمـام نهايـة «ادعـاءات» خُـدع بهـا كثيـرون. وليـس مـن المحتمَـل أن تَدخـل إيـران فـي صـراع مباشـر مـع إسـرائيل، ثـم إنّ إسـرائيل لا يُحتمـل أن تُضحـي باسـتهداف تـل أبيـب أو حيفـا بسـبب دمشـق أو حمـاة.

هنـاك إذًا توافُـق غيْـر معلَـن يرعـاه الـروس، وأميـركا ليسـت بعيـدة عنـه. ذلـك يفضـي فـي التحليـل الأخيـر، إلـى أن «الحجـة الفلسـطينية» قَـرُبَ انتهـاء صلاحيـة اسـتخدام بطاقتهـا. دول الجـوار تلعـب أدوارهـا علـى مسـرح الاشـتباك: تركيـا [١٣] مثـلًا تربطهـا علاقـات وثيقـة بإيـران، وتربطهـا مواثيـق دوليـة مـع الولايـات المتحـدة. وقـد تواصلـت العلاقـات الاقتصاديـة التركيّـة ـ الإيرانيّـة.

---

(١٢) فـي تصريـح للأميـن العـام لحـزب اللـه السـيد حسـن نصـر اللـه، بعـد ضـرب التجمعـات العسـكرية الإيرانيـة فـي سـوريا، ورد فيـه: «إن ذلـك العمـل لـه مـا بعـده».

(١٣) تجـري فـي تركيـا انتخابـات مفصليـة فـي ٢٤ حزيـران (يونيـو) ٢٠١٨، وبحسـب نتائجهـا يمكـن أن تسـتمر أو تتغيـر السياسـية التركيـة فـي الجـوار.

لـذا، فالعقوبـات علـى إيـران سـوف تـؤدي إلـى ارتفـاع فاتـورة الـواردات التركيـة مـن الطاقـة، والتسـبّب بتراجُـع قيمـة الليـرة التركيـة[١٤]. ففـي عـام ٢٠١٢، بلـغ حجـم التجـارة البَينيـة فـي تركيـا رقمًـا غيـر مسـبوق (حوالـي ١٤ مليـار دولار)، ثـم تَراجَـع بعـد ذلـك. وبسـبب العقوبـات السـابقة، كانـت إيـران تَسـتبدل أموالهـا فـي تركيـا بالذهـب، وتبيعـه فـي أسـواق قريبـة منهـا لاسـتبداله بعمـلات أجنبيـة[١٥]. وقـد صـرح وزيـر الاقتصـاد التركـي بـأنّ «بلاده سـوف تُواصـل التجـارة مـع إيـران قـدر الإمـكان، ولن تسـتجيب لأيٍّ كان بهـذا الخصـوص»[١٦]. إلـى جانـب المصالـح الاقتصاديـة التركيـة الإيرانيـة، هنـاك توافقـات حـول سـوريا، مشـتركة أيضًـا مـع روسـيا. ومـن الممكـن أن تسـتجيب تركيـا نسـبيًّا لمنظومـة العقوبـات الأميركيـة، إلا أن ذلـك يعتمـد بشـكل كبيـر علـى الإغـراءات التـي يمكـن أن تُقدمهـا الولايـات المتحـدة لتركيـا[١٧].

دول الخليـج فـي الغالـب، سـوف تسـتجيب دول مجلـس التعاون الخليجـي بشـكل كلـي وتطبّـق العقوبـات الأميركيـة، لسـببين: الأول منهمـا هـو العلاقـات التاريخيـة بالولايـات المتحـدة، والثانـي أنهـا لا تَقـدر علـى خـرق العقوبـات تحـت طائلـة السياسـة الأميركيـة،

---

(١٤) علـي باكيـر، مركـز كارنيغـي، ٢٠ حزيـران (يونيـو) ٢٠١٨ (متوافـر باللغتَيـن العربيـة والإنجليزيـة).

(١٥) المرجـع السـابق «إن إيـران تَسـتبدل الذهـب الـذي تُقايـض بـه بضاعتهـا النفطيـة فـي تركيـا، فـي أسـواق الإمـارات».

(١٦) تصريح وزير الاقتصاد التركي نهاد زيبكجي في ١١ أيار (مايو) ٢٠١٨.

(١٧) وافقـت الولايـات المتّحـدة الأميركيّـة علـى بيـع طائـرات «أفّ ـ ٣٥» الحربيّـة الحديثـة لتركيـا، كمـا أطلقـت يدهـا فـي شـمال سـوريا.

التـي تَفـرض المقاطعـة علـى «أي دولـة أو شـركة» تتعامـل مـع إيـران بعـد سـريان العقوبـات. ومـن دول الخليـج التـي لهـا علاقـة اقتصاديـة واسـعة دولـةُ الإمـارات، وخاصـة دبـي، التـي تبلـغ تجارتها مـع إيـران حوالـي أحـد عشـر مليـار دولار (عـام ٢٠١٧)، وهـو مبلـغ ضخـم يشـمل إعـادة التصديـر. وهنـا تَبـرز المعادلـة بيـن «الشـراكة الاقتصاديـة والخصومـة السياسـية»، التـي يجـب حلُّهـا قبـل حلـول مواعيـد مراحـل المقاطعـة (آب (أغسـطس) ـ تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠١٨). مـن وجـه آخـر، تنامـت العلاقـة التجاريـة بيـن إيـران وقطـر فـي السـنة الأخيـرة، لا سـيّما فـي المـواد الغذائية والمحاصيـل الزراعيـة، واسـتخدام قطـر للمجـال الجـوي الإيرانـي فـي بعـض رحـلات شـركتها الوطنيـة للطيـران. ثـم إن إيـران وقطـر تتقاسـمان أكبـر حقـل للغـاز الطبيعـي فـي العالـم، والـذي تُشـغِّله شـركات عالميـة. أمّـا عـن بقيّـة دول الخليـج، فالتبـادل التجـاري فيها متواضـع نسـبيًّا، وفـي ضـوء قطـع العلاقـات بيـن الريـاض وطهـران الـذي أُعلـن فـي كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١٦ [١٨]، تدنَّـت العلاقـات الاقتصاديـة بالسـعودية والبحريـن، وتراجعـت بـكلٍّ مـن الكويـت وعمـان.

مـن هنـا إلـى أيـن؟ بعـد إكمـال فتـرة الإنـذار، أي بعـد بدايـة

---

(١٨) إعـلان قطـع العلاقـات صـدر عـن عـادل الجبيـر وزيـر الخارجيـة السـعودي فـي بدايـة كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١٦، بعـد حـرق السـفارة السـعودية مـن قِبـل مؤجِّجيـن إيرانييـن، وأيضًـا القنصليـة فـي مشـهد فـي ٢ كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠١٦. وقـد تبـع ذلـك إمـا سـحب سـفراء خليجييـن أو تخفيـض العلاقـات الدبلوماسـية.

تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠١٨، سـوف يتطـور الصـراع، وربمـا فـي البدايـة يأخـذ شـكل ضغـوط أميركيـة، وربمـا غربيـة، علـى الداخـل الإيرانـي، فـي تصـور محاولـة لخلخلـة النظـام عبـر تسـريب معلومـات عـن فسـاد النخبـة الإيرانيّـة الحاكمـة، ودعـم أكثـر لقـوى المعارضـة الإيرانيـة فـي الداخـل والخـارج. وقـد تتصاعـد تجليـات الصـراع لتصـل «مـا دون الحـرب المعلنـة السـاخنة». ثـم إن إيـران سـوف تحـاول «تحييـد» أكبـر عـدد مـن الـدول المهمـة عـن العقوبـات، خاصـة روسـيا والصيـن، وبعـض الـدول الأخـرى. أيضًـا سـوف تَرفـع الشـوكة مـن خـلال التابعيـن لهـا فـي بعـض الـدول العربيـة، مثـل حـزب اللـه فـي لبنـان والحوثـي فـي اليمـن، وترفـع درجـة التدخـل فـي كل مـن العـراق وسـوريا، مـن أجـل اسـتخدام تلـك الأوراق للتفـاوض. ولكـن، لـن تذهـب إلـى مـكان مـا يثيـر العالـم عليهـا، مثـل إعـادة التخصيـب كمـا هـددت، أو التحـرش بالحـدود الإسـرائيلية. فهاتـان الورقتـان سـوف تُعجـلان ـ إنْ حصلتـا ـ بالصـدام ربمـا السـاخن. سـيبقى الحـال فـي إطـار المنـاورة، ويعتمـد السـيناريو بكاملـه علـى قـدرة الولايـات المتحـدة علـى إقنـاع أكبـر عـدد مـن الـدول ـ وربمـا علـى إغرائهـا ـ بإحـكام العقوبـات المختلفـة، لأن أيَّ ثغـرة أو اختـراق مـن أيـة دولـة أو دول[١٩]، يقلـل مـن

(١٩) فـي أحـد الاجتماعـات فـي الخارجيـة الكويتيـة، قـال السـيد بـان كيمـون، الأميـن العـام السـابق للأمـم المتحـدة: «إن أيـة عقوبـات يمكـن أن يَحـدُث فيهـا ثقـب أسـود، إنْ قـررَت دول أن تخترقهـا».

فعاليـة العقوبـات عندمـا تبـدأ. مـن جهـة أخـرى، سـوف يَعتمـد، جزئيًّـا، سـيْرُ مسـار الصـراع علـى الاتفـاق بيـن الولايـات المتحـدة وكوريـا الشـمالية. فـإن نجـح، فسـوف يشـكل ضغطًـا علـى إيـران، وإغـراءً للـدول الغربيـة «المتـرددة» بالسـير مـع سياسـة الولايـات المتحـدة. أمـا إنِ انفجـر صـراع مسـلح ومـا يشـبهه، فـإن السـاحة التـي سـوف تـدور فيهـا المعـارك هـي السـاحة الخليجيـة بحـرًا وجـوًّا وأرضًـا. ولا يُسـتبعد أن تقـوم إيـران ـ فـي حـال فشـل الأدوات الأخـرى ـ بالتحـرش بـدول الخليـج. تلـك خيـارات وجـب التفكيـر فيهـا.

٢٦ تموز (يوليو) ٢٠١٨

٦

إيـران وتركيـا فـي الخليـج: الإسـلام السياسـي الممـزوج بالقوميـة والأطمـاع فـي المـوارد

تركيـا ـ إيـران لا ينطلـق الموقـف النقـدي للكثيـر مـن النخـب فــي الخليـج تجـاه الجارتيــن إيــران وتركيــا، مــن موقــف مُعــادٍ للشــعوب الإيرانيــة أو التركيــة. كثيــرون يعترفــون بمــا قدمتــه هــذه الشـعوب للحضـارة الإنسـانية والإسـلامية فـي السـابق، ومـا أضافـت مـن ثقافـة ثريـة نفعـت البشـرية، إلا أن الموقـف النقـدي «المعتـرض»، ينطلـق ممـا تـراه هـذه النخـب مـن سياسـات فـي العقـود الخمسـة الأخيـرة لـلإدارات السياسـية لهاتيـن الدولتيـن تجـاه المنطقـة ودول الخليـج. وهــي سياسـات ـ رغـم اختلافهمـا الظاهــري فــي التنظيــم السياســي ـ تنطلــق مــن مــكان واحــد تقريبًـا، قاعدتُـه «الإسـلام السياسـي» الممـزوج بفكـر قومـي ورغبةٍ فــي الاســتيلاء علــى المــوارد والتموضــع السياســي فــي الجــوار.

مِـن هـذا المنطلَـق، تقـف النخـب فـي دول الخليـج وفـي دول عربيــة أخــرى معارِضــة لهــذا التموضــع بالمعنــى «الاســتعماري الجديــد». فليــس مــن المنطــق أن يحــارب العــربُ ســنوات طويلـة «معظـم سِنِي القـرن العشـرين ومـا بعـده»، أشـكالًا مـن الاسـتعمار الإيطالـي ـ البريطانـي ـ الفرنسـي، ثـم يقَعُـوا تحـت «الاســتعمار الجديــد» الإيرانــي أو التركــي أو كليهمــا معًــا فــي بعــض المناطــق، بســبب ادِّعــاء أن مشــروعًا سياســيًّا يجــب أن

يسـود. هـذا التموضـع «الـذي مصيـره إلـى احتـلال» يـؤدي إلـى انهيـار المنظومـة الاقتصاديـة فـي الـدول، التـي يطُولهـا ـ كمـا فـي سـوريا والعـراق واليمـن ولبنـان وليبيـا ـ، ويُحضِّـر مجموعـةً مـن السياسـيين الفاسـدين «تحـت شـعارات مختلفـة»، لحكـم البلـدان وإلهـاء الشـعوب بقضايـا جانبيـة مـن الحـرب إلـى الخبـز، حتـى يظلـوا فـي عـوز. ذلـك المشـروع الثنائـي وتداعياتـه، هـو ما سـوف تَعـرض لـه هـذه الدارسـة.

المشـروع الإيرانـي ليـس جديـدًا علـى السياسـة الخارجيـة الإيرانيـة حتـى قبـل النظـام الحالـي «الجمهورية الإسـلامية ١٩٧٩»، التطلـعُ إلـى توسـيع النفـوذ الإيرانـي تجـاه منطقـة الخليـج. إنَّ ذلـك الشـعور «القومـي» الإيرانـي، والمدفـوع ربمـا بالجيـرة والقـرب الجغرافـي، وبفهـم معيَّـن للتاريـخ القديـم مـن جهـة، أو بظهـور ثـروات ضخمـة «منـذ أربعينيـات القـرن الماضـي» فـي دول الخليـج مـن جهـة أخـرى، بسـبب اكتشـاف النفـط وتسـويقه والشـروع فـي بنـاء اقتصـاد حديـث، جعـل النظـام الإيرانـي يُفصـح عـن رغباتـه الرسـمية، وفـي بعـض الأحيـان تبـدو شـعبية، مـن أجـل مـدِّ النفـوذ والهيمنـة علـى المنطقـة. فقـد كان هنـاك فـي البرلمـان الإيرانـي قبـل الثـورة «ممثِّـل للبحريـن» ـ وإن كان صوريًّـا ـ علـى اعتبـار أن البحريـن تابعـة لإيـران. ومـع قـرب خـروج النفـوذ البريطانـي مـن الخليـج (سـبعينيات القـرن الماضـي)، بـدأت مفاوضـات دوليـة وإقليميـة مـع النظـام الإيرانـي «الملكـي» حـول قضيـة البحريـن، اسـتقرت فـي تسْـوِيَة مـن أجـل الخـروج مـن مـأزق «الشـعبوية المطالِبـة بالبحريـن». فتَقَـرَّر

أن يكـون هنـاك «اسـتطلاع رأي» أو اسـتفتاء، تقـوم بـه الأمـم المتحـدة لاسـتطلاع موقـف شـعب البحريـن، حـول كونـه يفضِّـل الاسـتقلال أم الانضمـام إلـى إيـران. فـي تقريـر الممثـل الشـخصي للأميـن العـام المعيَّـن للمهمـة، ذكـر فيـه أن «الأغلبيـة السـاحقة مـن شـعب البحريـن ترغـب فـي الاعتـراف بهويتهـا فـي دولـة مسـتقلة ذات سـيادة كاملـة حـرة، وفـي أن تُقـرر بنفسـها علاقتهـا بالـدول الأخـرى». وافقـت حكومـة الشـاه محمـد رضـا علـى قـرار بعثـة الأميـن العـام، وقـرار مجلـس الأمـن اللاحـق، وجـرى تبـادُل السـفراء فـي وقـت لاحـق بيـن طهـران والمنامـة، وكان الدافـع فـي السـابق إلـى مـد النفـوذ قوميًّـا، أو مـا اعتَقـد محمـد رضـا شـاه أنـه «شـرْط خليجـي» بديـل عـن النفـوذ الغربـي، خاصـة البريطانـي. ولـم يكـن ذلـك سـرًّا، حيـث صـدرت تصريحـات رسـمية بذلـك ونُشـر فـي جرائـد خليجيـة. وقتهـا لـم يكـن هنـاك كثيـرون (مواطنـون) فـي دول الخليـج، «يناصـرون» أفـكار الشـاه أو الحكومـة الإيرانيـة، والأخيـرة أيضًـا كانـت مشـغولة بملـف شـط العـرب «المتنـازع عليـه بيـن إيـران والعـراق»، وأمـور أخـرى.

البُعـد الاجتماعـي بيـن إيـران والعـرب تاريخـي وقديـم، والهجـرة مـن ضفـة الخليـج «الغربيـة إلـى الشـرقية» بسـبب «الدفـع/ الجلـب» الاقتصـادي، كان قديمًـا. فقـد هاجـرت قبائـل عربيـة إلـى الضفـة الشـرقية (سـواحل إيـران)، واسـتقرت فـي السـاحل الغربـي الإيرانـي مـدة طويلـة بسـبب الوفـرة الاقتصاديـة النسـبية. وبعـد إصلاحـات رضـا بهلـوي الاجتماعيـة (١٩٢٥-١٩٤١)، المتزامنـة مـع اسـتخراج النفـط فـي الضفـة العربيـة، هاجـرت بعـض عائـلات

وقبائـل مُحافِظـة مـن إيـران ـ بعضهـا مـن المذهـب الشـيعي وأخـرى سُـنِّيّة ـ إلـى السـاحل العربـي، وتعاظمـت الهجـرة (مـن عمـال أو سـكان) بعـد ظهـور النفـط فـي مناطـق غـرب الخليـج. فالاشـتباك السـكاني تاريخـي، بـل إنَّ كثيـرًا مـن مناطـق إيـران على السـاحل الغربـي سـكَنها وحكمهـا عـربٌ ولا يزالـون، وكان بعضهـم قـد فقـد العلاقـة جزئيًّـا باللغـة العربيـة. سُـمُّوا فـي وقـت مـا «الهولـة» أو «الحولـة»، وفـي تسـمية أخـرى «عـرب إيـران» بعـد هجرتهـم إلـى السـاحل العربـي. وتَعلَّـم المهاجـرون بسـرعة اللغـةَ العربيـة، وأبناؤهـم وأحفادهـم اليـوم مندمجـون فـي مجتمعـات الخليـج.

الحقيقـة البـارزة، أن النظـام الملكـي الإيرانـي كان يداعـب مـن جهـة رغبـةً عامـة إيرانيـة فـي التوسـع، ومـن جهـة ثانيـة وقـع فـي معضلـة أنـه قـدَّم برنامجًـا طامحًـا إلـى التغييـر مـن الجانـب الاقتصـادي والاجتماعـي، لكنـه لـم يُـرضِ قطاعـات واسـعة مـن المحافظيـن ورجـال الديـن الإيرانييـن، وأيضًـا لـم يكـن برنامجًـا سياسـيًّا يُرضـي الحداثييـن مـن جهـة أخـرى. فأصبـح الفريقـان «المحافظـون والحداثيـون» علـى اتفـاق فـي معارضـة نظـام الشـاه ومخاصمتـه، أيْ كان التغييـر الاجتماعـي قـد حـدث فـي معادلـة:

To quick social reforms which provokes the more conservative elements, and to little political reforms which provokes the progressive elements, both of them come together to oppose the Shah.

بعـد سـقوط الملكيـة ١٩٧٩، تجـددت تدريجيًّـا شـهية النظـام الجديـد «المحافِـظ» نحـو التمـدد إلى الجـوار. وهذه المـرة «جرى الإدغـام بيـن المذهبيـن «الدينـي» و«القومـي» فـي الأيديولوجيـا

الجديـدة. فافتَـرض النظـام الجديـد ـ بحسـب مـا نـصَّ عليـه دسـتور الجمهوريـة الإسـلامية ـ أنـه مـوكَّل أن يدافـع عـن الشـيعة فـي أيِّ مـكان، وأيضًـا عـن «المسـتضعَفين». أمـام تلـك الشـعارات، التحقـت بالمشـروع مجموعـات مـن الشـيعة العـرب فـي عـدد مـن البلـدان العربيـة، ومنهـا دول الخليـج، وأصبـح لرجـال الديـن «المعمَّمِيـن» سـلطة سياسـية إلـى جانـب سـلطتهم المذهبيـة.

أيـن تكمـن الأزمـة الإيرانيـة الحقيقيـة؟ إن الأزمـة الإيرانيـة تكمـن فـي الصـراع بيـن النخبـة الحاكمـة فـي إيـران والنظـام العالمـي الحديـث، وخاصـة الغربـي منـه. وبحسـب بعضهـم، تكمن الأزمـة فـي الفشـل الـذي تُمْنـى بـه الإدارة الإيرانيـة، في تهيئـة حياة كريمـة وعادلـة لقطـاع واسـع مـن الشـعوب الإيرانيـة التـي تـزداد فقـرًا. وبحسـب آخريـن، تكمـن الأزمـة فـي أن أمـوالًا طائلـة مـن ثـروة الشـعوب الإيرانيـة تُهـدر فيمـا لا طائـل فيـه، فـي صراعـات لا يمكـن حسـمها. حقيقـة الأمـر، أن كل تلك الاقتراحـات حول توصيف الأزمـة الإيرانيـة، هـي نتائـج نابعـة فقـط مـن الأزمـة الكبـرى التـي تُسـمَّى حكـم «ولايـة الفقيـه»، وهـي اختـراع غيـر واقعـي جـاء بـه السـيد الخمينـي، مُعاكسًـا تمامًـا لتاريـخ مـن الاجتهـادات الشـيعية الاثنـي عشـرية، ومعاكسًـا لمسـايرة تاريخيـة مـن نفـور رجـال الديـن الشـيعة مـن التدخـل فـي الشـؤون السياسـية علـى مـرِّ عصور.

الأصـل فـي الاجتهـاد الشـيعي الاثنـي عشـري، هـو النـأي برجـال الديـن والقائميـن علـى التثقيـف الدينـي الإيمانـي عـن السياسـة، فيمـا يعـرف بفقـه الانتظـار. وفقـهُ الانتظـار جـاء نتيجـة تجـارب

مريـرة فـي الصـراع السياسـي، انتهـت إلـى ضـرورة انتظـار ظهـور الإمـام الغائـب لقيـادة الأمَّـة، والنـأي بالنفـس حتـى ذلـك الوقـت عــن العمــل السياســي المباشــر أو غيــر المباشــر باعتبــار ذلــك منجـاة مـن الفشـل، علـى أسـاس أن الشـخص العـادي ـ ملـكًا كان أو حاكمًـا ـ يمكـن أن يفشـل. أما الفقيه، فإن فشـله السياسـي ينسـحب علـى المذهـب كلـه وعلـى الحـوزة، وهمـا إذًا سـيحملان وزر هـذا الفشـل. فـي المسـيرة التاريخيـة للمذهـب الاثنـي عشـري الإيرانـي، كانـت هنـاك بعـض الرُّخَـص التـي يقـول بهـا بعـض الفقهـاء فـي العمـل السياسـي غيـر المباشـر. ويَذكـر لنـا التاريـخ تجربـة الحكـم الصفـوي، عندمـا قـرَّر إسـماعيل الأول فـي بدايـة القـرن السـادس عشـر الميـلادي أن يُحـوِّل إيـران إلـى المذهـب الشـيعي الاثنـي عشـري، وهـدف مـن ذلـك إلـى إعطـاء الشـعوب الإيرانيـة هويـة مخالِفـةً للجِـوار السُّـنِّي، ومُناصِبـةً للعثمانييـن السُّـنّة العـداء. كانت إمبراطوريتهـم العثمانيـة فـي ذلـك الوقـت، هـي القطـب المنافـس أو الطامـح لبسـط سـيطرته. وقتهـا ظهـر مـا يمكـن أن يُسـمَّى «ثنائيـة الفقيـه والسـلطان»، أي اسـتعانة السـلطان الصفـوي علـى امتـداد حكمـه ـ وبدرجـات مختلفـة ـ بالفقيـه الشـيعي، مـن أجـل ترسـيخ سـلطانه لـدى الشـعوب التـي سـيطرت عليهـا الإمبراطوريـة الفارسـية. ولكـن الفقيـه الصفـوي لم يجـرؤ على أن يكون ذا سـلطان سياسـي مطلـق، بـل إن بعـض الفقهـاء الذيـن اسـتعانت بهـم الدولة الصفويـة، اختلفـت معهـم هـذه الدولـة وهمَّشـتهم فـي وقـت مـا.

بدايــة القــرن العشــرين، ظهــر شــكلٌ آخــر مــن انخــراط الفقيــه الاثنــي عشــري فــي السياســة. هــذه المــرة مــن خــلال الفقيــه

الليبرالـي الـذي حـثَّ علـى المضـيِّ فـي حركـة المشـروطية أي الديمقراطيـة، وهـي مطالِبـة بالتمثيـل الشـعبي بيـن عامـي ١٩٠٥ – ١٩٠٧، وتُعـرف بالثـورة الدسـتورية التـي أدت إلـى قيـام برلمـان شـارَك فيـه بعـض الفقهـاء، ولكنهـم لـم يَقْربـوا الحكـم المباشـر. كان دورهـم تحريضيًّـا، وتَبنَّـى عـددٌ ليـس بالقليـل منهـم أفـكارًا ليبراليـة مماثلـة لتلـك الأفـكار السـائدة فـي غـرب القـارة الأوروبية فـي تلـك الفتـرة مـن الزمـن، سُـمِّيت تجربتهـم تاريخيًّـا «الليبراليـة المؤمنــة». عــاد مــن جديــد النظــام الحاكــم لاســتخدام الفقيــه الاثنـي عشـري فـي سـتينيات القـرن العشـرين، فيمـا عُـرف بثـورة محمــد مصــدّق الوطنيــة، ولكنــه كان اســتخدامًا ســلبيًّا، حيــث حــرَّض الفقهــاءُ العامــة وقتــذاك علــى حكومــة محمــد مصــدّق بذريعـة أنهـا «تَحمـل الأفـكار الشـيوعية». وعلـى هـذا الأسـاس ـ وليـس مـن دون دعـم غربـي ـ أُطِيـح بثـورة مصـدق التحديثيـة. فــي كل المراحــل الســابقة، كان الفقيــه يقــوم بــدور «السَّــنيد» للعمـل السياسـي الإيجابـي أو السـلبي، ويُسـتخدم لتعبئـة تعاطف العامـة عنـد الضـرورة، مـن أجـل نصـرة هـذا أو ذاك مـن الاجتهـاد السياسـي. وكان ذلــك منســجمًا مــع الفكــر التقليــدي الاثنــي عشـري مـن ناحيـة عـدم التـورط فـي حمـل العـبء السياسـي المباشـر، وانتظـار عـودة المعصـوم، حيـث إن إقامـة الدولـة فـي زمـن الغيبـة افتئـات علـى المعصـوم، لأنـه وحـده فقط المنـوط به إقامـة الدولـة، ولأن أحـد شـروط إقامـة الدولـة فـي الفقـه الاثنـي عشـري هـو جلـوس المعصـوم علـى رأسـها. والفقيـه الاثنا عشـري المتقـدم (المرجـع)، هـو إمـام الدعـوة علـى أكثـر تقديـر لا إمـام الدولة.

جاء الإمام الخميني وأقام «ثورته» على فقه «ولاية الفقيه»، التي سار بها بعضهم نتيجة ظروف تاريخية معقدة، ولكنها مشروطة بما عرَّفه بعضهم بـ«شورى الفقهاء». ومع ترسُّخ سلطة الخميني، وعدد من الأحداث العسكرية والسياسية، تَحوَّل الأمر في ولاية الفقيه من شورى الفقهاء إلى ولاية الفقيه المطلقة، والإمساك بزمام السلطة المادية (المال والعسكر) والروحية. فتراجعت، ثم تنحّت فكرة «ولاية الأمة على نفسها»، وغُيِّرتْ بعض نصوص الدستور الأول إلى حُكم مطلق، وهُمِّش كِلا الاجتهادين: المشاركة والمشروطية، وتَحوَّل النظام الإيراني ـ كما يظهر ويُمارَس اليوم ـ إلى نظام استبدادي وشخصاني مطلق، استَخدم سلطان الترهيب الذي يقود إلى الخوف ثم الصمت، للسيطرة الكلية والشاملة؛ ما نتج منه تعدٍّ فادح على الحقوق. يقول بعض المنشقِّين بسخرية: إن النظام بأعماله تلك ممهِّدٌ جيد لقدوم الغائب، لكونه يزيدُ من تأزيم الوضع الاقتصادي والاجتماعي وتأجُّج الصراع الكوني. هذا النظام خُلِق له تُبّعٌ في بعض البلاد هم عبارةٌ عن «جيوشٍ صغيرة»، تَتَّخذ من هذا الشعار أو ذلك ذريعة لها. وقد صرح حيدر مصلحي وزير الاستخبارات الإيراني السابق في نيسان (أبريل) ٢٠١٥ أنّ: «إيران تسيطر اليوم على أربع عواصم عربية».

لننظر الآن في الأوضاع الاقتصادية وأسعار العملات والأوضاع الاجتماعية لهذه العواصم. منظمة أوكس فام الدولية، تُعلن قرب «المجاعة الشاملة» في كل من سوريا واليمن. لبنان

يتدهـور اقتصـاده إلـى درجـة دفـع المواطنيـن إلـى الانتحـار. يكفـي تلـك الجملـة المعبَّـأة بالمـرارة والألـم الإنسـاني العميـق التـي كتبهـا محمـد علـي الهـق قبـل أن ينتحـر فـي شـارع الحمـراء: «أنـا مـش كافـر، الجـوع كافـر». أمـا في العـراق، فـإن الميليشـيات التابعـة لإيـران لا تعـرف غيـر لغـة واحـدة، هـي الرصـاص فـي رأس مـن يعارضهـا، سـواءٌ مـن سـلاح عـاديٍّ أُطلِـق، أو مـن كاتـمٍ للصـوت. وتحـاول تلـك الميليشـيات بإصـرار تحويـل العـراق مـن دولـة إلـى عصابـات. وأيضًـا يكفـي النظـر إلـى مجمـل الاقتصـاد الإيرانـي المتدهـور، لنتعـرف إلـى خَـواء هـذا المشـروع وإفلاسـه، والـذي بـدوره يجلـب التعاسـة والجـوع إلـى البلـدان التـي وَضـع نفـوذه فيهـا.

المشـروع التركـي الموقـف التركـي قريـن الموقـف الإيرانـيّ بالنسـبة إلـى لمنطقـة العربيّـة، وإنْ مـن زاويـة مختلفـة. لقـد ورث حـزبُ العدالـة والتنميـة فـي بدايـة القـرن الحالـي اقتصـادًا ناجحًـا، كان سـببه الرئيسـي مـا ورثـه الحـزب منـذ ثلاثيـن عامًـا مــن الإصلاحــات الاقتصاديــة والسياســية. فــي خطــاب الرئيــس الأميركـي السـيد جـورج بـوش الابـن بعـد انتهـاء اجتمـاع قمـة حلـف الأطلسـي فـي إسـطنبول فـي نهايـة عـام ٢٠٠٤، قـال مخاطبًا النخبـة التركيـة، وعلـى رأسـهم السـيد رجـب طيـب أردوغـان: «بلادكـم مـع ١٥٠ سـنة مـن الديمقراطيـة والإصلاحـات الاجتماعية، تؤهِّلكـم لقيـادة المسـتقبل فـي الشـرق الأوسـط، بوصفهـا مثـالًا للتـلاؤم بيـن الشـرق والغـرب، لأنكـم جـزء مـن الاثنيـن... دخولُكـم إلـى أوروبـا سـيكون هامًّـا للتجسـير بيـن العالَـمِ المسـلم والغـرب،

وسوف يُعزز الديمقراطيةَ والحريات الشخصية». كان خطابًا تاريخيًّا وقتها، حيث «النموذج التركي» هو المثال الذي تُروِّج له الليبرالية الغربية، وكانت ترى فيه الموقف الصحيح ضد التشدد الإيراني. فنجاحات تركيا وقتها مَضرب الأمثال ومحطُّ الآمال. فهي من جهة ديمقراطيةٌ وتعددية وحريات على خلفية إسلامية، ومن جهة أخرى سلامٌ مع الجوار ونجاحٌ اقتصادي.

في عام ٢٠٠٤، لم يكن قد مضى على حزب العدالة والتنمية في الحكم غير سنتين، وقد استطاع أن يحصد نتائج ثلاثين عامًا من العمل الجادِّ أنجزته حكومات سابقة، بدأت بالمُصْلِح تورغوت أوزال (رئيس الجمهورية التركية الثامن ١٩٨٩-١٩٩٣)، ذي الخلفية العرقية الكوردية. إصلاحات أُوزال في كل من المجال الاقتصادي (تطوير التشريعات التركية لتتلاءم مع التشريعات الأوروبية)، وفي المجال السياسي (السماح لكل الاجتهادات السياسية بتنظيم نفسها)، ومنها الأحزاب ذات البعد الديني، هي التي أقلعت بالاقتصاد التركي ووضعت تركيا في حالة من الأمل. وبدأ حزب العدالة والتنمية يحصد النتائج، إلَّا أن الأمر سرعان ما تَبدَّل. فقد أخذ السيد أردوغان على نفسه أن يسير وراء الإصلاحات الكثيرة بممحاة قلم، بل حتى الإصلاحات التي هي أكثر قدمًا، ومنها إصلاحات كمال أتاتورك. فمثلًا كان ممنوعًا بقانونٍ الجمعُ بين رئاسة الحزب ورئاسة الحكومة والرئاسة الأولى، فجمَع بين الأُولَيَيْن، ثم أضاف إليهما الثالثة في مسيرة تُسمِّيها المعارضة التركية التي تَنامت: الطريق إلى

«تركيـز السـلطة». بعدهـا هجـر سـفينة أردوغـان علـى مراحـل، عـددٌ مـن كبـار رجـال الدولـة واحـدًا تلـو آخـر، ولا يـزال الحبـل علـى الجـرّار. وسـار أردوغـان فـي شـبه سياسـة ثأريـة مـن كل مـا اعتقـد أنـه عطَّـل توجُّـه تركيـا إلـى أوروبـا، وهـي عـدم اعتـراف بقوتـه، وتحويـل مضاميـن خطـاب بـوش إلـى برنامـج تنفيـذي. تَحـوَّل إلـى الجنـوب واكتشـف أوّلًا القضيـة الفلسـطينية، ودخـل فـي تلاسُـن وحـرب إعلاميـة مـع إسـرائيل، دون أن يقطـع العلاقـة الاقتصاديـة والعسـكرية الوثيقـة بهـا، ولكـن موقفـه التلاسـني أكسـبَه الكثيـر مـن الجماهيريـة عربيًّـا، فـي أجـواء عاطفيـة شـديدة البعـد عـن الحسـابات السياسـية الواقعيـة.

لـم تكـن تركيـا تسـير اقتصاديًّـا بشـكل تصاعـدي، إذ بلغـت قمّـة صعودهـا عـام ٢٠٠٤ وبـدأت بالانحـدار عـام ٢٠١٥. عندمـا تنامَـى الشـعور بخيبـة الأمـل لـدى قِطـاع تركـي واسـع، كانـت محاولـة الانقـلاب فـي ١٥ تمـوز (يوليـو) ٢٠١٦. وقتهـا تفجـرت الأزمـة، وهـي كأيِّ أزمـة تبـدو غيـر متوقَّعـة ومُربِكـة وكارثيـة لمـن تحـلُّ بـه، إلا أنهـا فـي الغالـب تراكُمـات تتصاعـد علـى مـر السـنين، وأساسـها فقْـدُ العلاقـة الواقعيـة بيـن مـا يجـري علـى الأرض والوهـم السياسـي الـذي تَحملـه نخبـة حاكمـة صغيـرة. هـذا بالضبـط مـا حـدث، حيـث تحولـت تركيـا مـن صِفـر مشـكلات مـع غيرهـا إلـى «مشـكلات مـع الـكل» فـي الداخـل والخـارج. المصالحـة مـع الكـورد فشـلت، والوضـع الاقتصـادي تـأزَّم، وزاد التضخـم وتراجعـت الليـرة وضمـرت الصـادرات. ذهـب أردوغـان إلـى أماكـن كثيـرة بحثًـا عـن تعويـض؛ مـن سـواكن فـي السـودان

إلـى الخليـج إلـى ليبيـا. وتُرجـم الامتعـاض الداخلـي مـن تلـك السياسـات بعـد ذلـك فـي صناديـق انتخابـات بلديـة إسـطنبول الكبـرى، التـي رفـض نتائجهـا الأولـى حـزبُ العدالـة. فأُعيـدَ الانتخـاب فـي حزيـران (يونيـو) ٢٠١٩، وفـاز بشـريحة واسـعة المُعـارض أكـرم إمـام أوغلـو، الـذي نافـس علـي بـن علـي يلـدرم القريـب مـن أردوغـان ورئيـس حكومتـه السـابق. بـل خسـر الحـزب بلديـة أنقـرة الكبـرى وعـددًا مـن البلديـات الأخـرى. مـن جانـب آخـر، سُـجن وحُوكِـم ونُفـي مئـات المعارضيـن. فغـاب ذلـك البريـق للنمـوذج التركـي، وظهـر أن تركيـز السـلطة فـي يـد شـخص واحـد هـو قتـلٌ لـروح الديمقراطيـة والتنميـة معًـا.

كانـت النخـب التركيـة قبـل ذلـك تُفاخـر بـأنّ الأتـراك فـي المسـيرة الطويلـة منـذ أتاتـورك، يعـودون دائمًـا إلـى صناديـق الانتخـاب لأنهـا القـول الفصـل. ومـع الابتعـاد عـن الواقـع، تحوّلَـت تلـك الفكـرة «الديمقراطيـة» فـي مجتمـع الخـوف الـذي أشـاعه «حُكـم الشـخص الواحـد» إلـى أمـل بعيـد، وأصبحـت القوانيـن التركيـة التـي يسـنُّها حـزب العدالـة بقيـادة أردوغـان أكثـر تضييقًـا علـى الحريـات. المؤسـف أن السـيد رجـب أردوغـان لا يَعـرف مـن اللغـات إلا التركيـة، ولـو كان يُجيـد الإنجليزيـة، لـكان أفضـل هديـة يُقدّمُهـا لـه بقيـة المخلصيـن حولـه هـو فيلـم المبـدع مصطفـى العقـاد: عمـر المختـار، الرجـل الليبـي الصلـب الـذي قـاوم الاحتـلال الإيطالـي فـي مطلـع القـرن الماضـي (منـذ قـرن تقريبًـا) مـدة عشـرين عامًـا، وكانـت المقاومـة بالبنـادق والخيـول، أمـام الرشاشـات وحامـلات الجنـد والطائـرات. وقتهـا سـوف يعـرف

أردوغـان عجينـة الشـعب الليبـي الـذي أرسـل جنـوده وبعضًا ممن جنَّدهـم للحـرب ضـده. المفارَقـة أن جناحـي ليبيـا فـي الشـرق والغـرب (وهمـا تونـس والجزائـر)، يطالبـان اليـوم فرنسـا بالاعتـذار عـن المآسـي التـي ارتكبتهـا إبّـان اسـتعمار البلديـن. يأتـي السـيد أردوغــان إلــى الحــج والنــاس راجعــون، فيقــرر اســتعمارًا تركيًّــا لِلِيبيـا، ركونًـا إلـى أن الإمبراطوريـة العثمانيـة كانـت هنـاك فـي وقـت غابـر مـن الزمـن. إن الانقطـاع عـن الواقـع بَيِّـن لا لبـس فيـه، وتَمـدُّد لا قِبَـل للأتـراك بحملـه.

المؤســف أن الوضــع ســوف يســوء قبــل أن يتحســن. فالوضــع الداخلـي التركـي يشـهد تذمُّـرًا يتسـع بيـن النخـب التركيـة، مـن جــرَّاء الوضــع الاقتصــادي والحــروب الخارجيــة، وأيضًــا يســوء بسـبب تعقُّـد القضيـة الكورديـة فـي الداخـل، بجانـب القبضـة البوليسـية التـي تُتابـع وتُسـكت المعترضيـن. ومـن جانـب آخـر يعـادي أردوغـان ليـس الجـوار الأوروبـي فقـط، بـل حتـى الحليـف الأميركـي. فـالأول يعاديـه عـن طريـق السـماح للمهاجريـن بالعبور إلـى أراضيـه، والثانـي يعاديـه بشـراء أسـلحة حديثـة مـن دولـة صمَّمـت فلسـفة الحلـف الأطلسـي علـى مناوأتهـا؛ بـل هـو فـي الطريـق إلـى تناقُـض تكتيكـي مـع حليـف موقّـت فـي سـوريا، وهـي روسـيا التـي يتصـادم بهـا فـي الصحـراء الليبيـة. اليـوم ليـس ببعيـد مـن فشـل سياسـة التوسـع التركـي فـي مناطـق قريبـة وبعيـدة مـن تركيـا. فحقائـق الاقتصـاد والسياسـة حتـى الجغرافيـا، مقرونـة بالتضييـق علـى الحريـات، ولـن تسـمح للسـيد أردوغـان بالبقـاء خـارج الواقـع السياسـي ـ الاجتماعـي.

الموقـف الدولـي مـن المشـروعَين الإيرانـي والتركـي فـي المنطقـة فـي سـنوات القـرن الحـادي والعشـرين، وبعـد تفـاؤلٍ أوَّلـي بـأن هنـاك «قيـادة دوليـة» رشـيدة بـدأت تظهـر فـي أقـوى دولـة فـي العالـم (الولايـات المتحـدة)، بعـد سـقوط الاتحـاد السـوفيتي فـي تسـعينيات القـرن الماضـي، دخلَـت الإدارات الأميركيـة المتعاقبـة فـي مرحلـة تراجُـع، سـواء الإدارة الأوباميـة، أو بعدهـا الإدارة الترامبيـة ٢٠٠٩ ـ ٢٠٢٠. فمنـذ عقـد كامـل، لـم يعـد العالـم ذا قيـادة دوليـة يُعتـدُّ بهـا. السـيد بـاراك أوبامـا اعتقَـد مـن زاويـة ربمـا مِثاليـة أنَّ «اسـترضاء» إيـران وعقْـدَ اتفـاقٍ معهـا فـي الملـف النـووي، قـد يُرجعهـا إلـى صـواب الـدول العاديـة. وأيضًـا اعتقـد السـيد ترامـب أنَّ «المقاطعـة» الاقتصاديـة والدبلوماسـية قد تُعيـد إيـران إلـى المسـار الدولـي. أمّـا علاقتـه بتركيـا، فكانـت غيـر مسـتقرة علـى الرغـم مـن مجمـوع الخطـوات التـي اتخذهـا السـيد أردوغـان، والتـي تصـبُّ فـي خانـة الخـلاف مـع الولايـات المتحـدة، مـن شـراء معـدات حربيـة متقدمة من روسـيا، إلـى تراجُـع الحريات فـي الداخـل التركـي، حتـى اسـتفزاز النظـام المصرفـي الأميركـي، من خـلال تعامـلِ أكبـرِ بنـكٍ تركـيٍّ حكومـي مـع إيـران مُخترقًـا الحصار، وأخيـرًا تبـادل إلقـاء القبـض علـى مواطِنيـن أميركييـن فـي تركيـا، ومواطِنيـن أتـراك فـي أميـركا.

إنّ موقـف أميـركا مـن تركيـا لا يـزال فـي مـكان «الاسـترضاء»، لا العـداء. ومِـن ثَـمَّ فـإنَّ مشـروع تركيـا المتوسّـطي (ليبيـا وشـمال لبنـان) لا يثيـر كثيـر الاهتمـامِ فـي الدوائـر الأميركيـة. الـدول الأخـرى الكبـرى كالصيـن أو روسـيا لهـا مصالـح اقتصاديـة فـي المنطقـة، تُحـاول الحفـاظ عليهـا دون «إزعـاج» للقوَّتَيـن الإيرانيـة

والتركيـة. هنـاك احتمـال أن تتغيـر الأمـور فـي الولايـات المتحـدة فــي تشــرين الثانــي (نوفمبــر) المقبــل.

مـا العمـل؟ المِحَكّ فـي إثـارة اهتمـام القـوى الكبـرى ـ وخاصة الغـرب ـ بمصالـح المنطقـة العربيـة، هـو القيـام بإصلاحـات فـي الإدارة، لا ســيما فــي ملــف اجتثــاث الفســاد، ووضــع المــرأة، والتنميــة الاقتصاديــة المتوازنــة، مــع إصلاحــات تؤكــد اللحمــة الوطنيــة فــي الجبهــات الداخليــة، ودخــول المنطقــة الملعــب الدولــي، مـع تصفيــةٍ إنْ أمكــن للملفــات العالقــة إقليميًّــا «بيــن العــرب». وهــي ملفــات شــائكة، تحتــاج إلــى جهــود دبلوماســية كثيفــة.

وقتهـا سـوف تـرى القـوى الكبـرى، أن هنـاك مصالـح لهـا فـي النظـر بشـكل متعاطـف إلـى القضايـا العربيـة، لأنهـا تشـترك معهـا فـي القيـم العالميـة مـن جهـة، وفـي المصالـح الاقتصاديـة مـن جهـة أخـرى.

٢٨ تموز (يوليو) ٢٠٢٠

تحالف الراغبين في عالم متغيّر

١

تعارفٌ خليجيّ-أميركيّ لاتينيّ بحثًا عن جوامع مشتركة

يهيمن على العالم اليوم ثلاث قوًى رئيسية، متوازنة في قوة الردع الكبرى، هي: الولايات المتحدة وروسيا والصين، مع تفاوت القوة التقليدية بينها، وتاريخ علاقات كل منها بدول الشرق الأوسط ودول الخليج. إلا أن توازن القوى غير التقليدية جعل من العالم اليوم ثلاثيَّ الأركان، أي ذا ثلاثة رؤوس بدلًا من كونه أُحاديًّا - مدة قصيرة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وثنائيًّا مدة طويلة بعد الحرب العالمية الثانية حتى سقوط الاتحاد السوفيتي أوائل تسعينيات القرن الماضي -. لقد سارع الأخير في الانتعاش على المستوى الدولي باسم روسيا الاتحادية، ووجد أن هناك قوة شرقية قَبِلها الغرب نكايةً في البداية بالاتحاد السوفيتي القديم، إلا أنها أصبحت ذات تأثير بسبب قوتها الاقتصادية وهي الصين.

ليس من بين هذه القوى الثلاثية، واحدة قادرة على الانفراد أو السيطرة على العالم، أو إجبار القوى الأخرى على الصدْع (المَيل) إلى مشروعاتها في السلام وتنظيم الاقتصاد الدولي. فلدينا الآن شبه توازن ثلاثي القوة يقود العالم الذي نعيش

فيـه، وليـس أمامـه إلا التوافـق الحـذِر والوصـولُ إلـى تفاهمـات فـي بعـض المواقـع، لأن الخيـارات الأخـرى غيـر مطروحـة، وهـي الصـراع النهائـي.

مـن جانـب آخـر، فـإن انسـحاب الولايـات المتحـدة وعودتهـا إلـى «العزلـة» أصبـح ظاهـرًا للعيـان. فقد وجدت واشـنطن أن الاشـتباك الإيجابـي مـع مشـكلات الشـرق الأوسـط مُكلـف دمًـا ومـالًا، فـي نفـس الوقـت الـذي تعانـي فيـه فـي الداخـل عقبـاتٍ اقتصاديـةً كبيـرة، منهـا نـزوح رأس المـال الأميركـي إلـى الخـارج، ومِـن ثـمّ زيـادة البطالـة فـي الداخـل، ومنهـا التكلفـة الباهظـة للاشـتباك الإيجابـي مـع مشـكلات الـدول الخارجيـة، خاصـة فـي مسـرح الشـرق الأوسـط. لذلـك، هـي المـرة الأولـى ـ بعـد الحـرب العالمية الثانيـة ـ التـي يتـآكل فيهـا نفـوذ الولايـات المتحـدة فـي الخـارج ويَظهـر عليهـا الإعيـاء، وتَرتفـع فيهـا أصـوات للعزلـة عـن العالـم الخارجـي المملـوء بالاضطـراب، والتخلـي عـن المهمـة الأخلاقيـة التـي نـادت بهـا الولايـات المتحـدة علـى الصعيـد الدولـي مـدة طويلـة، لتفسـح المجـال لصعـود المصالـح الاقتصاديـة البحتـة فـي السياسـة الخارجيـة، لأن كل السياسـات، All politics are local politics هـي «سياسـات داخليـة»، تنعكـسُ علـى السياسـات الخارجيّـة.

لقـد أغفلـت الولايـات المتحـدة أهميـة «الموقـف الأخلاقـي» جاعِلـةً إيـاه فـي الصفـوف الخلفيـة. وبـدأت ولأوّل مـرّة تتعـرض فيهـا علاقـات دول الخليـج بالولايـات المتحـدة لتصـدُّع واضـح، وخـلافٍ حـول الأولويـات والوسـائل وخريطـة التحالفـات. ولا يـزال بعضهـم فـي دول الخليـج وفـي الولايـات المتحـدة علـى حـد

سـواء، يأمـل أن يلتئـم هـذا الصـدع بيـن الحليفيـن التاريخيَّيـن، عـن طريـق تغيُّـر فـي الإدارة، إلا أن المأمـول هـذا لـن يتحـول إلـى مـا كان عليـه فـي السـابق مـن تحالـف وثيـق، بـل إن الدولـة العميقـة فـي الولايـات المتحـدة الأميركيـة، قـد عزمـت منـذ فتـرة علـى صـرف النظـر عـن الاسـتثمار المالـي والإنسـاني فـي قضايـا الشـرق الأوسـط المتشـابكة والمعقـدة، لأنهـا مُكلفـة ماليًّـا وإنسـانيًّا، لا سـيما أنهـا الآن ليسـت فـي حاجـة إلـى مـوارد الطاقـة النفطيـة لسـببين: الأول منهمـا توافُـر البدائـل للطاقـة بعـد التطـور التقنـي الهائـل، والاسـتغناء عـن معظمهـا فـي الصناعـة الثقيلـة والمتوسـطة. والسـبب الثانـي ظهـور مناطـق أخـرى منتجـة للطاقـة أو الطاقـة البديلـة. فلـم يعـد الشـرق الأوسـط يسـتقطب موافقـة واسـعة مـن النخـب السياسـية الأميركيـة للانشـغال بأمنـه أو حمايـة مـوارده. وهـي المـرة الأولـى، بعـد العصـر النفطـي الذهبـي، التـي تفتـر فيهـا العلاقـات بيـن دول الخليـج والولايـات المتحـدة، وتفتـرق وجهـات النظـر فـي العديـد مـن القضايـا، بـل وتَسـمح فيهـا الولايـات المتحـدة لقـوة عظمـى بمشـاركتها فـي منطقـة الشـرق الأوسـط (روسـيا فـي سـوريا)، ولقـوة محليـة (إيـران) بمشـاركتها فـي العـراق وفـي الخليـج أيضًـا.

عنصُـرَا روسـيا وإيـران اللـذان يَدخـلان بقـوة فـي المنظومـة الخليجيـة (فـي سـوريا والعـراق ولبنـان واليمـن)، يُحْدِثـان خلـلًا فـي المنظومـة الأمنيـة والسياسـية فـي دول الخليـج. وتتطلـع إيـران إلـى دول خليجيـة أخـرى مـن أجـل الهيمنـة والتوسـع؛ مـا يَدفـع دول الخليـج إلـى ضـرورة اسـتراتيجية تُحتّـمُ عليهـا النظـر

إلـى أماكـن أخـرى خـارج الثلاثيـة المهيمنـة، وبعـض حلفائهـا فـي المنطقـة.

هـذا الخَطـب المتلاطـم مـن تضـارب المصالـح وتلاقيهـا، يفـرض علـى دول الخليـج البحـث عـن تحالفـات جديـدة، منهـا النظـر إلـى الهنـد البلـد الجـار، الصاعـد اقتصاديًّـا وعسـكريًّا، ومنهـا تركيـا التـي تتشـارك معهـا فـي الإسـلام السُّـنِّي والمصالـح الاقتصاديـة والاسـتراتيجية القريبـة المـدى، ومنهـا بالطبـع النظـر بعيـدًا خـارج المنظومـات التقليديـة وهـي دول أميـركا اللاتينيـة، التـي بـدأت معهـا دول الخليـج ومنـذ مـدة حـوارًا اسـتراتيجيًّا بالـغ الأهميـة، ولكنـه لـم يَطْـفُ علـى سـطح وسـائل الإعـلام أو الدبلوماسـية، وآنَ لـه أن يُعمَّـق ويصبـح مؤسَّسـيًّا وذا أولويـة.

لمـاذا دول أميـركا اللاتينيـة؟ ذلـك لأنهـا تتشـارك مـع دول الخليـج فـي عـدد مـن الدوائـر. فهـي أولًا بلاد بعضهـا ينتـج النفط، مثـل دول الخليـج. وكانـت هنـاك شـراكة قديمـة مـع فنزويـلا التـي بـدأ معهـا إنشـاء الأوبـك، أي تحالـف المنتجيـن للنفـط منـذ أكثـر مـن نصـف قـرن[١]. ثـم إنّ اقتصاديـات دول الخليـج ودول أميـركا اللاتينيـة تتكامـل، كلٌّ منهـا لديـه شـيء يعطيـه للآخـر، وسـار التعـاون فـي هـذه المنظمـة وخارجهـا مـع بعـض دول أميـركا اللاتينيـة بيُسـر، ولكـن ببـطء، حتـى فـي الأزمـات التـي واجهتهـا دول الخليـج، ومنهـا بالطبـع الأزمـة الكبـرى وهـي احتـلال العـراق

(١) فـي ١٤ أيلـول (سـبتمبر) ١٩٦٠، أنشـأت مجموعـة مـن المؤسسـين مـن أميـركا اللاتينيـة وفنزويـلا والإكـوادور منظّمـة أوبيـك، وقـد كان عددهـم أيّامـذاك ١٣ عضـوًا، ومـن دول الخليـج السـعودية والكويـت وقطـر والإمـارات.

للكويت عام ١٩٩٠، التي وقفت فيها بعض تلك الدول مَوقفًا شجاعًا على الأقل على الصعيد الدبلوماسي.

في السياسة والاقتصاد في ١٠-١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥، استضافت الرياض القمة الرابعة للدول العربية ودول أميركا اللاتينية. كان هناك ثلاث قمم سبقتها: الأولى في البرازيل ١٠ أيار (مايو) ٢٠٠٥[٢]، والثانية في الدوحة/قطر آذار (مارس) ٢٠٠٩، والثالثة في مدينة ليما في بيرو في تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣. نستدلُّ بِتسلسُل هذه القمم وشِبه انتظامها، على حرص الجانبَين العربي واللاتيني على توثيق العلاقة بين الطرفين، إلا أن ما يَلفت، هو أن القمم التي عُقدت من الجانب العربي كانت في عاصمتَين خليجيَّتَين (الرياض والدوحة)، وحضَرَت في جميعها دول الخليج[٣]. أيضًا اللافت أنها غير منتظمة وشبه موسمية، وبعض القضايا التي ناقشتها القمم الأربع أصبحت ثابتة، منها: التعاون الاقتصادي، والتعاضد الدبلوماسي على المستوى الدولي، وتنمية قدرات الدول المحتاجة في القارة الأميركية الجنوبية. وفي القمم الأخيرة، دخل بالطبع موضوعُ محاربة الإرهاب وتجفيفُ جذوره الاقتصادية والاجتماعية. أيضًا كانت القضية الفلسطينية أحد محاور تلك الاجتماعات، التي أكَّدت بياناتُها

---

(٢) صدر عن القمة في البرازيل إعلان أيار (مايو) ٢٠١٥، الذي كان عبارة عن وثيقة تاريخية أسَّسَت للأعمال المستقبلية بين الدول العربية ودول أميركا اللاتينية، من أجل السعي لتحقيق التنمية المستدامة والتنسيق في المحافل الإقليمية والدولية.

(٣) انظر جريدة الرياض ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥.

المتعاقبة على ضرورة الوصول «إلى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط»[٤].

الاتفاقات الاقتصادية بين بعض الدول العربية وبعض الدول اللاتينية أيضًا، وجدَت لها مكانًا في هذه القمم. فوُقِّع على اتفاقات للتجارة الحرة بين دول لاتينية ودول عربية. ومن القضايا المشتركة كان «نزع السلاح النووي»، الذي هو لمصلحة الدول العربية واللاتينية على السواء. من الممكن القول إن هناك مساحات من المصالح المشتركة بين الدول العربية بشكل عام والدول في أميركا اللاتينية، إلا أن هناك بشكل خاص مصالح مشتركة بين دول الخليج والدول الواقعة جنوب الولايات المتحدة، يمكن تطويرها واستثمارها استراتيجيًّا.

لم تقتصر العلاقات بين دول أميركا اللاتينية ودول الخليج على الشكل الرسمي، إذ نشط القطاع الخاص في إقامة اللقاءات بين الطرفين الخليجي واللاتيني، لكون كلتا المنطقتين تسير نحو تشجيع القطاع الخاص ومبادراته الذاتية، للإسهام في التنمية. وتتحول كلٌّ من دول أميركا اللاتينية ودول الخليج المالكة للطاقة الأحفورية «الغاز والنفط»، إلى فتح الباب للقطاع الخاص في تلك البلاد، للمساهمة في تنمية المجتمع، والتي كانت حكرًا للحكومات. ومن هنا جاءت اللقاءات المتكررة للقطاع الخاص في كلا الإقليمين، وعُقد حتى الآن أربعة اجتماعات

(٤) انظر بيان ليما تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٣.

لممثلي القطاع الخاص في الدول اللاتينية والعربية، احتضَن عددٌ منها عواصمَ الخليج. وبالنظر إلى حجم الصادرات والواردات بين الدول العربية ودول أميركا اللاتينية، فإننا نجد نموًّا مضطردًا في السنوات الأخيرة، حيث بلغ متوسط النمو السنوي للصادرات العربية إلى دول أميركا اللاتينية ١٧٪ (بين العامَين ٢٠٠٦ و٢٠١٦)، في حين بلغ متوسط النمو السنوي للواردات العربية من دول أميركا اللاتينية ٢٠٪. إلا أن الغوص في تفاصيل الأرقام يُظهر لنا أن أكثر الصادرات إلى أميركا اللاتينية هي النفط (من دول الخليج)، ثم الأسمدة (أيضًا من دول الخليج)، ثم الحديد والصلب. أما أهم الواردات من دول أميركا اللاتينية، فهي اللحوم (معظمها إلى دول الخليج)، وخامات المعادن والمواد الغذائية(٥).

محاربة الإرهاب بين أميركا الجنوبيّة والدول العربيّة

لكَون دول أميركا اللاتينية بعيدة نسبيًّا عن عيون الأجهزة ومتابعتها، التي تتعقب الإرهاب، فقد وَجَدت بعضُ المنظمات الإرهابية الساحةَ شبه مفتوحة لها في تلك الأصقاع، خاصة في السنوات الأخيرة، حيث نَشِط حزب الله الإرهابي في تلك المناطق التي يعتبرها بعيدة عن التركيز والمتابعة، وذلك من الناحية الاقتصادية (استثمار الأموال)، ومن الناحية العملية في تنفيذ بعض المهمات أو التدريب. لقد كشفت أجهزة الاستخبارات المكسيكية بالتعاون مع

(٥) جريدة الشرق الأوسط ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥.

نظيرتها الكندية تحركات حزب الله، وبدعم من إيران في منطقة أميركا اللاتينية، وحددت أماكن تَغلغُله التي شملت فنزويلا والمكسيك ونيكاراغوا وتشيلي وكولومبيا، وعظمت هذه التحركات بعد التدخل الروسي في سوريا. هذا واستنادًا إلى ما أوردته وكالات الأنباء خلال السنوات القليلة الماضية، بالقبض على عناصر تابعة لحزب الله في بعض العواصم لأميركا اللاتينية، وهي إما متورطة في الإرهاب، أو تُعِدُّ لعمليات إرهابية في عواصم أميركا اللاتينية ومُدنها أو في جوارها، أو حتى تُنظِّم مَلاذات استثمارية مع المافيا المنتجة للمخدرات هناك[٦].

يستفيد حزب الله من وجود جالية عربية مسلمة واسعة في دول أميركا اللاتينية، وبسبب بُعْدها الجغرافي النسبي، يسعى حزب الله إلى إغراء شرائح من مواطنيها وضمِّهم إلى منظمته الأيديولوجية، مستخدِمًا في ذلك الجَزَرة الإيرانية، التي تُقدم تسهيلات في بيع النفط لبعض تلك البلدان بأسعار خارج نطاق السوق العالمي[٧]. نشاط حزب الله في دول أميركا اللاتينية قديم، ورُدود الفعل على ذلك النشاط، قد ظهَرا في أكثر من عاصمة، منها إطلاق النار على دبلوماسي إيراني - ربما من قِبل المعارضة الإيرانية - في الأرجنتين عام ١٩٩٥[٨].

---

(٦) الشرق الأوسط ٢٥ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٦.

(٧) جزء من تصريح وزير الخارجية البرازيلي فرانسسكو رزق بعد زيارته لإيران، (جريدة الخليج الإماراتية ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١)، بأن البرازيل صارت أكبر مستورد للنفط الإيراني.

(٨) جريدة المدينة ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥.

فنقلت الصحف الإيرانية أن ذلك ردٌّ فعل على تفجير مركز يهودي يقع في بوينس آيرس (العاصمة الأرجنتينية)، قبل عام من ذلك، أيْ عام ١٩٩٤.

ما يمكن الإشارة إليه هنا، أن النشاط الإيراني الدبلوماسي والسياسي والاستخباراتي والاقتصادي ـباستخدام الأذرع المتوافرة، وبينها حزب الله ـ، والذي يستفيد من كون جزء من المهاجرين العرب هناك هُمْ من الشيعة ـ هو ساحة للاستقطاب السياسي والاقتصادي والدبلوماسي والتجاري. إلا أن العلاقة بين عدد من العواصم في أميركا اللاتينية وإيران، مرَّت بعدد من التطورات غير المستقرة. ففي الوقت الذي رفَضَت فيه مثلًا الأرجنتين قبول الشاه محمد رضا بهلوي لاجئًا سياسيًّا لديها بعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩[٩]، قبِلَت البرازيل قبْلها لجوء خمسين عائلة إيرانية مناوئة للثورة جاءت من باكستان ودول أخرى[١٠]. يحمل النظام الإيراني همومًا من جرَّاء نشاط الجالية الإيرانية التي هاجرت بعد الثورة، ووجدت لها ملاذًا في بعض عواصم الدول اللاتينية.

على المقلب الآخَر، تسعى بعض دول أميركا اللاتينية إلى تسويق منتجاتها الحربية والمدنية إلى دول الخليج، بسبب وجود السيولة المالية لديها. فهناك بعض الصناعات المتطورة،

---

(٩) جريدة الرأي العام الكويتية ١١ نيسان (أبريل) ١٩٧٩.

(١٠) جريدة الرأي العام الكويتية ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨.

مثل: طائرات الركّاب، وطائرات حربية ـ خاصة التي تُستخدم للتدريب ـ، وسيارات ركّاب جماعية، وغيرها، التي تُنتجها البرازيل وتَجد لها سوقًا في دول الخليج[11]. فدول أميركا اللاتينية هي ساحة للصراع السياسي والاستخباراتي والتجاري، وتحاول إيران أن تستفيد منها باعتبارها بابًا خلفيًّا لدخول السوق الأميركي والسوق الكندي الزاخر بالإمكانيات[12]. من هنا، تأتي أهمية الفضاء الأميركي اللاتيني للدول العربية على وجه العموم، ولدول الخليج على وجه الخصوص، الذي يجب أن يبذل جهودًا جادة للدخول المنظم في تلك البلدان، وتطوير استراتيجية متوسطة وبعيدة المدى نحو ذلك الهدف. وهو أمر ليس ببعيد عن الفكر السياسي الخليجي. وحْدَهُ وزير الخارجية السعودي لاحَظ أخيرًا أن «البعد الجغرافي في الماضي شكّل عائقًا أمام تطوير العلاقات بين المجموعتين (العربية واللاتينية)، إلا أن ثورة المعلومات مكّنت شعوبنا من فهم ومعرفة ثقافة بعضنا البعض... إنّ طفرة المواصلات قرّبت المسافات وسهّلت التنقل فيما بيننا، يضاف إلى ذلك القواسم المشتركة والهجرة العربية[13]التاريخية إلى تلك البلاد».

---

(١١) جريدة الرأي العام الكويتية ٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٢.

(١٢) وقّعت إيران أخيرًا بشكل مباشر مع شركة بوينغ الأميركية عقدًا بِنيّة شراء ١٠٠ طائرة، كما وقّعت قبل أشهر مع شركة إيرباص لشراء ١٢٠ طائرة (الجدير بالذكر أنّ بعض قطع هذه الطائرة تُصنّع في الولايات المتّحدة الأميركيّة).

(١٣) من كلمة وزير الخارجية السعودي في لقاء القمة الرابع بين الدول العربية ودول أميركا اللاتينية، الذي عُقد في الرياض تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥ (سبق ذِكره)، جريدة الرياض ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٥.

مستقبل العلاقات الخليجية بدول أميركا اللاتينية

منذ إعلان برازيليا سنة ٢٠٠٥، والتوجهُ الخليجي نحو تلك القارة الجنوبية ودولها ينمو باستمرار، إلا أن ذلك النمو لم يكن من الجانب الخليجي موحَّدًا أو ناشطًا أو متزامنًا بما فيه الكفاية. ومع تَحوُّل القوى الدولية الذي لاحظناه في صدر هذه المطالعة، يبقى تمتين العلاقات بين دول مجلس التعاون والدول في أميركا اللاتينية أقل من المستوى المأمول. وهناك عدد من المعوقات التي يمكن ملاحظتها، منها معوقات اقتصادية، وأخرى سياسية ودبلوماسية. على سبيل المثال لا الحصر هناك غياب لتشجيع القدرات التصديرية الأساسية لكلا السُّوقَين الخليجي واللاتيني؛ ما أدى إلى ضعف الروابط التجارية. وهذه المعرفةُ المحدودة للأسواق من كلا الجانبين، وضعف الاستثمار المتبادل، أدَّيَا إلى ضعف في التنسيق لدعم التجارة بين الإقليمين، وضعفٍ عربي في الاستفادة من الجالية العربية الكبيرة في مدن أميركا اللاتينية ودولها، وقطف ثمار التعددية هناك، لا سيما أن كبار المسؤولين في عدد من الدول هم من أصل عربي، ثم إنّ دول أميركا اللاتينية جرى إهمالها فترة طويلة[١٤].

كاتب هذه المطالعة، لم يَلحظ أي نشاط مشترك بين الأمانة العامة لدول مجلس التعاون والأمانة العامة لِـ«مجموعة الدول

---

(١٤) على سبيل المثال: هناك في مراحل سابقة بعض السفراء الخليجيِّين الذين جرى «نسيانهم»، وبعضهم قضى أكثر من عقدين في منصبه.

اللاتينيــة ودول الكاريبــي» ســيلاك[١٥] CELAC. وهــو قصــور عــن التواصـل بيـن المنظمتيـن لاسـتفادة كلٍّ منهمـا مـن تجـارِب الآخـر. أمـا العلاقـات الثقافيـة، فهـي شِـبه معدومـة. ولا يوجـد عـدد كبيـر مـن الطـلاب يـدرس فـي المعاهـد اللاتينيـة، ولا العكـس، بـل حتـى إن ترجمـات الكتـب مـن اللغـات الأصليـة نشـطت فـي السـنوات الأخيـرة، بيـد أنّهـا غيـر كافيـة. علـى المقلـب آخـر، فـإن العلاقـات المسـتقبلية بيــن دول مجلــس التعــاون ودول أميــركا اللاتينيــة، يمكـن أن تتطـور مـن خـلال بـذل الجهـد فـي الإطـار الاقتصـادي، خاصـة مـن خـلال «الأمـن الغذائـي» الـذي تُوفـره الطاقـة الإنتاجية الغذائيــة الوافــرة لــدول أميــركا اللاتينيــة، ومــن خــلال تبــادل الخبــرات فــي مجــالات مختلفــة تنمويــة وسياســية واقتصاديــة وعسـكرية. أيضًـا يمكـن تعظيـم القـدرات التفاوضيـة الجماعيـة مـن خـلال التنسـيق فـي المحافـل الدوليـة علـى أسـاس المصالـح المشـتركة، لا سـيّما أن بعـض دول أميـركا اللاتينيـة وبعـض دول الخليـج لهـا مكانـة فـي المحافـل الدوليـة، وعلـى رأسـها المملكـة العربيـة السـعودية والبرازيـل والأرجنتيـن والمكسـيك، وجميعهـا فـي عضويـة مجموعـة العشـرين الدوليـة ذات التأثيـر الاقتصـادي الضخـم.

العلاقـات الخليجيـة اللاتينيـة مـا زالـت فـي بدايـة الطريـق ولـم

(١٥) سيلاك هـي منظمـة إقليميـة تضـمُّ دول أميـركا اللاتينيـة والكاريبـي، أُنشـئت فـي ٢٢ شـباط (فبرايـر) ٢٠١٠. وقـد عُقـد مؤتمـر مجموعـة ريـو ومجموعـة الكاريبـي علـى منـوال إنشـاء التجمعـات الإقليميـة للتجـارة، ونُظـر إليهـا علـى اعتبـار أنهـا البديـل لمنظمـة واس التـي أنشـأتها الولايـات المتحـدة عـام ١٩٤٨، للحـد مـن تأثيـر الاتحـاد السـوفيتي فـي المنطقـة.

يتمكـن الطرَفـان مـن الاسـتفادة الفضلـى مـن الإمكانيـات والفـرص التـي يُتيحهـا التعـاون بيـن الإقليمَيـن. ثـم إنَّ المأمـول أن تَنشـط الدراسـات لتيسـير التعـارف بشـكل أعمـق بيـن الجانبيـن، ويَدخـل فـي ذلـك عقـد النـدوات والتواصـل البشـري، مـن أجـل معرفـةٍ تُوظَّـف لمصلحـة شـعبَي الإقليمَيـن والسـلام العالمـي.

٣ آب (أغسطس) ٢٠١٦

٢

دول ما بعد الحربَين العالميَّتَين:
التدخل الإيراني وضعف التصدي الإقليمي

علـى قلـق وإرهـاب الأسـئلة الكبـرى فـي منطقتنـا اليـوم تـدور حـول قضايـا «الإرهـاب»، وقـد غـدا هـذا المفهـوم كقميـص عثمـان، الـذي يتعلـل بـه صاحـب الـدم الحقيقـي والمُدَّعِـي، علـى حـدٍّ سـواء. وكأيِّ ظاهـرة «اجتماعية/سياسـية/اقتصادية»، فـإنَّ لهـا عـددًا مـن الأسـباب، وتتغيـر تلـك الأسـباب بتغيُّـر المـكان والزمان، والظـروف التـي تنشـأ فيهـا. كانـت «المقاومـة» الفلسـطينية ـ فـي وقـت مـا حتـى فـي شـكلها السِّـلمي ـ، هـي إرهـاب فـي نظـر «الدولـة الإسـرائيلية». ومـن جهة أخـرى، فإن أول تعريـف للإرهاب ظَهـر فـي الشـرق الأوسـط فـي الموسـوعة البريطانيـة، كان حـول إرهـاب «العصابـات الصهيونيـة فـي فلسـطين». وقـد حـارت الأمـم المتحـدة سـنوات فـي تعريـف الإرهـاب، ولـم يحصـل توافـق كامـل حـول ذلـك المفهـوم. ظهَـر أيضًـا فـي مفاهيـم السياسـة مـا عُـرف بـ«إرهـاب الدولـة»، أيْ أن تقـوم الدولـة باسـتخدام القـوة المفرطـة تجـاه شـريحة مـن شـرائح المجتمـع، خـارج القانـون أو المتعـارَف فـي إدارة الـدول.

فـي وقـت مـا، اسـتخدمت المؤسسـات التـي لهـا علاقـة بالمخابـرات شـيئًا مـن أعمـال الإرهـاب، ضـد جماعـات أخـرى تـرى أنهـا مهـدِّدة لمصالـح بلدهـا. أيضًـا ظهـر أخيـرًا الإرهـاب

«السـيبيري»، أي الإرهــاب مــن خــلال اسـتخدام الإنترنـت ووسـائل التواصـل الاجتماعـي. وهكـذا، فـإن مفهـوم «الإرهـاب» كان ولا يـزال مفهومًـا نسـبيًّا إلـى حـد بعيـد، مُسيّسًـا أيضًـا. ويمكـن التلاعـب بـه للاسـتخدام السياسـي المرحلـي أو الدائـم، بـل أصبـح «الإرهـاب» مبـرِّرًا لارتـكاب «الإرهـاب».

واقـع الإرهـاب اليـوم يُجمـع كثيـر مـن المراقبيـن علـى أن «الإرهـاب» فـي معنـاه الشـامل، هـو «الاسـتخدام المفـرط للقـوة، ضـد مدنيِّيـن وأهـداف غيـر عسـكرية وأنـاس آمِنيـن»، الغـرض منه «فـرضُ الهلـع علـى النـاس مـن أجـل خلـق واقـع جديـد وتحقيـق مصالـح سياسـية»، عـن طريـق إدخـال الرعـب فـي قلـوب عـدد واسـع مـن المواطنيـن. وهـو بهـذا المعنـى إجبـارٌ للآخر باسـتخدام أدوات ووسـائل غيـر مشـروعة «فـي الحـروب»، مـن أجـل الخضوع والتسـليم أو إبقـاء الخصـوم فـي قلـق دائـم، وتعطيـل مصالحهـم الاقتصاديـة. ومـع غمـوض المعنـى العـام، أصبـح الإرهـاب اليـوم لكثيريـن هـو تنفيـذ أفعـال مروِّعـة تطـولُ مدنيِّيـن آمنيـن. وتلـك الأفعـال فـي سـياق حـرب معلَنـة، مـن أجـل تحقيـق صـدًى هائـل يُجبـر الآخـر علـى التراجـع أو الخضـوع. وسـيظل «الإرهـاب» مـكان نقـاش، وتهمـة تُلصـق بالحـقِّ أو بالباطـل، ولـه بُعـد سياسـي لا تُخطئـه العيـن.

إلا أن حديـث الإرهـاب اليـوم، ولغـرض هـذا البحـث، يشـير إلـى «أعمـال مـا عُـرف بداعـش»، أو «الدولـة الإسـلامية فـي العـراق والشـام» أو «القاعـدة»، وهمـا تنظيمـان وَلَّـدا تنظيمـات أخـرى، لهـا علاقـة بقيـادة مركزيـة، أو لا تنتمـي فعليًّـا إلـى تلـك القيـادة،

فسميّت بـ«الذئاب المنفردة». وقد اقترفت هذه الجماعات الأهوال بإرهاب المدنيين وإلحاق الأذى بالدول، داخل منطقة الشرق الأوسط وخارجها.

لماذا الإرهاب «الداعشي القاعدي»[١]؟ إنْ حصَرْنا نقاشنا في إرهاب «داعش»، وقَبْلها «القاعدة» أو معها، وهما موضوع هذه الورقة، فسوف نلاحظ أن «داعش» أصبح لها حيِّز من المكان الجغرافي[٢]. أما القاعدة[٣]، فقد نمَت في جبال أفغانستان. وأيضًا سوف نلاحظ أن هناك العديد من المُدْخَلات الإقليمية والدولية التي أدت إلى ظهور هذه الجماعات. وقد وصل الأمر إلى ما نحن فيه من واقع إرهابي، أدخَلَ المجتمعات في الشرق الأوسط في حروبٍ، بعضُها أهليٌّ، وبعضها بَينيّ، وبعضها دوليّ. وهي أيْ تلك المُدْخَلات التي سوف نَعرضها، قد أطلقت ديناميكيات، ساهمت على مدى سنوات وبشكل تراكمي في تهيئة الفضاء السياسي/الاجتماعي لظهور تلك التنظيمات. ثم إنَّ تلك المُدْخَلات كان لبعضها قوة أكبر من بعضها الآخر في

---

(١) هناك أشكال من النشاطات الإرهابية مثل إرهاب «بوكو حرام» في إفريقيا جنوب الصحراء، أو إرهاب «نمور التاميل» في سيريلانكا.

(٢) أصبح لداعش حيِّز في كلٍّ من الموصل (ثاني مدينة عراقية)، والرَّقَّة (من مدن سوريا الكبرى)، وأيضًا لها فروع في ليبيا، وربما اليمن، حتى في سيناء المصرية.

(٣) تنظيم القاعدة بقي بعضه في الجبال بين أفغانستان وباكستان، وتبعه عدد من الجماعات في اليمن وبعض البلاد الأخرى.

الدفع إلى ظهور تلك التنظيمات. ولعلِّي هنا أضع بعض تلك المُدخَلات في عدد من المؤشرات.

المدْخل الأول: الصراعات وحلُّها أيُّ مجتمع في العالم تَظهرْ فيه عواملُ صراعية، يَقُمْ هذا المجتمع بحلِّ تلك الصراعات بحروب تختلف وتيرة عنفها، أو من خلال توافق على آليات لحل الصراع. وخارطة الصراعات الجارية اليوم في الفضاء العربي، فيها عدد من المكونات المنفردة أو المتداخلة التي تُفرز عددًا من الصراعات، هي على التوالي: إقليمية وقُطْرية واقتصادية وعِرقية ومذهبية وإدارية وثقافية، تُفرز أشكالًا متعددة من الصراعات الساخنة أو الباردة. إلا أن الملاحَظ أن أسباب الإفراز الصِّراعي تلك لم تُحلّ بعْدُ، إذ لا يزال الصراع الفلسطيني/الإسرائيلي على أشُدِّه، وهو يرفد الجسم الإقليمي بالكثير من السموم، أيْ سُموم المزايَدة عليه أو الاتهام بالتخلي عنه. أيضًا يُرفَد هذا الجسم ببذور صراع، أساسُه فشلٌ على نطاق واسع في إقامة الدولة الحديثة العادلة بالمعنى العام والحديث للعدل والمساواة، ويُغذَّى كل ذلك بأفكار ثقافية سلبية لها علاقة بالماضي أكثر بكثير مما لها بالحاضر أو المستقبل. وتساعِد العولمةُ بهجمتها على هذه المجتمعات على التقوقع والخوف وظهور الكراهِيَة للآخر المختلف. وتفتقد النُّخبةُ العربية المسيطرة على الأمور الخيالَ السياسي الابتكاري، لوضع آليات لضبط تلك الصراعات. فهي تَغرق في المحلية وتشجيع الانعزال، متجاهلةً التيارات الحديثة في العالم، من قبول للتعددية

والمشـاركة وإقامـة المؤسسـات الحديثـة، التـي تَخـدم الشـعوب بجميـع فئاتهـا.

مِـن هنـا، فـإنَّ أسـباب الصـراع متعـددةُ المصـادر ومتداخلـةُ المراحـل والطبقـات فـي فضائنـا العربـي، تتـراوح بيـن الشـدة التي تصـل إلـى الحـرب، والليونـة التـي تصـل إلـى نفـي الآخـر وعـدم الاعتـراف بـه. سـوف تظـلُّ هـذه العوامـل تَعمـل فـي منطقتنـا، وتُفـرز نتائـج سـلبية فـي محيـط سياسـي شِـبه انتهـازي، وغيْـرِ قابـل للتعـرف إلـى موجبـات العصـر. سـوف يَنتـج مـن كلِّ ذلـك أن الـدول العربيـة التـي نشـأت فـي حـدود جغرافيـة معروفـة بعـد الحـرب العالميـة الأولى/الثانيـة، لـن تسـتمر كمـا هـي نتيجـة لهـذا الصـراع المحتـدم. فبعضُهـا سـوف ينقسـم علـى نفسـه عِرقيًّـا أو مذهبيًّـا أو اقتصاديًّـا أو جغرافيًّـا. وبوصفـي دارسًـا للمجتمـع، أرى أن ذلـك طبيعـيٌّ وبديهـي بسـبب كل تلـك العوامـل الفاعلـة الداخلية/الخارجيـة. فهـي تَخلـق ديناميكيّتهـا المسـتقلة، التـي تَبقـى تعمـل إلـى أن يحقـق الصـراعُ نهايـاتٍ معيَّنـة، هـي بطبعهـا نهايـاتٌ موقتـة نسـبيًّا، تَحمـل فـي جذورهـا صراعًـا آخـر، ولهـا ميكانيزمـات جديـدة، وذلـك فـي حـال لـم تقـم النُّخـب العربيـة بإيجـاد آليَّـات سِـلمية تُحقـق التحكـم فـي الصراعـات.

المدْخـل الثانـي: القضيـة الفلسـطينية فـي عالمنـا العربـي الـذي يسـير فـي طريـق الحداثـة، ولـم يَبلـغ بعـدُ غايتَهـا، ظهَـر الصـراعُ الخشـن مـدة طويلـة، ولا يـزال بسـبب عاملَيـن أساسـيَّين ـ أو علـى الأقـل أحدهمـا ـ يفعـل فعلـه الصِّراعـي، أو يتأثـر بـه الصـراع القائـم. العامـل الأول هـو الاسـتعمار الغربـي، والثانـي قيـام دولـة

إسـرائيل. ويُعَـدُّ العامـلُ الأول سـببًا للعامـل الثانـي. الاسـتعمار انحسـر مـن بلادنـا، ولكـنَّ وُجـود إسـرائيل، وشـعور غالبيـة المجتمعـات العربيـة بالغبـن الـذي يقـع علـى بنـي جِلْدتهـم (الفلسـطينيِّين)، فجَّـرَا أنواعًـا مـن الصراعـات لا تـزال تَفعـل فِعلهـا فـي مجتمعاتنـا. فقـد كان الاسـتعمار وأفعالـه دافعًـا لقطـاع مـن المجتمـع إلـى القيـام بالتخلـص منـه. فخاضـت الـدول العربيـة ومجتمعاتُهـا صراعًـا مـع الاسـتعمار، بعضـه خشِـن (كمـا فـي الجزائـر)، وبعضـه شِـبه خشـن (كمـا فـي مصـر وسـوريا)، وبعضـه ناعـم (كمـا فـي الخليـج). وتراوحـت النعومـة والخشـونة فـي هـذا الصـراع، حتـى أصبحـت الدول/المجتمعـات العربيـة محـرَّرة مـن الاسـتعمار المباشـر. وقـد لعبـت الصراعـاتُ الداخليـة لـدى الـدول المُسـتعمِرة دورًا فـي تفشِّـي الصـراع فـي الـدول المُسـتعمَرة، وخلَّفَـت هـذه المـدة الاسـتعمارية أنظمـة محافِظـة.

ومِـن جديـد، وجـد بعـض ضبّـاط الجيـش والنخـب أنّ تلـك الشـرائح الحاكمـة لـم تقـم بواجبهـا فـي «إنصـاف» الفلسـطينيين، وتحريـر فلسـطين مـن الاسـتعمار الاسـتيطاني. فتَطـوَّر إلـى صـراع داخلـي فـي الـدول العربيـة، حتـى وصلَـت جماعـاتٌ حاكمـة جديـدة معظمهـا ضبـاط جيـش بالتحالـف مـع بعـض النخـب إلـى الحكـم، إلا أن هـذه الفئـة تَبيَّـن لكثيريـن، بعـد مـدة، أنهـا لـم تُحقـق «تحريـر فلسـطين»، ولـم تقـم بإنصـاف مجتمعهـا، فظهَـر التوزيـع غيـر العـادل للثـروة، والفشـل فـي التنميـة، وقامـت ضدهـا فئـات جديـدة أطاحـت بهـا. فـي هـذا الخضـمِّ، ظهـر صراع آخـر، هـو احتـلال دولـة «غيـر مؤمنـة» شـيوعية لدولـة إسـلامية

(أفغانستان)، وتَدخُّل عدد من الظروف الدولية والإقليمية أدَّى إلى صراع «أيديولوجيات»، سرعان ما تَحوَّل إلى صراع ساخن. فشارَك عددٌ من أبناء العرب في ذلك الصراع، وهناك ظهرَت من جديد القضية الفلسطينية، و«كثير من قادة الصراع العرب هناك كانوا من أصل فلسطيني»، ثمّ اندلع صراع آخر لم تكن فلسطين بعيدة عنه. هذا التراكم أفرَز ما عُرف لاحقًا بـ«القاعدة»، التي تَطوَّر نشاطها من محاربة «الشيوعية» إلى حروب أهليّة، بعد أن مرَّت أو مرَّ قادتُها بالكثير من الصراعات. لم تكن أيضًا القوى الكبرى من جهة، وحركة الإخوان المسلمين من جهة ثانية، بعيدتَين عن الأرضية التي مهَّدَت لظهور القاعدة.

المدخل الثالث: الثورة الإيرانية لقد فجَّرَت الثورة الإيرانية صراعًا أيديولوجيًّا وسياسيًّا، منذ تَسلُّم رجال الدين الشيعة الحكم في إيران، عندما طَرحَت الدولةُ الإيرانية ثنائية «الصراع مع إسرائيل والصراع مع المستكبِرين» في آن واحد، وعلى رأس «الاستكبار العالمي» الولايات المتحدة وحلفاؤها من المحيطين بها. الولايات المتحدة التي ناصرت إسرائيل، وكانت قد تدخلت لإفشال ثورة وطنية في إيران عام ١٩٥٣ (ثورة مُصدّق)، خلقَت استقطابًا سهلًا في أوساط الجماهير الإيرانية. إلا أن نشاط الثورة الإيرانية تحت الشعار المزدوج، وخاصة «الاستكبار» كما تُفسره طهران، سرعان ما أدخل المنطقة في «تناطُح أصولي/مذهبي»، عاناهُ ولا يزال كلٌّ من العراق ولبنان وسوريا، واليمن أخيرًا. وأثَّر ذلك في ديناميكيات التغيير

والثبات في دول أخرى في المنطقة. التدخل الإيراني الذي لم يكن إلا «نُصرة طائفة» وتمدُّد نفوذ، أطلَق ردّ فعل مضادًّا لدى قطاعٍ واسع من السُّنَّة العرب، الذين جرى تهميشهم في وطنهم بسبب التدخل الإيراني، ولم يجدوا مُتنفَّسًا سويًّا لهم ضد ذلك التدخل، إلا الذهاب إلى أيديولوجية مماثلة في المعنى (الارتكاز على تفسيرات دينية) ومضادة في الهدف. نظرَت تلك الأيديولوجية إلى الجميع باعتبارهم أعداء. فمَن ليس معنا، فهو ضدنا.

قام تدريجيًّا بسبب ذلك ولأسباب أخرى، ما عُرف لاحقًا بـ«الدولة الإسلامية في العراق وسوريا (داعش)»، التي دخلت في صراع خشن مع الجوار الذي رأت أنه مُعادٍ لها، واستخدمت وسائل غايةً في الفظاظة أثارت العالم ضدها، ليس في العراق وسوريا فقط، ولكن على مستوًى عالمي واسع. لقد أثار التشدد الإيراني تشدُّدًا مضادًّا له، أراد أن يماثله في العنف، والوقوف أمام طموحات دول إقليمية تحاول الاستفادة من معادلة «مقاتلة إسرائيل وأميركا/إنصاف المستضعَفين». ولكَون هذا الطرح اعتمد على مذهبية «شيعية»، قابَله تعصّبٌ سُنِّي مضاد وصراعيٌّ أيضًا، كانت جذوته في أفغانستان ثم انتقل إلى العراق والشام، ثم انتهى بمجموعات سُنِّيّة تَكبر أو تصغر في عدد من الدول العربية، ترى أن مشروعها «إقامة العدل في دولة إسلامية» على نمط الدولة الإسلامية الأولى، ومحاربة كلِّ المختلفين.

المدخل الرابع: الصراع الدولي تَكمن المحن سابقًا في أن

الصراع الدولي، خاصة في فترة الحرب الباردة، أفرز صراعات بالوكالة في عدد من مناطق العالم. وما يهمنا هنا الصراع الذي انطلق في أودية أفغانستان وجبالها، والتدخلات الإقليمية المصاحِبة له بعد غزو الإمبراطورية السوفيتية لذلك البلد واحتلاله. فتنادت أطراف كثيرة رسمية وشعبية منظَّمة وغير منظمة لِـ«الجهاد» في أفغانستان، وهناك تطورت الأمور من جهاد موضعي كان برِضًا من الدول، إلى جهاد عالمي مضادٍّ للدول، وظن بعض قادته أن في إمكانهم أن يعمِّموه في العالم. هكذا، تطورت الأمور وكانت قِمَّتها أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠ في الولايات المتحدة، التي أطلقت بذاتها ديناميكيات مضادة للإرهاب، لا تزال تعمل بأشكال مختلفة، بدأت بالإطاحة بنظامين: النظام الأفغاني (طالبان)، والنظام البعثي في العراق. ولا تزال رُدود الفعل العالمية والإقليمية تتفاعل بسبب سلسلة تلك الأحداث.

المدخل الخامس: فشلُ الدولة العربية في إقامة دولة مدنية عادلة لمّا فشلت أغلب الدول العربيّة في بسط سيادة القانون والمساواة والرعاية وإقامة العدل واحترام حقّ الناس في تقرير مستقبلهم (الانتخابات الحرّة والشفّافة والحكم العادل)، صارت حاضنة للإرهاب. أضف إلى ما تقدّم الفساد وفشَلَ إقامة إدارة حديثة، جعلَا شرائح وجماعات في المجتمع تَنشط وتُقاوم تلك الدولة القمعية، منها ما له خلفية دينية، ومنها ما له خلفية سياسية. فقاد كل ذلك إلى ما عُرف

بـ«ثـورة الربيـع العربـي»، التـي أوصلـت بعـض الـدول إلـى حـرب أهليـة (فـي اليمن/سـوريا)، أو إلـى إنعـاش «الدولـة العميقـة»؛ مـا جعـل القـوى المنظمـة تقـود أشـكالًا مـن الإرهـاب، كمـا يحـدث اليـوم فـي سـيناء المصريـة.

الخلاصـة تلـك المُدْخَـلات الخمسـة تَفاعـل بعضُهـا مـع بعـض وبدرجـات مختلفـة، فأنتجَـت فـي النهايـة ديناميكيـات أدت إلـى ظهـور تلـك الحـركات المتشـددة. وإن كان للمتابـع أن يضـع أولويـات للأسـباب، فـإن التدخـل الإيرانـي السـلبي فـي المنطقـة يَظهـر فـي قمـة تلـك الأولويـات، وتسـاعده العناصـر الأخـرى، وخاصـة ذات العوامـل الداخليـة، التـي يمكـن تلخيصهـا فـي فشـل الدولـة الإقليميـة فـي التصـدي الحقيقـي لمهامِّهـا.

٣٠ آذار (مارس) ٢٠١٧

٣

الأمم المتحدة ودول الخليج:
نموذج من العلاقات الدولية المتعثرة

لا جدال في أن العالم يعيش اليوم في حالة لاتَوازُن شِبه مفرطة، وربما يمكن تشبيهها بحالة من الحالات التي مرَّ بها العالم خلال الحرب الباردة، أو بإرهاصات ما قبل الحرب العالمية الأولى أو الثانية. هي تشبه ذلك، وأيضًا لا تشبهه. هي حالة فريدة تتكون اليوم في العلاقات الدولية. بعض الدراسات المتشائمة تخبرنا أن الوضع العالمي الحالي قد يقود إلى حرب نووية. نعم، إلى هذا الحد من التشاؤم. إنَّ «موضوع العلاقات الدولية» معقَّد في حد ذاته؛ إذ يختلف عن موضوع «العلاقات السياسية». وكثيرًا ما نجد في الجامعات المختلفة أن هناك قسمَين للتدريس في هذا المجال الواسع، أحدهما يهتم بالعلاقات الدولية، والآخر بالعلاقات السياسية. لكن ذلك التقسيم هو نظريٌّ أكثر منه عِلميّ أو عملي. فمَن يُواجِهِ المشكلات على الأرض يجدْ أن الكثير من الموضوعات التي يهتم بها هذان القسمان متداخلة. ثم إنَّ دارسي «العلاقات الدولية» يرجعون في دراسة الموضوع إلى القرن السابع عشر يوم نشأت «الدولة القوميّة» في أوروبا.

إلا أنه منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر، وظهور الدولة القومية تدريجيًّا، بدا في الأفق إرهاصات ما يمكن

أن يسـمى «العلاقـات الدوليـة»، أيْ أن الدولـة أصبـح لهـا حـدود جغرافيـة، وفيهـا سـكان لهـم ثقافـة متقاربـة ومصالـح مشـتركة، وتتعامـل مـع دول أخـرى قـد تختلـف أو تتناقـض مصالحهـا معهـا. وتَطـوَّر الوضـع تباعًـا فـي القـرون التـي تبعـت ذلـك، منـذ القـرن السـابع عشـر حتـى الثامـن عشـر والتاسـع عشـر والعشـرين. ومـع ذلـك التطـور، نضح ونضـج مفهـوم «العلاقـات الدوليـة» ومجالاتها، التـي أصبحـت معقَّـدة مـن خـلال ظهـور الـدول المسـتقلة تباعًـا عـن المسـتعمرات القديمـة، والتـي يتفاعـل بعضهـا مـع بعـض في إطـار التواصـل الدولـي. فتختلـف أو تتفـق، بحسـب مـا تـراه قريبًـا أو بعيـدًا مـن مصالحهـا القوميـة. أمـا العلاقـات السياسـية، فقـد تكـون داخـل الدولـة أو بيـن الـدول، وتتضمـن تنظيـم المصالـح البَينيـة.

يثيـر الوضـع الدولـي اليـوم جملـة مـن الهواجـس؛ لـم يَعقـد مجلـس الأمـن[1] فـي تاريخـه الطويـل مثـل مـا شـهدناه فـي القرن الحالـي الواحـد والعشـرين، مـن حيـث كثافـة عـدد الجلسـات، وكثـرة الموضوعـات المطروحـة علـى أعضائـه للنقـاش. ففـي معظـم سِـنِي مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، كان مجلـس الأمـن يَعقـد جلسـاته فـي الأوقـات الحرجـة والمتباعـدة. اليـوم نَشـهد أن الانعقـاد يـكاد يكـون أسـبوعيًّا، ومعظـم جلسـات المجلـس، إمـا لا يُتَّخـذ فيهـا قـرار ملـزم بسـبب رفـض هـذه الدولـة أو تلـك لأيِّ

---

(١) أُنشِـئَت الأمـم المتحـدة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة فـي ٢٤ تشـرين الأول (أكتوبـر) ١٩٤٥ فـي مدينـة سـان فرنسيسـكو فـي غـرب الولايـات المتحـدة الأميركيـة.

قـرار مُلـزم[٢]، ولأنـه يخالـف مصالحهـا، وإمّـا يكتفـي المجلـس بإعـلانٍ غيْـرِ مُلـزم. وفـي بعـض الحـالات يَتخـذ مجلـسُ الأمـن قـرارًا ولا يُنفَّـذ، كمـا جـرى فـي الأسـبوع الأول مـن آذار (مـارس) ٢٠١٨، حـول وقـف إطـلاق النـار فـي الغوطـة الشـرقية مـن دمشـق. وقـد كانـت الموافَقـة علـى القـرار مـن الجميـع، ولكـن لـم تُنفـذه إحـدى دول «الفيتـو» (روسـيا الاتحاديـة)، التـي تُشـارك فـي الحـرب السـوريّة. الموقـف مـن آليّـات مجلـس الأمـن، وأيضًـا مـن الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة، خاصـة فـي الثلـث الأخيـر مـن القـرن العشـرين والأول مـن القـرن الواحـد والعشـرين، هـو فـي الغالـب موقـف المشـكوك فـي قدراتـه علـى الوفـاء بمـا نـذر نفسـه لـه فـي البدايـة، وهـو «الحفـاظ علـى السِّـلم العالمـي». وقـد تَبيَّـن هشاشـة قـدرة مجلـس الأمـن عندمـا اتخـذت المملكـة العربيـة السـعودية موقـف الاعتـذار بقـرار تاريخـي فـي تشـرين الأول (أكتوبـر) ٢٠١٣، عـن قبـول مقعـد غيـر دائـم فـي مجلـس الأمـن مـدة عاميـن، بسـبب مـا صـرَّح بـه رسـميًّا الناطـق بِاسْـم المملكـة، وهـو «ازدواجيـة المعاييـر، وفشـلُ الأمـم المتحـدة فـي اتخـاذ موقـف مـن كل مـن القضيـة الفلسـطينية والوضـع فـي سـوريا، وأن يكـون الشـرق الأوسـط خاليًـا مـن أسـلحة الدمـار الشـامل»[٣].

---

(٢) الـدول صاحبِـة الحـقِّ فـي رفـض القـرارات هـي الـدول الخمـس الكبـرى: الولايات المتحدة، وروسيا الاتحادية، والصين، وفرنسا، والمملكة المتحدة.

(٣) بعـد جهـد، انتُخِبـت المملكـة العربيـة السـعودية أول مـرة لشـغل مقعـد غيـر دائـم فـي مجلـس الأمـن، ولكـن الدبلوماسـية السـعودية وقتهـا أرادت أن تسـجل موقفًـا تاريخيًّـا وعلنيًّـا، تشـير فيـه إلـى الضعـف الـذي انتـاب المؤسسـة الدوليـة فـي معالجـة مشـكلات العالـم المُلِحَّـة.

لعـلَّ تلـك القضايـا «غيْـر المتعامَـل معهـا بجديـة»، ومـا اسـتجدَّ بعدهـا مـن موضوعـات، هـي التـي تضـع لنـا مؤشـر البوصلـة لدراسـة الموقـف، بيـن مـا تتوقعـه دول مجلـس التعـاون والـدول الصغيـرة فـي العالـم، ومـا تسـتطيع (أو مـا لا تسـتطيع) أن تقـوم بـه الأمـم المتحـدة ومؤسسـاتها المختلفـة ـ وعلـى رأسـها مجلـس الأمـن ـ فـي التعامـل الناجـح مـع مشـكلات دول المنطقـة المُلِحَّـة وهواجسـها. ولا يمكـن دراسـة العلاقـات الدوليـة دون الحديـث فـي أهميـة «العلاقـات الشـخصية» بيـن زعمـاء الـدول، في تسـيير تلـك الآلـة الدوليـة أو تعطيلهـا. ومهْمـا كان تصنيـف الشـكل السياسـي للدولـة ـ ديمقراطيـةً كانـت أو شِـبه ديمقراطيـة أو شـمولية ـ، فـإن العلاقـات الشـخصية والمواقـف الخاصـة للزعمـاء لا بـد مـن حسـابها، بوصفهـا عامـلًا مهمًّـا فـي تنظيـم العلاقـات الدوليـة أو عـدم تنظيمهـا.

مراحـل العمـل فـي الأمـم المتحـدة تاريخيًّـا لعلَّـهُ مـن نافلـة القـول إن الفكـرة فـي الأسـاس لقيـام الأمـم المتحـدة بعـد الحـرب العظمـى الثانيـة، هـي أن يكـون هنـاك «مؤسسـة» دوليـة مرجعيـة، لهـا قواعـد واضحـة محـددة، تسـتطيع أن تُخفـف أو تمنـع الصراعـات علـى مسـتوى العالـم، بعـد أن ذاق ذلـك العالـم ـ خاصـة الأوروبـي ـ الويـلات والدمـار، مـن جـرَّاء الحـروب التـي أكلـت الحـرث والنسـل فـي معظـم مـدن أوروبـا وفـي العالـم أيضًـا. ثـم إنهـا كانـت البديـل لمؤسسـة أخـرى ظُـنَّ أنهـا يمكـن أن تمنـع الصراعـات، نشـأت بعـد الحـرب العظمـى الأولـى، وهـي

عصبـة الأمـم[٤]. ولكـن الأخيـرة فشـلت فـي منـع الحـرب العالميـة الثانيـة أو إيقافهـا.

فــي ســنواتها الأولــى، حققــت مؤسســة الأمــم المتحــدة بعــض النجاحـات، حيـث كانـت مكانًـا للتشـاور الدولـي، إلا أنهـا سـرعان مـا دخلـت فـي مرحلـة «الحـرب البـاردة»، التـي شـقت العالـم بيـن عالَـم رأسـمالي، وعالَـم اشـتراكي. والملاحَـظ أن ذانِـكَ العالَمَيْـن، كان بينهمـا شِـبه اتفـاق غيـر مصـرَّح بـه علـى مواقـع النفـوذ فـي العالـم بشـكل عـام، وأُطلقـت يـد كل منهمـا فـي «مراكـز نفـوذه المفترضـة». فـإنْ تَقـدَّم إلـى أماكـن أخـرى، نَشِـط الطـرف الأول فـي إزاحتـه، مـن خـلال مـا كان يُعـرف بـ«الحـرب بالوكالـة»، سـواء السـاخنة أو البـاردة. كان المثـال في الشـرق الأوسـط واضحًـا، إذ كان بحسـب التقسـيم المفتـرَض «منطقـة نفـوذ غربـي»، إلا أن التحولات السياسـية فـي بعـض مناطقـه (مثـل مصـر وسـوريا والجزائـر)، دفعـت القـوى الجديـدة فـي السـلطة إلـى الدخـول فـي صـراع مـع تلـك القـوى الغربيـة، ومالـت إلـى حـدٍّ مـا إلـى المعسـكر الشـرقي. ثـم إنّ القـوى «الغربيـة» أرادت أن تجنـد المتعاونيـن معهـا (مثـل العـراق وإيـران والأردن ولبنـان) فـي ذلـك الوقـت (أيْ خمسـينيات القـرن الماضـي وسـتينياته)، لإقامـة محـور صـدٍّ لِمـا اعتبرَتـه تدخُّـلًا غيـر مرغـوب فيـه مـن المعسـكر الشـرقي. ولذلـك، ظهـر تحالـف سـمي «حلـف بغـداد» مدعـوم مـن بريطانيـا والولايـات المتحـدة، إلا أن تطـوُّر الأحـداث سـرعان مـا أفشـلَه.

---

(٤) عصبة الأمم كان مقرُّها مدينة جنيف (سويسرا).

فـي هـذه المرحلـة «الحـرب البـاردة»، سـواء في الشـرق الأوسـط أو فـي غيـره مـن بلـدان آسـيا وإفريقيـا وأميـركا اللاتينيـة، اشـتد الصراع بالوكالــة بيــن القوتيــن الكبيرتيــن (الولايــات المتحــدة والاتحــاد السـوفيتي)، ووصـل العالـم نتيجـة ذلـك الصـراع إلـى شَـفَا الحـربِ النوويـة، كمـا حـدث فـي أزمـة كوبـا عـام ١٩٦٢. واسـتمر ذلـك الصـراع بالوكالـة بيـن عامـي ١٩٨١ و١٩٨٩ حتـى عهـد السـيد رونالد ريغـان، رئيـس الولايـات المتحـدة. فـي هـذا العقـد قـرَّر الرئيـس ريغـان سياسـة أمنيّـة جديـدة تجـاه الاتحـاد السـوفيتي، وهـي تَبنِّـي سياسـة عُرفـت بمبـادرة «حـرب النجـوم»، أيْ إنشـاء نظـام صاروخي يمنـع أيَّ اعتـداء علـى الولايـات المتحـدة. ويشـجع مـن جانـب آخر صراعًـا مسـلحًا فـي أفغانسـتان ضـد وجـود الاتحـاد السـوفيتي، وهو مـا يَعْـزُوه بعـض المحلِّليـن إلـى تعجيـل سـقوط الاتحاد السـوفيتي.

الدبلوماسـية الدوليـة مـن الـدولار حتـى تويتـر العلاقات الدوليــة فــي عصرنــا الحالــي هــي «حــرب التوازنــات» بيــن القــوى الكبــرى فــي العالــم، وخاصــة بيــن الولايــات المتحــدة والاتحــاد الروســي (الاتحــاد الســوفيتي ســابقًا). وهــذا لا يعنــي أن بعـض الـدول الصغـرى لا تَدخـل فـي حـرب التوازنـات تلـك، علــى ســبيل المثــال: تَحــرص الأقطــاب الكبــرى علــى خلــق توابـع لهـا Satellite States، مثلمـا فعـل الاتحـاد السـوفيتي فـي دول مثـل أوكرانيـا، أو كمـا تفعـل الصيـن اليـوم لتشـجيع دولـة مثـل كوريـا الشـمالية، أو كمـا تفعـل روسـيا الاتحاديـة مـع إيـران. فبـدلًا مـن المواجهـة التـي قـد تكـون جِـدَّ مُكلفـةٍ بيـن القـوى الكبـرى، نجـد أن هـذه القـوى تَخلـق لهـا «دولًا» تـدور

فـي فلكهـا، وتقـوم بـ«الأعمـال القـذرة» إن صـح التعبيـر فـي المجـال الدولـي نيابـة عنهـا.

أصبحـت العلاقـات الدوليـة ذات طابـع معقّـدٍ جـدًّا، بسـبب الاختـلال فتـرةً مـا بيـن القـوى الكبـرى، وبسـبب الاسـتخدام المختلـف للوسـائل. فقـد مـرَّت وسـائل تطبيـق العلاقـات الدوليـة مـن اسـتخدام الـدولار إلـى اسـتخدام المدفـع إلـى اسـتخدام تويتـر، أو الفضـاء الإلكترونـي، كمـا نشـاهد اليـوم. وهـي وسـائل متغيـرة لإدارة الصـراع الدولـي، ظهـرت عنـد اختـلال موازيـن القـوى بيـن الـدول الكبـرى، تمامًـا كمـا حـدث فـي العشـريّة السـابقة للقـرن الواحـد والعشـرين والعشـريّة الأولـى مـن القـرن الواحـد والعشـرين. ففـي تَيْنِـك العَشـريَّتَين شـهد العالـم سـقوط الاتحـاد السـوفيتي، نتيجـة الضغـوط الاقتصاديـة السياسـية والإعلاميـة علـى منهجـه وطريقتـه فـي إدارة الدولـة، وتفـردت الولايـات المتحـدة تقريبًـا مـع حلفائهـا فـي السـاحة الدوليـة. فـي تلـك الفتـرة شـهد العالـم «يـدًا مُطْلقـة تقريبًـا» لتنفيـذ السياسـات الأميركيـة، كمـا شـهد توافقًـا كبيـرًا فـي عـدد مـن القضايـا الدوليـة فـي الأمـم المتحـدة[٥]، ثـم بـدأ الأمـر بالتـوازن منـذ أن اسـتقرَّ الحكـم سـنة ٢٠١٠ فـي روسـيا الاتحاديـة[٦]، ووَضعَـت الإدارة الروسـية فـي مخطَّطهـا «إعـادة التـوازن» بيـن القـوى ـ إن أمكـن

(٥) مثـال علـى التوافـق: مـا حـدث فـي مجموعـة القـرارات التـي صـدرت مـن مجلس الأمن لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي.

(٦) فـي سـنة ٢٠١٠ وصـل السـيد فلاديميـر بوتـن إلـى السـلطة فـي روسـيا الاتحادية.

ـ إلـى مـا كان عليـه أيّـام الاتحـاد السـوفيتي. وقـد بـدأت روسـيا الاتحاديـة تسـتغل كل ثغـرات السياسـة فـي الغـرب، الاقتصاديـة منهـا والسياسـية واللوجسـتية، مـن أجـل إمَّا وضـع العوائـق أمامها، أو تَحدِّيهـا فـي بعـض المناطـق الجغرافيـة مـن خـلال «وكلاء»، أو حتـى القيـام بالتوسـع الجغرافـي كمـا حـدث فـي أوكرانيـا.

دول الخليـج والأمـم المتحـدة فـي هـذه البيئـة الصراعيـة الدوليـة، بيـن «اختـلال التـوازن الدولـي» ومحـاولات «إعـادة التـوازن»، يختفـي الاهتمـام بالقضايـا التـي تهـم دول الخليـج، وهـي أكثـر وضوحًـا، وملخَّصـة بتقديـري فـي الأسـباب التـي جعلـت المملكـة العربيـة السـعودية ترفـض دخـول مجلـس الأمـن علـى اعتبـار أنهـا عضـو غيـر دائـم عـام ٢٠١٣. وتتلخـص فـي ثلاثـة عناويـن رئيسـية هـي: القضيـة الفلسـطينية، والقضيـة السـورية (ومـا جاورهـا مـن تدخُّـل إيرانـي فـي الجـوار العربـي، ويشـمل التدخـل فـي اليمـن)، وأن يكـون الشـرق الأوسـط خاليًـا مـن الأسـلحة النوويـة.

القضيـة الفلسـطينية: هـي أم المشـكلات التـي شـهدتها دول الشـرق الأوسـط مـن أكثـر مـن قـرن حتـى اليـوم، أيْ منـذ إطـلاق وعـد بلفـور عـام ١٩١٧. وقـد مـرَّت بعـدد مـن التطـورات. فالأمـم المتحـدة بوصفهـا جهـازًا دوليًّـا كانـت طرفًـا فـي ذلـك التطـور. والقضيـة الفلسـطينية هـي فـي الغالـب التـي أنتجـت الكثيـر مـن الصراعـات فـي الشـرق الأوسـط وأثَّـرت فـي دُوَلـه، مـن بينهـا دول الخليـج. ومـن نتائجهـا الانقلابـات العسـكرية فـي عـدد مـن الدول العربيـة، التـي عطَّلـت التنميـة فـي الداخـل، وأولجـت عـددًا مـن

الـدول العربيـة فـي متاهـات أيديولوجيـة لا يـزال تأثيرهـا ملحوظًـا حتـى اليـوم، وسـوف يبقـى ذلـك التأثيـر بتجليـات مختلفـة. ثـم إنهـا عطَّلـت التنميـة بمعناهـا الواسـع فـي معظـم دول المنطقـة، بـل هـي التـي أفـرزَت أشـكالًا مـن الإرهـاب المتعـدد الوجـوه، ولا تـزال مفاعيـل هـذه القضيـة تنفـث الكثيـر مـن الأزمـات الحـادة، ويحـاول بعضهـم أن يسـتفيد منهـا «دِعائيًّـا»، كمـا تفعـل اليـوم الجمهوريـة الإيرانيـة وبعـض القـوى مـن أتباعهـا فـي دول عربيـة، علـى أسـاس «المقاومـة».

الأمـم المتحـدة وأخـصّ مجلـس الأمـن فعَـلا القليـل مـن أجـل هـذه القضيـة، وهـي تجـد تفهُّمًـا مـن الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة، ولكـن مجلـس الأمـن، وبسـبب المواقـف السياسـية المؤيـدة لإسـرائيل مـن بعـض القـوى صاحبـة القـول الفصـل «الفيتـو»، يُعطـل أيَّ عمـل جِـدّي باتجـاه وضـع القضيـة علـى مسـار معقـول مـن التسـوية، بـل إن الـدول الكبـرى سـاندت فـي وقـت مـا الدولـة الإسـرائيلية، وتجاهلـت فـي نفـس الوقـت معانـاة الفلسـطينيين، سـواءٌ الولايـات المتحـدة، أو الاتحـاد السـوفيتي (سـابقًا) أو روسـيا الاتحاديـة اليـوم، أو حتـى فرنسـا وبريطانيـا فـي وقـت أو آخـر. تأثيـر ذلـك فـي دول الخليـج كبيـر مـن حيـث المسـاندة السياسـية، أيْ صـرْف طاقـة سياسـية لنصـرة القضيـة، أو بـذل المسـاعدات الماديـة، حتـى إنَّ قطاعـات «مُزايِـدة» عربيـة وأيضًـا إيرانيـة تُحمِّـل الـدول الخليجيـة المسـؤولية، وتضـع عليهـا اللـوم الكبيـر باعتبارهـا «مقصِّـرة» فـي نصـرة القضيـة كمـا تَدَّعـي.

القضيـة السـورية: هـي قضيـة أصبحـت معقـدة، وقـد أوفـدت إليهـا الأمـم المتحـدة حتـى الآن علـى الأقـل ثـلاث شـخصيات دوليـة، عملـت بوصفهـا مبعوثـة مـن قِبـل الأمـم المتحـدة، وهـي: كوفـي عنـان، والأخضـر الإبراهيمـي، وسـتيفان ديمسـتورا. فقـدَّم كلٌّ اجتهـاده لحـل القضيـة السـورية دون نتيجـة تُذْكـر، وعُقـدت الاجتماعـات واللقـاءات، إلا أن الحـرب اسـتمرت، بتدخُّـل مـن إيـران وروسـيا الاتحاديـة، حيـث عطَّلـت الأخيـرة أكثـر مـن قـرار دولـي تجـاه تلـك القضيـة. ولا تـزال القضيـة السـورية تسـتنزف الشـعب السـوري، وجهـود العـرب أيضًـا، وخاصـة دول الخليـج التـي تربطهـا بالشـعب السـوري وشـائج الأخـوَّة.

القضيـة اليمنيـة: تتدخـل فيهـا مباشـرة دولـة إيـران، لنصـرة فريـق صغيـر ضـد إرادة شـعب كامـل. وقـد تدخلـت الأمـم المتحـدة أيضًـا حتـى الآن علـى الأقـل بثلاثـة مبعوثيـن مـن قِبـل الأميـن العـام سـنة ٢٠١٨، دون نتائـج ملموسـة تُذْكـر، هـم: جمـال بـن عمـر، وإسـماعيل ولـد الشـيخ أحمـد، وأخيـرًا مارتـن غريفيـث البريطانـي الـذي عُيِّـن فـي شـباط (فبرايـر) ٢٠١٨. وقـد حـاول الجميـع الوصـول إلـى رأس جسـر لبـدء التفـاوض، لحـل تلـك المشـكلة التـي انقلـب فيهـا علـى الشـرعية فصِيـلٌ يمني يَسْـتقوِي بإيـران. إلا أن تلـك الجهـود، ومنهـا مشـروع قـرارات مجلـس الأمـن التـي لهـا علاقـة باليمـن، عطّلهـا مـرة أخـرى الاتحـادُ الروسـي، الـذي يدعـم مشـروع إيـران فـي اليمـن.

السـلاح النـووي فـي المنطقـة: بـؤرة الاهتمـام هنـا هـي الاتفـاق الـذي وصلـت إليـه الـدول الخمـس العالميـة ذات العضويـة الدائمـة فـي مجلـس الأمـن (الولايـات المتحـدة، والاتحاد الروسـي،

وبريطانيا، وفرنسا، والصين)[7]. ومن خارج المجلس: ألمانيا الاتحادية، والجمهورية الإيرانية؛ ووُقِّع عليه في ١٤ تموز (يوليو) ٢٠١٥، وكان عرَّاب ذلك الاتفاق الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما ووزير خارجيته جون كيري. إلا أن بنود الاتفاق يعاد النظر فيها حاليًّا سنة (٢٠١٨)، بنشاط بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. يقود تلك المراجعة السيد دونالد ترامب رئيس الولايات المتحدة، حيث إن ذلك الاتفاق لا يمنع إيران من صنع أسلحة دمار شامل «نووي»، لكنه يؤخِّر ذلك زمنيًّا فقط. وهو ما اعتُبر غيْر مقبول لدى دول الخليج، وأيضًا لدى الإدارة الأميركية الحالية (دونالد ترامب)، إلا أن الأمم المتحدة تقف عاجزة من جديد عن المساهمة في تغيير ذلك الاتفاق، بسبب الرفض الروسي.

الخلاصة فضلًا عن فترة انحسار القوة الروسية «الاتحاد السوفيتي» في بداية التسعينيات من القرن الماضي، والتي كان فيها احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠، وصدرت فيها قرارات من مجلس الأمن عديدة ومُلزمة، فإنَّ مسيرة أعمال مجلس الأمن لم تكن مواتية للكثير من القضايا العربية الخليجية وهي مترابطة. ونشهد اليوم صراعًا دوليًّا محتدِمًا في أكثر من منطقة على الأرض العربية والجوار الخليجي، تقف فيه الأمم المتحدة ومؤسساتُها المختلفة عاجزة عن تقديم حلول لتلك البؤر الملتهبة، منها سوريا واليمن، وأيضًا

(٧) اصطلَح الإعلام الدولي على تسمية ذلك الاتفاق ٥+١، وهو في الحقيقة ٦+١.

العـراق ولبنـان وليبيـا وفلسـطين، علـى الرغـم مـن دخـول دول خليجيـة مجلـسَ الأمـن مثـل الكويـت[٨]؛ وذلـك بسـبب «صـراع الأفيـال» المحتـدم بيـن الاتحـاد الروسـي فـي الأسـاس والولايـات المتحـدة، التـي تعضدهـا بدرجـات مختلفـة دول أوروبـا الغربيـة. ومـن الواضـح أن ذلـك الصـراع الـذي يأخـذ أشـكالًا مـن التلـون فـي أماكـن متعـددة علـى الكـرة الأرضيـة، مرشَّـحٌ للسـخونة أكثـر فـي الأشـهر والأعـوام المقبلـة. فـكل فريـق اليـوم يسـتعرض قوتـه المعنويـة والماديـة، لإلحـاق الضـرر بمصالـح الطـرف الآخـر.

فـي السياسـة، التوقـع ضـرب مـن المغامـرة غيـر مضمونـة النتائـج. فقـد تتطـور الأمـور إلـى الأسـوأ، أو قـد تتحسـن فجـأة. والأمـر المؤكـد أن دول الخليـج لأسـباب مختلفـة، لا تسـتطيع أن تَجمـع الأطـرافَ المختلفـة علـى أهميـةِ القضايـا التـي لهـا أولويـة عندهـا، بسـبب التناقـض الأساسـي والكبيـر بيـن القطبيـن العالميَّـن. فهـي تخسـر، لأن القطبيـن لهمـا وجهـات نظـر مختلفـة، وأولويـات مختلفـة. فالقصـور هنـا ليـس ذاتيًّـا، ولكـن موضوعيًّـا يخـص الآخريـن. إلا أن لفـت النظـر إلـى أهميـة بنـاء صـفٍّ خليجـي متماسـك واضـح الأهـداف، مثـل بنـاء جبهـة عربيـة «للراغبيـن»، يُسـهِّل إقنـاع الأطـراف الدوليـة بأهميـة تَفهُّـم الهواجـس الخليجية، لأن الخليـج هـو مصـدر الطاقـة الدوليـة، وسـوق للمنتجـات، وممرٌّ حيـوي لتجـارة العالـم.

٢ نيسان (أبريل) ٢٠١٨

(٨) الكويـت أصبحـت عضـوًا غيـر دائـم فـي مجلـس الأمـن مـدة سـنتين، بـدءًا مـن عام ٢٠١٨.

٤

تفعيل العمل العربي المشترك:
بناء تحالف الراغبين وتجديد شباب الجامعة

تحالف الراغبين يشهد الإقليم العربيّ في هذه المرحلة التاريخيّة مجموعة من الظواهر لا تشهدها أقاليم العالم الأخرى. والإقليم العربي له ثقافة وتاريخ وتراث وآمال مشتركة. ولكن في الوقت نفسه، هو إقليم متعدد الكيانات، أفرزت خيارات وسياسات مختلفة، وفي بعضها مصالح متضاربة إلى درجة الصراع المباشر وغير المباشر. من جهة أخرى، هو الإقليم الوحيد تقريبًا اليوم الذي تتدخل في شؤونه العديد من القوى، ليس من خلال كلام مرسَل أو دبلوماسي، ولكن من خلال واقع ملموس على الأرض. فالجوار الجغرافي يتدخل، مثل تدخُّل إيران، وهو النموذج الظاهر على السطح في كل من العراق وسوريا ولبنان واليمن، وفي مناطق أخرى بشكل غير ظاهر، مِثل تدخُّل تركيا في كل من العراق وسوريا، ومدِّ نفوذها إلى أماكن أبعد في الإقليم العربي، كتدخُّلها غير المباشر في كل من مصر وقطر. أيضًا تشترك دول عظمى في التدخل في شؤون الإقليم، مثل تدخُّل روسيا الاتحادية في سوريا، حيث امتد نفوذها إلى مناطق أخرى، وتدخُّل الولايات المتحدة على الأرض في أكثر من دولة عربية. أيضًا يجري صراع ساخن من جانب آخر بين «مكونات عربية» على أرض عربية، كما يحدث

فـي ليبيـا علـى وجـه العمـوم لا الحصـر. وتَبـرز الحساسـيات لكـي يُشـتَّت المشـهد العربـي، كمـا فـي الصـراع علـى الصحـراء فـي المغـرب، أو الصـراع علـى ميـاه النيـل، بـل حتـى الخـلاف المعلَـن علـى مسلسـلات تلفزيونيـة[1]. أمـام هـذا المشـهد المعقـد، تواجـه فرضيـةُ العمـل العربـي المشـترك فـي هـذا المنعطـف التاريخـي الكثيـرَ مـن الصعـاب، وهـي حزمـة معقـدة فـي هـذه المرحلـة التاريخيـة، إذ لـم يواجـه العمـلُ العربـي المشـترك مثلهـا قبـل اسـتقلال كثيـر مـن دُوَلِـه بعـد الحربَيـن العالميَّتَيـن الأولـى والثانيـة مـن الاسـتعمار المباشـر، ولا بعدهـا.

بـدأ العـرب يَعُـونَ أهميـة تنظيـم أنفسـهم، فأنشَـؤُوا الجامعـة العربيـة، التـي شـهدت فـي مسـيرتها الطويلـة[2] تَغيُّـرًا فـي دورهـا ومُهمَّاتهـا. فأصبـح الـدور والمهمـة مـن أحاجـي السياسـة العربيـة المعاصـرة. لقـد وُلـدت الجامعـة العربيـة قبـل خمسـة وسـبعين عامًـا، حيـث أعلَنـت فـي قصـر الزعفـران بالقاهـرة فـي ٢٢ آذار (مـارس) ١٩٤٥، بعـد تمهيـد ومفاوضـات اسـتمرت قبـل ذلـك بضـع سـنين، ميثاقَهـا الـذي اتَّفـق عليـه الموقِّعـون، المكـوَّن مـن عشـرين مـادة، وثلاثـة ملاحـق، غيـر الديباجـة. وعُقـدت «قِمّـة الدمَّـام» (القمـة العربيـة التاسـعة والعشـرون) ـ وهـي إحـدى مؤسسـات الجامعـة وأهمهـا ـ فـي جـوٍّ سياسـي غيـر مسـبوق،

(١) كما حدث بين مصر والسودان، أو بين الإمارات وعُمان.

(٢) جـزء مـن مقـال للكاتـب نُشـر فـي جريـدة الشـرق الأوسـط فـي ١٤ نيسـان (أبريـل) ٢٠١٨.

فـي نيسـان (أبريـل) ٢٠١٨[٣]. أمـا رقـم القمـة، فهـو مِثـل معظـم أعمـال الجامعـة، التـي ليـس هنـاك توثيـق دقيـق لهـا. إنَّ مَـن يقـرأ اليـوم ميثـاق الجامعـة، يَشـعر بأنهـا «نظـام يريـد ولا يريـد»، حيـث إن تفسـير مـواد ذلـك الميثـاق مطَّاطـي وقريـب إلـى الغمـوض، مثلمـا ورد فـي نـصِّ أحـد مـوادِّه: «إقامـة وطـن عربـي مـع احتـرام سـيادة الأعضـاء»، وأيضًـا: «لا يجـوز اسـتخدام القـوة لفـضِّ المنازَعـات البَينيـة»، وأيضًـا: «لا يجـوز اتِّبـاع سياسـة خارجيـة تضـرُّ بسياسـة الجامعـة العربيـة».

مـن المهـم أن نَلحـظ أن البروتوكـولات التـي سُـميت بروتوكـولات الإسـكندرية، ومهَّـدت للميثـاق العتيـد، أي القواعـد العامـة التـي نبـع منهـا ميثـاق الجامعـة ـ أفـردت قرارَيـن خاصَّيـن، أحدهمـا لفلسـطين، والآخَـر لِلُبنـان. وهُمـا البلـدان اللـذان ـ بعـد أكثـر مـن ثلاثـة أربـاع القـرن ـ لا يـزالان يشـكلان «مشـكلة» عربيـة حتـى اليـوم. ففلسـطين فـي نضـال مسـتمر دون نجـاحٍ كبيـر، أو اختـراقٍ سياسـي لـه معنًـى علـى الأرض يقـود إلـى إنصـاف الفلسـطينيين، علـى الرغـم مـن ملاحظـة حضاريـة تَضمَّنهـا الميثـاق تجـاه اليهود، حيـث جـاء فـي الميثـاق: «نتألـم لِمَـا أصـاب اليهـود فـي أوروبـا مـن الويـلات والآلام»، فـي إشـارة واضحـة إلـى إدانـة التصفيـات والملاحقـات والتطهيـر العِرقـي، التـي حدثـت لِأُنـاس فـي أوروبـا بسـبب ديانتهـم. أمـا القـرار الملحَـق حـول لبنـان، فهـو يؤكـد الأهميـة القصـوى لاسـتقلال لبنـان. ويـا للأسـف، اليـوم قـرار لبنـان السـيادي، هـو قـرار مختطَـف، ويُسـيَّر فـي الغالـب مـن طهـران.

---

(٣) رقـم القمـة ٢٩ هـو الرقـم الرسـمي لقِمـة الدمَّـام، إلا أن عـدد القمـم ـ إنْ حسـبنا القمـم غيْـر العاديـة ـ هـي أكثـر مـن ذلـك.

كان مـن المفـروض أن تكـون «الجامعـة العربيـة» نظامًـا إقليميًّـا متماسـكًا، فيـه منافـع لـكل أعضائـه، عسـيرًا اختراقُـه، ويُخضِـع الأنظمـة لـه، إلا أن الواقـع اليـوم وبعـد مسـيرة ثلاثـة أربـاع القـرن، نـرى فيـه أن هـذا التنظيـم الإقليمـي لـم يسـتطع أن يحقق الحـد الأدنـى مـن «عمـلٍ عربـي مشـترك وفعّـال». والآن أمامنـا خِيـاران، إمَّـا أن نَسِير سـيرتَنا الأولـى فـي عقـد الاجتماعـات فـي إطـار هـذا المنتـدى، وإصـدار القـرارات، ثـم ينسـى الجميـع أن ينفِّـذوا مـا اتُّفِـق عليـه، وإمَّـا أن نعتـرف بـأن الوضـع العربـي الحالـي لا يمكـن لـه أن يَسِـير سـيرتَه الأولـى. فهـو أكثـر مـن حَـرِج، بـل خَطِـر. وعلينـا أن نُغيِّـر جذريًّـا مـن المسيرة السـابقة، فنَبنـي تحالفـات يمكـن أن تُسـمَّى «تحالـف الراغبيـن» لمواجهـة الأخطـار الرئيسـية المحـددة، أي يكـون هنـاك محـور عربـي يواجـه مشـكلات «الأمـة التـي فـي خطـر»، بجديـة يسـتحقها الوضـع المخيـف الـذي نعيشـه، وبطريقـة مدروسـة ومُمَنهجـة. وقـد حـدث فـي السـنوات الأخيـرة (أكثـر مـن ربـع قـرن حتـى الآن) قيـام تجمعـات حاولـت أن تسـدَّ القصـور الـذي نشـأ مـن الخلافـات العربيـة ـ العربيـة، فـي إطـار التجمـع الأكبـر (الجامعـة العربيـة)، مثـل «مجلـس التعـاون الخليجـي»، الـذي يصـادف اليـوم عقبـات بعـد مسـيرة ناجحـة فـي فتـرة سـابقة، أو مثـل «مجلـس التعـاون العربـي» الـذي سـرعان مـا أفـل[٤]، أو «التجمـع المغاربـي» القليـل الفعاليـة.

---

(٤) مجلـس التعـاون العربـي كان يشـمل: مصـر، والعـراق، والأردن، واليمـن. ولكـن سرعان ما انهار.

أسباب القصور العربي عن تفعيل العمل المشترك

معظم سنوات التكوين، أيْ في العقدَين أو الثلاثة التي لحِقت بإنشاء الجامعة العربية، كانت دولها المستقلة تواجه «الآخَر المستعمِر» الذي يهيمن على بقية أجزاء الوطن العربي (مثل: بريطانيا في الشرق، وفرنسا في الغرب). وكانت الدول المستقلة عام ١٩٤٥ هي سبع دول، تساند تلك الدول أو بعضها، بشكل أو بآخر، فيما سُمي بعصر التحرر العربي[٥]. فساندت الدولُ الحاصلة على استقلالها تلك الخاضعةَ للاستعمار للتخلص منه، حتى تراجَع المُهيمِن الغربي وانحسر نفوذه، ونما عدد أعضاء الجامعة ليصبح أكثر ـ ثلاث مرات ـ من عدد المؤسسين. اليوم الأمة في خطر، لا لأنها تواجه «هجمة غربية استعمارية» كما كانت في معظم سنوات التكوين؛ إذ كانت تلك المواجهة «أسهل» نسبيًّا رغم ما شابَها من دم وتضحيات كبرى. أيضًا استمرت المواجهة مع إسرائيل عقودًا طويلة، حتى قررت بعض الدول العربية أن تنهي تلك المواجهة الساخنة، ووقَّعَت على اتفاقات مع إسرائيل (مثل مصر والأردن). فأصبح العمل من أجل القضية الفلسطينية هو عمل دبلوماسي وسياسي.

أمّا في عصرنا هذا، فالمواجهة اختلفت، لأنها في الأساس مع دول إقليمية تريد الهيمنة على أمة العرب البالغ عددهم اليوم ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة، وتتميز أراضيهم

---

(٥) دراسة ساهم فيها عدد من الكُتّاب (وبينهم كاتب هذه المطالعة)، نُشرت في الأهرام القاهرة، في ٢٤ حزيران (يونيو) ٢٠١٦.

بثـروات طبيعيـة. ثـم إنّ جغرافيَّتهـم تتوسـط الغـرب والشـرق. وفـي نفـس الوقـت، فـإنَّ عـددًا مـن الـدول العربيـة إمـا يمكـن تصنيفهـا بأنهـا «فاشـلة»، أو «مهـدَّدة بالفشـل»، وتخـوض حروبًـا أهليـة. ولا يتأخـر فيهـا متخِـذُ القـرار عـن تجاهُـل رغبـة أغلبيـة شـعبه، أو اسـتدعاء «الخارجـي»، بـل وإبـادة شـعبه مسـتخدمًا السـلاح الكيمـاوي المحـرَّم علـى النطـاق العالمـي. تَظهـر لنـا الـدول الفاشـلة أو المهـدَّدة بالفشـل فـي لبنـان وسـوريا واليمـن، حتـى فـي العـراق وليبيـا، علـى درجـات مختلفـة، ويهيـم اللاجئـون العـرب علـى وجوههـم فـي أقاصـي الأرض. كل ذلـك يحتـاج إلـى خطـة إنقـاذ مـن جانبَيـن، الأول منهمـا هـو اتخـاذ كل مـا يلـزم للمحافظـة علـى الـدول العربيـة التـي لـم يَطُلْهـا الخلـل، حتـى تبقـى سـالمة، وتُشـكل رأس الجسـر للإنقـاذ. وهنـا يتركّـز العمـل علـى بنـاء تحالـف جـدي وحقيقـي محـدَّد الأهـداف. والجانـب الآخـر هـو وضعُ حـد أدنـى لقبـول الأنظمـة الفاشـلة فـي محيـط الجامعـة، حتـى لا تُسـمم أجـواء العمـل العربـي وتُعطلـه مـن مهماتـه التاريخيـة التـي يتطلـع إليهـا الشـعب العربـي فـي كل مـكان، وهـي: الحريـات والتنميـة والاسـتقرار.

إيـران، التـي هـي مصـدر تهديـد حقيقـي للنظـام العربـي برُمَّتـه، وهـو تهديـد اسـتراتيجي وقَومـيّ واقتصـادي، علـى عكـس مـا يصـوِّره الإعـلام المزيَّـف الـذي يريـد الترويـج لصـراع سُـنِّي شـيعي[٦]. وهـو أبعـدُ مـن الحقيقـة بفراسـخ، لأن الطموحـات

(٦) تلـك الفكـرة تجـد قبـولاً واسـعًا مـن طهـران، وتُسـتخدم تكتيكيًّـا مـن أجـل الحشد والتجنيد.

الإيرانيـة هـي فـي صُلبها قوميـة فارسـية واقتصاديـة، لا تَسـتخدم الشـيعية إلا غطـاءً لتضليـل السُّـذَّج. والأمـة فـي خطـر، لأن هنـاك قـوًى إقليميـة أخـرى تريـد التمـدد تحـت غطـاء الإسـلام السياسـي السُّـنِّي. هـذه المـرة هـي تركيـا، التـي تـرى أن مشـروعها هـو الذي يجـب أن يسُـود. وهـو مشـروع مـن جديـد ليـس مذهبيًّـا، لكـن قوميًّـا طورانيًّـا واقتصاديًّـا أيضًـا. لهـذا فهـي تتدخـل فـي أكثـر مـن مـكان فـي الشـأن العربـي بصـورة مباشـرة، أو مـن خـلال الدعـم الإعلامـي واللوجسـتي لقـوًى ترغـب فـي هـدم السِّـلم الأهلـي فـي عـدد مـن الـدول العربيـة. ولعـل الصـورة القاتمـة التـي جمعـت الرئيـس الروسـي بالإيرانـي والتركـي، لكـي يبحثـوا فـي الشـأن السـوري «العربـي»، خيْـرُ دليـل علـى ذلـك التدخـل السـافر[٧]. هــذان المشــروعان (الإيرانــي والتركــي)، كلاهمــا يُســتخدمان أداتَيـن: الأولـى مذهبيـة، والثانيـة مَظهـر المُدافـع عـن فلسـطين.

أمــام هذيــن المشــروعين الإيرانــي والتركــي، وأمــام حقيقــة سـقوط عـدد مـن دول الإقليـم فـي حـروب أهليـة، وتدخـلات إقليميـة وعالميـة، أو تحـت سـيطرة أحـد أقطـاب المشـروعين ـ يبـدو أن المخـرج هـو بنـاء تحالـف عربـي سياسـي مكـوَّن مـن الراغبيـن فـي ذلـك، وتجديـد شـباب الجامعـة العتيـدة ـ إن أمكـن ذلـك ـ، وتطويـر ميثاقهـا. هـدف الائتـلاف الجديـد يجـب أن يكون إبعـاد المنطقـة عـن هـوة التمـزق، وتفعيـل عمـل عربـي مشـترك يسـتطيع وقْـف تمـدد المشـروعين الإقليميَّيـن، ووقْـف الأطمـاع

(٧) عُقدت القِمة في نيسان (أبريل) ٢٠١٨.

الأخـرى التـي تهـدِّد بعـض الـدول العربيـة[٨]، وأيضًـا يسـتطيع أن يقـدم البديـل الحضـاري والإنسـاني. ذاك مـا يُفتـرَض فيـه أن يكـون هـدف الجامعـة الجديـد، أو هـدف أيِّ تكتُّـل عربـي. ومِـن مصلحـة الـدول العربيـة، خاصـة التـي لـم تَسـقط فـي مرحلـة الخطـر والاضطـراب، أن تتمسـك بالنظـام الإقليمـي العربـي، علـى أن يجـدَّد علـى أسـاس أكثـر وضوحًـا وموضوعيـة ممـا سـبق، وأن تحافـظ علـى جذوتـه مشـتعلة، وقـادرة علـى المقاومـة. بعدهـا يمكـن إقامـة تحالـف دولـي، يسـاعد علـى رفـد هـذا التحالـف الإقليمـي وإشـاعة السِّـلم والأمـن فـي ربـوع المنطقـة.

بيئـة مضطربـة يعيـش العالـم الـذي نحـن فيـه زمنًـا أقـلّ مـا يقـال عنـه إنّـه زمـن اللايقيـن. بعـض الأقـوال تذهـب إلـى أن المرحلـة العالميـة الحاليـة المشـبعة بالاضطـراب، تُشـبه كثيـرًا مرحلـة مـا قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة بمـا فيهـا مـن خلـل فـي الأمـن العالمـي، وانشـطار حـادّ فـي المواقـف تجـاه القضايـا الكبـرى، وضعْـف فـي المؤسسـات الدوليـة بـل وتفككهـا، وصـراع علـى المـوارد، وأزمـات ماليـة مسـتمرة. والبيئـةُ العربيـة ليسـت اسـتثناءً مـن ذلـك اللايقيـن، بـل إنهـا تـكاد تصبـح بـؤرة الصـراع فـي عالـم مـا بعـد سـقوط الاتحـاد السـوفيتي. فـي هـذه البيئـة اللايقينيـة تعمـل مؤسسـاتُ العامـل المشـترك كالجامعـة العربيّـة و مؤسسـات كمجلـس التعـاون الخليجـي. وهنـاك الكثيـر مـن اللـوم ـ برأيـي كثيـرٌ منـه غيـر موضوعـي ـ، يوجَّـه إلـى «الجامعـة العربيـة»

(٨) مِـن تلـك الأطمـاع: مشـكلة ميـاه النيـل المحتـدِم حَولها النقـاش، بيـن مصـر والسودان وإثيوبيا.

باعتبارها مؤسسة في حد ذاتها. وهو توجُّه إلى «لَوْم المُبلِّغ عن الحريق، بدلًا من مُشْعِل الحريق» بحسب المثل السائر.

في الجامعة هناك مساران يمكن وصفهما مدخلًا إلى الإصلاح: الأول منهما هو «هيكلية الجامعة وإدارتها»، والمسار الثاني ما تستطيع الجامعةُ (باعتبارها مجموعًا) أن تقدِّمه للمسار السياسي، أو الاقتصادي العربي المشترك. كلا المسارين: «الجامعة» بوصفها مؤسَّسة، و«تأثيرها السياسي»، هما «مُحصِّل قوة» نتيجة مكوناتها، وهي الدول العربية، وليست قوة في حد ذاتها. فمدى قوة الجامعة أو ضعفها يكون بحسب قوة مكوناتها والإرادة السياسية لدى تلك الدول. وأيضًا المشروع الذي يمكن أن يقال عنه إنه «الرافعة» للعمل العربي المشترك، يُمْكن أن يُصلَح القليل منه في هيكل الجامعة، وهو غير مطروح اليوم على المستوى الإداري، وهو في حد ذاته قليل، بمعنى أن ذلك الإصلاح الذي تحدَّث عنه بعضهم في زمن سابق، لم يعد حتى مطروحًا للنقاش، فهو يحتاج إلى توافُق بين أعضاء الجامعة أنفسهم، كما يحتاج إلى تمويل، وكلاهما متعذِّر في هذه البيئة التي حولنا، أو صعبُ المنال. أما المسار الثاني وهو الفعل السياسي، فهو أيضًا متعذر بشكل أكبر، لأن الدول المشاركة في معظمها اليوم، هي إما في وسط صراع دموي في داخلها، أو مرتهَنة إلى قوة خارجية «إقليمية»، وغير قادرة على الفعل بسبب ما تمرُّ به من ظروف سياسية واقتصادية صعبة.

مِن التعجل لَوم الجامعة بوصفها «مؤسسة» على الوضع

العربـي المتدهـور، فهـي قويـة بقـوة أعضائهـا، وضعيفـة أيضًـا بضعفهـم. فالعـرب ليـس لديهـم ممـا يمكن أن يُسـمَّى «المشـروع الرافعـة» كمـا اتضـح لنـا فـي السـابق. فلم يعـد مشـروع «النهضة» مطروحًـا، ولـم يعـد محاربـة «المسـتعمر» لـه قيمـة كمـا كان، حتـى إن مشـروع «مناصـرة فلسـطين» بمـا يعنيـه مـن حشـد وتحضيـر لـم يعـد مشـروعًا متفَقًـا عليـه. فـي الجانـب الآخـر، فـإن «مجلـس التعـاون» الـذي حقـق نجاحـات فـي العقـود الثلاثـة مـن إنشـائه، دخـل أيضًـا مرحلـة «البيـات» النسـبي بسـبب الخـلاف بيــن بعــض مكوناتــه، وهــي مكونــات علــى أرض الواقــع أكثــر قُربًـا مـن غيرهـا فـي النسـيج العربـي، ولكنهـا أيضًـا لـم تسـتطع تجنـب عطـب التغيـرات الإقليميـة والاجتهـادات السياسـية لِمَـا بعـد مرحلـة مـا سُـمِّي بالربيـع العربـي.

فـي المنظـور القريـب، لا بـد أن يكـون هنـاك مـا يسـمى «تعـاون القادريــن» مــن العــرب. وليــس أمامنــا هنــا للتفكيــر فــي هــذا التوجـه إلا النظـر إلـى الـدول القـادرة. ومِـن القادريـن فـي الـدول العربيـة لا يوجـد اليـوم غيـر مصـر والمملكـة العربيـة السـعودية، مــع بعــض دول الخليــج، وهــذا المحــور يمكــن أن تنضــم إليــه كل مــن الأردن والمغــرب، وهــي الأجــزاء التــي لــم تعطــب فــي منظومـة الجامعـة العربيـة بعـد تسـونامي مـا عُـرف بـ«الربيـع العربـي». باقـي الـدول بحسـب مـا سـلف، إمَّـا فـي حالـة حـرب أهليـة ـ بشـكل أو بآخـر ـ قادتهـا إلـى أن تصبـح «دولًا فاشـلة»، وإمّـا يعتريهـا عجـز سياسـي بسـبب تأثيـر البيئـة المحيطـة، أو عجـز داخلـي اقتصـادي. المطلـوب اليـوم، هـو مـا يمكـن أن

يُسمَّى «توافُقَ القادرين»، أيْ أن يكون هناك محور عربي في داخل الجامعة، يشكل رافعة ويوحِّد نظرته إلى التحديات القائمة، وهي كثيرة، ويحدد العمل المشترك بمشروع واضح وحداثي لمواجهة تلك التحديات، أو العامل على تخفيف آثارها السلبية في العمل العربي المشترك، وخلْق أمل جديد للجماهير العربية التي أصيبت اليوم بالإحباط والإعياء معًا.

القوى الغربية الكبرى بشكل عام، تنسحب من المشاركة في دفع أثمان للحلول المطلوبة إقليميًّا. فقد تَحوَّل الغرب بشكل عام من مرحلة «الاشتباك الإيجابي» في قضايا الشرق الأوسط، إلى مجرد «الإحسان إلى اللاجئين» القادمين من الشرق الأوسط، بل وفي بعض الأوقات مطاردتهم. وقد أصبحت معظم المجتمعات الغربية منقسمة على نفسها، وحكوماتها مترددة. فلا أمل في «تعاون عربي ـ غربي» لإعادة الأمور إلى مسارها السابق، أو للانتقال بها إلى مكان أفضل.

هل يمكن إيجاد تحالفات جديدة عربية دولية؟

أحد الحلول التي يمكن التفكير فيها لتفعيل العمل العربي المشترك أو بعضه، هو إيجاد تحالفات دولية لوضع حلول للمشكلات العالقة من حروب أهلية أو بينية في المنطقة. هنا أيضًا تُثار الشكوك، فالاتحاد الروسي لا يمكن الاعتماد عليه لسببين: الأول منهما قصوره الذاتي، والثاني الثمن الذي يرغب في الحصول عليه من العرب. أمّا الصين، فلا تزال واقفة على بعد في الأفق، وبعيدة عن الاشتباك الإيجابي، والقوى الجديدة كالهند وتركيا واقعة في مشكلاتها، وبعضها

يتدحرج نحو الحوار. وأما الغرب، فهو يسير إلى انقسام بين طرفَي الأطلسي، إذ سياسة الإدارة الأميركية الجديدة على الأقل «غير قابلة للتنبُّؤ»، وسياسة أوروبا عاجزة في نهاية الأمر عن الفعل، وتبحث الأخيرة عن وسائل ترميم المشهد، ليس حل المشكلات جذريًّا.

محور «السعودية/الخليج ومصر وبعض الدول العربية القليلة»، الذي نجا جزئيًّا من سلبيات «الربيع» إن صح التعبير، قادر على أخذ المبادرة، إلا أن تلك المبادرة تحتاج إلى «مشروع» واضح. وأعتقد أن هذا المشروع هو أقربُ ما يمكن أن يكون إلى «إقامة الدولة العربية الحديثة والعادلة»، والتعمق في الأهداف التي يراد تحقيقها. فهل هي صدُّ المشكلات والتقليل من الخسائر، أم هي مبادرة إيجابية لإنقاذ الأمة من هذا التدهور الحاصل، حتى نصل إلى ذلك المكان؟ إنَّ «تحديد أهداف النهوض» يحتاج إلى خطوتين: الأولى منهما هي الإقرار بأن العمل «بالإجماع» في محراب الجامعة العربية قد ولَّى زمانه، والثانية أن يتوافق القادرون على فهم مشترك لِمَا يجب أن يكون في كل من ليبيا وسوريا واليمن ولبنان والعراق، أي يكون هناك موقف محدد وواضح من المشكلات التي تعانيها تلك البلدان، **ورسم خارطة الحلول، وطريق مشتركة إلى الخروج من تلك المعضلات.**

في الجانب الآخر، يجب التوصل إلى اتفاق على موقف موحَّد من «الطموح الإيراني» في الأرض العربية، لأن ذلك الطموح هو أحد ـ ولا أقول كل ـ أسباب الاضطراب الحاصل.

فالتدخـل الإيرانـي فـي كل مـن سـوريا والعـراق واليمـن ولبنـان واضـح المعالـم، ثـم إنَّ تدخُّـل روسـيا فـي سـوريا أمـرٌ لا بـد مـن التوافـق علـى تقييمـه جماعيًّـا، والتوقـف أمـام تحدياتـه.

الجامعـة العربيـة بوصفهـا فكـرة أو مؤسسـة، أمـرٌ يحتـاج إليـه العـرب اليـوم أكثـر مـن أي وقـت آخـر. كانـت الجامعـة إمَّـا مكانًـا للصـراع، أو ممـرًّا لتمريـر خطـوات دوليـة لاحقـة. فلـم يعـد الوقت ولا البيئـة المحيطـة بالعـرب، يَسـمحان اليـوم بهـذا الامتيـاز الـذي كان ممكنًـا فـي الأيـام السـهلة. تحـدِّي الجامعـة العربيـة يأتـي من داخـل دولهـا. فهنـاك شـعور بفشـل «أهـداف الربيـع العربـي»، وأيضًـا هنـاك ضغـوط حقيقيـة علـى الاقتصـاد العربـي، أوصلـت عـددًا مـن الـدول العربيـة إلـى العجـز المالـي والاسـتدانة مـن الخـارج.

لقـد فقـدَت الـدول العربيـة المنتجـة للنفـط فـي الثـلاث سـنوات الماضيـة نِصـف دخلهـا، بـل إن بعضهـا بـدأ بالاسـتدانة الخارجيـة أو الداخليـة، وهـو أمـرٌ سـوف يسـتمر فـي المنظـور القريـب والمتوسـط. فلـن يعـود المـال «النفطـي» متوافـرًا بنفـس السـهولة السـابقة، وذلـك يوقـع ضغوطًـا ضخمـة علـى النسـيج الداخلـي فـي دول النفـط وخارجهـا، ويضـع نقـصُ التمويـل محـدداتٍ للإقـراض أو المسـاعدات للـدول الأُخـرى. فبعـض الـدول العربيـة اليـوم يَحـارُ آخـرَ كلِّ شـهر فـي كيفيـة تدبيـر أمـوال لموظفيهـا، وهـذا الأمـر سـوف يُسـمع أيضًـا فـي العلاقـات البَينيـة العربيـة بشـكل سـلبي. الصـورة قاتمـة، ومـا تسـتطيع مؤسسـةُ الجامعـة العربيـة اليـوم أن تُقدمـه للـدول والقـادة، هـو أن تَبسـط أمامهـم

الحقائـق، والكثيـر منهـا مُعتـم. لذلـك، فـإن البحـث عـن عـزم لدى «تعـاون القادريـن» أصبـح ضـرورة اسـتراتيجية عربية، لإنقـاذ الأمة مـن التدهـور المشـاهَد، ووضْـعِ العمـل العربـي ولـو فـي عـدد محـدود مـن الـدول علـى سـكة الخـلاص، والتـي سـوف تعمـل رافعـةً للعمـل المسـتقبلي.

٧ حزيران (يونيو) ٢٠١٨

٥

دول الخليج وعام الأزمات الكبرى: الفرص المتاحة هي إعادة دراسة عوامل القوة

عن امتزاج الداخل بالخارج لم يشهد عام ٢٠١٩ «أحداثًا كبرى جديدة»، بل شهد استمرار تلك الأزمات الكبرى. وبعضها كان صغيرًا وكبر، وبعضها وُلد كبيرًا ثم صغر. عاش العالم عام ٢٠١٩ وهو يُساير تلك الأزمات، على الصعيد الدولي والإقليمي والمحلي، إلا أنَّ ما شهده هذا العام أو أصبح أكثر وُضوحًا مِن قَبل، هو «ظاهِرَة التأثير والتأثر المتبادَلة بين الداخل والخارج». فلم تَعُد السياسة الخارجية فقط «خارجية» فقط، ولم تَعُد السياسة الداخلية «داخلية». والمراقب أينما اتجه به الرأي لتحليل ظاهرة اجتماعية أو سياسية، يُقابَل بتلك العلاقة الوثيقة بين الداخل والخارج، بين ظاهرة هنا وأخرى هناك تُشكِّل ردَّ فِعل لها، وذلك ربما بسبب تعقُّد العلاقات الدولية، وربما بسبب ثورة الاتصالات التي لم تُبْقِ برزخًا إلَّا وبنَت عليه جسرًا. على سبيل المثال لا الحصر فإن «أزمة شمال سوريا» بين الأتراك والأكراد السوريين (التي انفجرت في الثلث الأخير من هذا العام)، سُمِعَت بقوة في هيكلية المؤسسات الأميركية السياسية الكبرى، وهي أكبر دولة في عالمنا اليوم من حيث الاقتصاد والتأثير، وذلك مثل أزمة «البريكست» (خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي)، التي

قـد تكـون مدخـلًا إلـى تفكيـك المملكـة المتحـدة كما عُرفـت تاريخيًّـا، ولأهميتهـا فـي مسـتقبل الاتحـاد الأوروبـي أيضًـا.

وهكـذا هـي الظواهـر السياسـية التـي تحيـط بنـا. فنحـن اليـوم أمـام عـدد مـن «الأزمـات» التـي يمكـن أن تؤثـر فـي مسـار دولنـا فـي الخليـج، وتؤثـر فـي واقعنـا السياسـي والاقتصـادي بـل والاسـتراتيجي. بعضهـا تأثيـره مباشـر، وبعضهـا تأثيـره غيـر مباشـر. لا يمكـن لأيٍّ متابـع أن يحـدد علـى وجـه الدقـة أهميـة أيٍّ مـن الأزمـات حولنـا وتأثيرهـا فـي مسـيرتنا السياسـية أو التنمويـة. فقـد تكـون «أزمـة» نظنهـا صغيـرة، وتكبـر خـلال أيـام قلائل، وقـد تكـون «كبيـرة» ثـم نراهـا تتلاشـى فـي أيـام أيضًـا. ولكـن، مـا سـوف يُتنـاول فـي هـذه المطالعـة، هـو عبـارة عـن سـرد وانتقـاء لتلـك الأزمـات التـي يراهـا الكاتـب مؤثِّـرة، أو قـد تؤثـر فـي مسـيرة دول مجلـس التعـاون الخليجـي فـي عـام أو أعـوام قادمـة. وإنْ كان قـد قيـل إن «أسـبوعًا فـي السياسـة» هـو زمـن طويـل، فـإن «سَـنةً فـي السياسـة» هـي زمـن أطـول بكثيـر، لأن المتغيـرات الحادثـة علـى السـاحة السياسـية وعلـى السـاحة «التقنيـة» فـي عالمنـا سـريعة، بـل مُجْهِـدٌ تتبُّعُهـا، وهـي تتغيـر بيـن يـوم وآخـر.

أكبـر الأزمـات أرى أن أكبـر الأزمـات التـي تواجههـا دول الخليـج، هـي أزمـةٌ مركَّبـةٌ يمكـن أن نُطلـق عليهـا بالمجمـل «أزمـة الديمقراطيـة الغربيـة»، أو «أزمـةُ الخلـلِ الفـادحِ فـي النظـام السياسـي الغربـي علـى اختلافـه». هـذا الخلـل يؤثّـر فـي اسـتتباب السِّـلم العالمـي، لا سـيما دول الخليـج لكونهـا «مخزنًـا للطاقـة». فترابُـط العالـم واعتمـاده المتبـادل علـى السـلع

والخدمـات، جعـلَا منـه شـريطًا واحـدًا منتظمًـا. لذلـك، فـإن احتيـاج العالـم إلـى الطاقـة يتركـز نظـره علـى الخليـج، المصـدرِ الأكبـر للطاقـة الأحفوريـة (النفـط والغـاز)، علـى اعتبـار أنـه مـكان للاهتمـام الاسـتراتيجي، ثـم إن الخليـج يعتمـد مـن جهـة أخـرى فـي «أمْنِـه الإقليمـي» علـى تلـك الـدول الغربيـة. فالخلـل هنـاك يؤثـر هنـا. اليـوم تلـك الـدول تمـرُّ بأزمـة، بحسـب مـا أسـلفتُ، يمكـن تسـميتها أزمـة «ديمقراطيـة» إن صحـت التسـمية، تجعـل حكوماتهـا الغربيـة تَفقـد النظـرة الطويلـة إلـى الأمـور والمصالـح، وتتحـول سياسـاتها إلـى النظـرة الآنيـة السـريعة. أكبـرُ تلـك الـدول هـي الولايـات المتحـدة، وهـي أكثـر التصاقًـا «فـي التاريـخ المعاصـر» بأحـداث الخليـج. هنـاك (أيْ فـي الولايـات المتحـدة) يَشـعر المراقـب بأنهـا تمـرُّ فـي السـنوات الأخيـرة بـ«أزمـة ثقـة» بآليَّـة العمـل الديمقراطـي. فنحـن أمـام رئيـس هـو دونالـد ترامب، جـاء مـن خـارج رحـم «المؤسسـة السياسـية التقليديـة». فهـو رجـل مُحْـدِث فـي السياسـة الدوليـة، وتاريـخ الرجـل كلـه عبـارة عـن صفقـات فـي «سـوق العقـار»، وبنَـى كلَّ خبرتـه هنـاك. ومـا عملُـه السياسـي كمـا يَظهـر إلا إكمـالٌ لتلـك المسـيرة «التجاريـة» التـي تُعلـي الصفقـات علـى المبـادئ، والمصالـحَ الخاصـة علـى العامـة. وقـد نقـل خبـرة «العمـل مـع سماسـرة العقـار» وبنفـس آليَّتهـا إلـى العمـل السياسـي والدبلوماسـي، مـع الكثيـر مـن «الثأريَّـة» تجـاه الإدارة السـابقة. فوجدنـا رئيسًـا لا يتـورع عـن بنـاء المواقـف فـي السياسـة، وخاصـة الخارجيـة التـي تَعنينـا، علـى معادلـة «الربـح والخسـارة» الماديـة: مَـن دفَـع؟ وكـم دفـع؟ فيُؤطِّـر ذلـك بمصالـح الولايـات المتحـدة كمـا يفهمهـا.

لـذا، أصبحنـا أمـام معضلـة الابتعـاد عـن اتخـاذ القـرار بدافـع سياسـي أو اسـتراتيجي أو حتـى أيديولوجـي، إلـى دافـع مصلحـي مـادي مباشـر وضيِّـق. تلـك الظاهـرة لـم يألفهـا العالـم فـي مسـيرته السياسـية، وبالتأكيـد لـم يألفهـا فـي القـرن العشـرين ومـا بعـده، حيـث إن صـراع «الأيديولوجيـات» ومـا يتبعهـا مـن حريـات الإنسـان وحقوقـه واسـتقلال دول، كانـت البوصلـة التـي تقـود السياسـات الدوليـة حتـى وقـت قريـب، طبعًـا دون نفـي للمصالـح الماديـة، ولكـن بعيـن «مفتوحـة» علـى السِّـلم العالمـي. فلـم يعُدْ ذلـك مركزيًّـا فـي السياسـة الخارجيـة الأميركيـة القائمـة. وإلـى جانـب الأزمـة الأميركيـة فـي السياسـة الخارجيـة وتأثيرهـا فينـا، فـإن الأزمـة السياسـية فـي بريطانيـا هـي أيضًـا لافتـة. فمعركـة خـروج بريطانيـا مـن الاتحـاد الأوروبـي المسـماة بريكسـت، قـد اسـتهلَكت المؤسسـة السياسـية البريطانيـة ولا تـزال تفعـل، حتـى إن الاتفاقـات مـع الاتحـاد الأوروبـي التـي جـرى التوصـل إلـى أكثـر مـن صيغـة لهـا، سـوف تَضـع المملكـة المتحـدة فـي طريـق التفكيـك الجغرافـي، وهـو احتمـال يجعـل بريطانيـا مشـغولة بنفسـها سـنوات قـد تَطُـول. كِلَا البلديـن (الولايـات المتحـدة وبريطانيـا) كان فاعـلًا وأكثـر تأثيـرًا فـي شـؤون دول الخليـج «الأمنيـة والاسـتراتيجية» علـى امتـداد المائـة عـام الماضيـة. فنحن أمـام تغيُّـر أساسـي فـي مواقـف واسـتراتيجيات لأهـمِّ لاعِبَيْـن على مسـتوى العالـم، وعلـى مسـتوى منطقـة الخليـج.

الأزمـة الديمقراطيـة أيضًـا تصـل إلـى بـلاد غربيـة أخـرى، مـن خـلال التوجـه إلـى إفـراز حكومـات «شـعبوية» منغلقـة علـى

نفسـها كمـا فـي إيطاليـا وإسـبانيا، وربمـا تَلحـق بهـا كلٌّ مـن ألمانيـا وفرنسـا فـي القريـب؛ مـا يجعـل دول الخليـج تنظـر إلـى تلـك الأزمـة الديمقراطيـة الممتـدة فـي دول الغـرب الصناعـي، علـى اعتبـار أنهـا معطِّلـة لمـا اسـتقرت عليـه السياسـات مـن جانـب تلـك الـدول فتـرة طويلـة تجـاه السِّـلم العالمـي، وتجـاه اسـتقرار المنطقـة الخليجيـة. فنحـن هنـا فـي مرحلـة اللايقيـن، التـي تُفرزهـا «الأزمنـة السياسـية» فـي الغـرب.

الاتحـاد الروسـي والصيـن تنطبـق علـى روسـيا والصيـن بشـكل عـام مقولـة: «إن الشـيوعية هـي الطريـق الطويـل إلـى الوصـول إلـى الرأسـمالية». فلـم يعـد الخـلاف فـي بدايـة القـرن الحـادي والعشـرين كمـا كان فـي معظـم القـرن العشـرين خلافًـا أيديولوجيًّـا، تُقـدِّم فيـه الـدول والمجتمعـات الأخـرى «المنافـع والمضـار» لأنظمتهـا السياسـية، مـن أجـل إغـراء الـدول الأخـرى للالتحـاق بهـذا المعسـكر أو ذاك، بـل أصبـح الصـراع «مصلحيًّـا» لا يهتـم بالأيديولوجيـا. فيُقـدِّم الاتحـاد الروسـي مـن جهتـه مـا يمكـن أن يسـمَّى «الحفـاظ علـى الوضـع القائـم» للـدول الفاشـلة، بصـرف النظـر عـن مصالـح الشـعوب. فهـي اليـوم تعضـد الحكـم «الشـمولي» فـي سـوريا، بعيـدًا عـن كل تلـك السَّـوءات التـي يرتكبهـا النظـام ضـد شـعبه، وعـن المجـازر والترحيـل الفئـوي القبيـح. وأيضًـا تعضـد النظـام الإيرانـي الـذي ليـس بأقـل قباحـة فـي نظامـه الداخلـي تجـاه النـاس مـن السـوري. وتَرغـب روسـيا فـي التمـدد فـي الإقليـم العربـي غربًـا إلـى شـمال إفريقيـا، وكل ذلـك مـن أجـل مصالـح اقتصاديـة روسـية، وأيضًـا للتعويـض عـن

«انكسار» تَشعر به بسبب سقوط الاتحاد السوفيتي القديم وتَفككُّكِه. فتأخذ طريقها في التمدد السياسي من خلال الوجود الموضوعي عسكريًّا ودبلوماسيًّا، في ضوء انسحاب المعسكر الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة، حيث تجد روسيا الأرض سهلة أمامها لتُوسِّع نفوذها.

أيضًا لم تعد روسيا «مخيفة» للنظام الغربي كما كانت، لأن «الرأسمالية» هي الطريقة المعتمدة في الاقتصاد الروسي، كما في الاقتصاد الغربي. أما الصين، فإنها تُمثل بالفعل «الطريق الطويلة إلى الشيوعية باتجاه الرأسمالية»، وتَبني قُوَّتها الاقتصادية بشكل سريع على آليات مُحسَّنة من الرأسمالية، وتحتاج بالضرورة إلى أسواق، منها السوق الخليجية. وأيضًا تقوم بتطوير آلة عسكرية ضخمة. وقد قامت بعض دول الخليج بفتح بابَي التجارة «والسياسة» مع الصين، إلا أن الأخيرة ليست على عجلة من أمرها في التدخل المباشر. فهي تلتقط الفرص أينما ظهرت، وتقوم بالتوسع الاقتصادي مع إيران، وتتعامل مع دول الخليج، وهي، حتى الآن على الأقل، ليس لها «أظفار عسكرية» في المنطقة، وجُلُّ أظفارها تستخدمها في محيطها المباشر، ولكنها فاعلة على المستوى الدولي، خاصة في المجال الاقتصادي وفي مجلس الأمن. وأيضًا تتوسع في أسواق إفريقيا وأميركا اللاتينية، وتُزاحم المنتجات الغربية، إلى درجة أننا نشهد «حربًا تجارية» اليوم بينها وبين أميركا، وهي حرب تؤثر قطعًا في دول الخليج.

إيران أزمة مستمرة لقد آن الأوان لِنَنظر نحن عرب

الخليـج إلـى التمـدد الإيرانــي، ليـس تحـت عنـوان «تصديـر الثـورة»، بـل تحـت عنـوان «رغبـة السـيطرة». فحقيقـة التمـدد الإيرانـي فـي الجـوار، هـي مـدُّ النفـوذ الفارسـي القومـي التاريخـي تحـت شـعارات مختلفـة، منهـا إعـلاء «المذهبيـة». ويتصاعـد رفـض ذلـك التمـدد بيـن القطاعَيْـن الشـيعي والعربـي فـي كل مـن لبنـان وسـوريا والعـراق واليمـن. الأماكـن التـي يظهـر فيهـا النفـوذ الإيرانــي، تُطـوِّر أشـكالًا مـن المقاومـة لذلـك النفـوذ. فتهـدف السياسـة الإيرانيـة فـي الجـوار إلـى «خلْـق دويـلات» داخـل الدولـة العربيـة «الفاشـلة»، تكـون فيهـا هـي المتحكمـة فـي تلـك «الدويـلات» سـواء عـن طريـق تمويلهـا أو تسـليحها، وتضغـط علـى هيـكل الدولـة الظاهـري، كمـا هـو بيِّـنٌ فـي كل مـن العـراق (الحشـد)، ولبنـان (حـزب اللـه)، واليمـن جماعـة (الحوثـي). وأيضًا تُشـكِّل السياسـة الإيرانيـة لهـا «أنصـارًا» وتُمَذْهِبُهـم فـي كل مـن سـوريا وبـلاد عربيـة أخـرى، وتقـوم بالتدريـب والتمويـل لجماعات أخـرى فـي البحريـن وشـرق المملكـة العربيـة السـعودية ومصـر والسـودان والمغـرب وتونـس. تحـت الحكـم المذهبـي القابـع فـي العصـور الوسـطى، المصـاب بوَسـواس الفشـل والسـقوط، لا يـرى المراقـب أيَّ انفـراج فـي الموقـف الإيرانـي تجاه «التمـدُّد المزمن» للمصالـح الإيرانيـة فـي دول الجـوار العربـي. فهنـاك مِـن القـوى المسـتفيدة مـن جماعـات أو حـكام «فـي السـاحة العربيـة»، مـنَ يَرُوقُهـم ويعضـد مصالحهـم هـذا التمـددُ الإيرانــي، ويحقـق مـن جهـة أخـرى «حالـة مـن الرضـا النفسـي» للجماهيـر الإيرانيـة أو لبعضهـا، علـى اعتبـار أن دولتهـم لهـا كل ذلـك النفـوذ وتقـف أمـام القـوى العظمـى.

على الرغم من العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة على إيران، فإنها عقوبات من طرف واحد، لأن أيَّ عقوبات لا تُشارك فيها كثيرٌ من الدول، معرَّضة للاختراق، كما ظهر أخيرًا في تعامُل بنوك في الخفاء مع المصالح الإيرانية، أو الاتفاق الصيني الإيراني الاقتصادي الضخم. ولا يبدو في الأفق أيُّ طريق توافُقي بين دول الخليج وإيران، لأن النظام الإيراني يرى أنه منتصِر، وأن السماء تُناصر مشروعه التوسعي. لا يَخْفى أن هناك «حَبْلًا سُرِّيًّا» بين تركيا وإيران. فتجمعهما المصالح المشتركة من جهة، وأيضًا «الإسلام السياسي» من جهة أخرى. لذلك، فإن «التناغم» بين سياسات تركيا وإيران يُعزِّز من مصالح الاثنين على حساب الدول العربية في الجوار، ومنها دول الخليج.

الموقف الخليجي اليوم، الموقف الخليجي ليس في أحسن أحواله، وقضية قطر تُضاعِف الانقسام تقريبًا في كل المجالات أمام تهديد إيران. فتتراجع دول عن ملفات استراتيجية مشتركة مع السعودية (في اليمن خلاف صامت)، وتتحالف قطر مع «الإخوان وتركيا» لتُشكل شرخًا أمام أي مشروع «توحيدي» في السياسات العامة المعلَنة لدول الخليج. وقد يخسر الخليج «العراقَ العربيَّ» مدة طويلة، نتيجة الصراع بين مكوناته وعوار التركيبة السياسية التي خلَّفها الاحتلال الأميركي، بل قد تُوصل العراق إلى الحالة اللبنانية، من خلال تحكُّم ميليشيات مدعومة من إيران ومستنِدة إلى المرجعية؛ ما يضاعف الخطر على دول الخليج سياسيًّا واجتماعيًّا بشكل

كبير. فتقوم إيران بخلخلة المؤسسات العراقية، ومضاعفة عدم الرضا بين قطاعات واسعة من الشعب العراقي؛ ما قد يَنتج منه سقوط العراق في فوضى تفيض بإشكاليتها على جيرانها في الخليج.

أما على الصعيد اليمني، فإن الصورة هناك صعبة أيضًا. فالحرب ضد الحوثي يُعطلها نسبيًّا الخلاف بين الفرقاء اليمنيين من جهة، والخلاف «الظاهر أو الصامت» بين دول التحالف العربي من جهة أخرى، فضلًا عن استنزاف الحرب في اليمن للمال والجهد الدبلوماسي، وأيضًا فتح الباب لأولئك الناقدين على مصراعيه للنيل من دول التحالف، وخاصة الخليجية منها.

الموقف الاقتصادي الدولي من المؤشرات المتوافرة اقتصاديًّا، أن العالم يتجه إلى «مرحلة انكماش قصوى» سوف تؤثر في العملات، وفي الطلب العالمي على السلع والخدمات، والتي سوف ينزاح تأثيرها إلى «أسعار النفط» (عمود الاقتصاد في الخليج)؛ ما يعني ضغوطًا على الميزانيات تُنتج ضغوطًا اجتماعية على السلطات القائمة، وتوفِّر أرضًا خصبة لطالبي التأجيج السياسي على المستوى الإقليمي والمحلي تحت شعارات مختلفة. ثم إن صيحات التحذير من «الخطر على المناخ العالمي»، التي تتصاعد دوليًّا ويصبح لها ضجيج إعلامي عالمي، تشير إلى مساهمة النفط والغاز في تلوث البيئة على المستوى العالمي، على اعتبار أنه خطر داهم. وتتصاعد المطالبات بقوة على إيجاد بدائل للنفط.

فـإن عرَفْنـا أن النفـط اليـوم تذهـب نسـبة كبيـرة منـه إلـى «الاحتـراق الداخلـي» فـي الاسـتهلاك (أي السـيارات)، فـإنَّ العالـم يتجـه إلـى الاسـتغناء عـن ذلـك بتشـجيع التوسـع فـي صناعـة السـيارات الكهربائيـة، وابتـكار الطاقـة البديلـة؛ مـا يشـكل ضغوطًـا هائلـة علـى أسـعار النفـط فـي المسـتقبل، وهـي المصـدر الأكبـر لميزانيـات دول الخليـج اليـوم.

لا بـد مـن ربـط الموقـف هنـا باحتمـال تطـور «الصناعـة النوويـة الإيرانيـة»، التـي تُشـكل هاجسًـا بيئيًّـا، وهاجسًـا سياسـيًّا. ولذلـك الأمـر تداعيـات خطيـرة علـى حيـاة النـاس فـي الخليج ومسـتقبلهم، حيـث إن نتيجـة هشاشـة هـذه الصناعـة فـي البيئـة الإيرانيـة الحاليـة، والسـرعة التـي تريـد بهـا الدولـة الإيرانيـة «فَـرْد عضلاتهـا النوويـة»، قـد تُكـرِّر حادثـة تشـيرنوبل (نيسـان (أبريـل) ١٩٨٦)، التـي وقعـت فـي أوكرانيـا وتضـررت منهـا بـلاد بعيـدة، أو كارثـة فوكوشـيما فـي اليابـان (آذار (مـارس) ٢٠١١)، أو مـا حـدث أخيـرًا فـي روسـيا (نيسـان (أبريـل) ٢٠١٩). ومـن المؤكـد أن إجـراءات السـلامة فـي المنشـآت النوويـة الإيرانيـة، أقـلُّ بكثيـر مـن تلـك اليابانيـة أو الروسـية. فـإنْ أضفنـا إلـى كل تلـك العوامـل «عامـل الحـرب التجاريـة»، ليـس بيـن الصيـن والولايـات المتحـدة فقـط، بـل بيـن الأخيـرة وحلفائهـا مثـل ألمانيـا وفرنسـا، فـإنَّ احتمـال تباطـؤ الاقتصـاد العالمـي يصبـح حقيقـة قريبـة إلـى التحقـق، مـع مـا يُفـرزه كل ذلـك مـن مخاطـر.

المَخاطـر أمـام كل هـذه المخاطـر أو «الأزمـات»، نجـد أن مجلـس التعـاون اليـوم، بسـبب الأزمـة الداخليـة التـي يواجههـا،

ليس في أقوى حالاته، مع وجود القوة التي تحملها بعض دُوَله (المملكة العربية السعودية). إنّ «العزم الكلي» للمجلس على الفعل «قد وهن» كثيرًا في السنوات الأخيرة، بسبب تشتُّت ظاهري أو خفِيّ ناتج من عدم الاتفاق على السياسات المشتركة، والتي يجب أن تُتبع في العديد من تلك الملفات المؤثرة من قِبل الدول المكونة له. ثم إن اليد الخليجية غير قادرة على التعامل مع «عدم اليقين» القادم من تذبذب السياسات الأميركية. فالأخيرة كلَّ يوم هي في حال، ولا يمكن الركون إلى مسار متوقَّع لها في المستقبل القريب أو المتوسط. أما التصريحات القادمة من رأس السلطة الأميركية، فهي ليست مستغرَبة فقط، ولكنها تفتح الباب واسعًا لنقد سياسة الارتباط بها، لكلِّ مَن وجد نفسه مُعارضًا لدولة أو لأخرى من دول الخليج، سواء لدول تعلن العداء مثل إيران، أو لقوًى سياسية مثل جماعة الإخوان المسلمين.

أوروبا ليست خيارًا ممكنًا أيضًا، لأنها غير قادرة وغير راغبة في الانخراط الجاد في شراكة استراتيجية مع دول الخليج. تبقى روسيا والصين، إلا أن الاثنتَيْن تبحثان عن مصالح وتضعان رِجلًا في الخليج العربي، وأخرى في الجانب الإيراني، وهما تعلمان أن مصالح الاثنَيْن (العربي والإيراني) متصادمة. الوضع العربي خارج مجلس التعاون يمر بمرحلة سائلة، وتكاد تكون سائبة، في سوريا ولبنان واليمن وليبيا، حتى في مصر وتونس والسودان. تلك بلدان تمرُّ بأزمات مختلفة ومتنوعة، من داخلية إلى خارجية إلى أزمة اقتصادية، وأيضًا أزمة

حُكم. شهد عام ٢٠١٩ الاستقرارَ في مكان واحد في المنطقة العربية، وهي «دول الخليج العربي»، إلا أن هذا الاستقرار قد يكون مهدَّدًا، نتيجة التطورات الخارجية والداخلية التي تعمل على تقويض ذلك الاستقرار. أما المخاطر الاقتصادية، فهي حتى الآن لم تتوقَّع ماذا سوف يحدث في «اليوم التالي».

الفرص الفرص المتاحة هي دراسة عوامل القوة في الخليج (ما هي تلك العوامل؟ وكيف يمكن تفعيلها؟). وربما مِن الفرص أيضًا الذهاب إلى استراتيجية تكاد تكون متكاملة ما أمكن، تُوضَع فيها أولًا مصفوفةُ ما يُتَّفق عليه خليجيًّا وبشكل نهائي، ثم ما يمكن أن يكون محلَّ نقاش موضوعي في المستقبل، مثل العمل على تخفيض التوتر بين دول المنظومة الخليجية.

أولُ ما يجب العمل عليه، هو وقف الحرب الإعلامية والاستنزاف لعدد من الأطراف، ثم البناء على قواعد ثقة جديدة. وذلك كله يحتاج إلى مؤسسات، ربما خارج الإطار الرسمي، لتفعيل ذلك التوجه، إلا أن حَمِيَّة الاصطفاف اليوم لا تُتيح لرأيٍ ثالث أن يَظهر، على الرغم من قناعتي الشخصية بأن هناك خسارة للجميع في هذا الإقليم من استمرار التوتر.

٣ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٩

٦

ثلاث قضايا تُشكِّل مشهد المنطقة خلال العقد الجديد: فلسطين وإيران وجماعات الإسلام السياسي

الأحداث وصيرورتها تمرُّ منطقة الشرق الأوسط في الوقت الحالي بما يمكن أن يسمَّى بـ«منخفضات شديدة»، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا. وقد بدأت تلك المنخفضات منذ نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، واستمرت طوال عقدٍ تؤثر في الأحداث، واستغرقت معظم سنوات العقد الثاني أو كلَّه. ونحن الآن على مشارف العقد الثالث، الذي لا يمكن على وجه الدقة بيان على أي وجه سوف يكون «سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا». وهو ما نحاول سبر غوره في هذه المطالعة، وقد يخضع لعدد من السيناريوهات، بعضها معتم وبعضها واضح نسبيًّا. إلا أن هناك مؤثرات ومؤشرات قديمة وجديدة تفعل فِعلها في صيرورة الأحداث، وأيضًا هناك خطوات تحديثية تُسابق الزمن لتقتلع أسباب التذكر. ومن جانب آخر، هناك خُطط «تخريب» ممهورة بشعارات «ثورية» قائمة في المنطقة، تُقاوم مصالح الشعوب. أيضًا هناك خطط «تجبير» ما هو قائم وإصلاحه.

بين الخُطط البانية والخطط المُخرِّبة المختلفة، سباق سوف يربحه من يستطيع أن يقرأ الأحداث بشكل منطقي، ويضع الإجابات الصحيحة عن الأسئلة الكبرى القائمة، ويفهم مسيرة

التاريخ، ويدرس عن قرب تحولات النسيج الاجتماعي/الثقافي في هذه المنطقة، ويحدد المخاطر، ويستفيد من الفرص.

الأحداث الكبرى في العقدَين الماضِيَيْن هناك عدد من الأحداث الكبرى التي أثرت في إحداث المنخفضات السياسية المشاهَدَة اليوم، بعضها قديم ولا يزال مؤثِّرًا، وبعضها جديد «نسبيًّا»، والآخَر «مستَجِدّ». وجميع الأحداث لها مساهَمة بدرجة أو أخرى في تشكيل المشهد القادم في المنطقة. فمن القديم المؤثر والجديد الفاعل من الأحداث، نَذكر:

الأول ـ ما اتفقنا على تسميته بـ«القضية»، وأقصد القضية الفلسطينية، التي أرْسَت العديد من المظاهر السياسية ولا تزال تفعل، على رأسها وصول العسكر العربي إلى الحُكم[1]، تحت شعار «تحرير فلسطين». وقد ترك ذلك التطورُ «حُكم العسكر» نُدوبًا على وجه التطور الطبيعي المرجو في المنطقة ككُل. فكانت أُمَّ الثورات في مصر من خلال حركة الضباط الأحرار، ومن ثم «كَرَّت السُّبْحة» في معظم بلاد العرب المشرقية حتى المغربية، وجاء إلى السلطة «عسكر» ليس له مشروع واضح المعالم قائم على نموذج حديث. ومن هنا، دخلت المنطقة في صراع بين معسكرين مستقطَبَين. فزاد ذلك الاستقطاب من الخلاف الدولي بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي. ونتيجة مجموعة من المزايدات، هي أنه لا شيء من فلسطين تَحرَّر

(١) منذ ثورة العراق عام ١٩٣٦، إلى ثورة السودان وليبيا وتونس، مرورًا بثورة مصر عام ١٩٥٢ على اختلاف تعدُّد «الانقلابات العسكرية».

(بـل علـى العكـس تمـددت دولـة إسـرائيل)، وتَعثَّـر مشـروع حريـات الشـعوب العربيـة. ومـع الزمـن، لـم تَعُـد الشـعوب تهتـمُّ كثيـرًا بـ«القضيـة» حسـب اسـتطلاعات الـرأي[٢]، وأصبحـت شـعارًا فقـط. وفـي أحـداث مـا عُـرف بالربيـع العربـي لـم تُذْكـر تلـك القضيـة إلا لِمامًـا، بـل إن اسـتطلاعات الـرأي الأخيـرة تُجْمـع علـى أن «القضيـة» لـم تَعُـد تَحظـى باهتمـام الجمهـور العربـي، وقـد تراجعـت فـي الأولويـات[٣].

الثانـي ـ التدخـل فـي التأثيـر فـي المشـهد السياسـي العربـي، عـن طريـق «الثـورة الإيرانيـة» منـذ بدايـة ثمانينيـات القـرن الماضـي، والتـي تمـددت فعـلًا مـن الجانـب الملمـوس فـي العديـد مـن الـدول العربيـة تحـت ذرائـع مختلفـة، وأيضًـا تمـددت بمقولاتهـا فـي مجتمعـات أخـرى، وهـي لا تـزال تفعـل. تداعيـاتُ النسـخة الإيرانيـة علـى الحكـم، وهـي نسـخة لا تنشـدُ إقامـة دولـة حديثـة، بـل إقامـة سـلطة متوحشـة بِاسْـم الديـن تجـرُّ المجتمعـات إلـى الخلـف. فقـد أثَّـرت فـي الوضـع اللبنانـي حتـى أفشـلت الدولـة، وسـاندت أيضًـا حُكمًـا قمعيًّـا فـي سـوريا. وتحـاول التمـدد فـي اليمـن عـن طريـق ذراعهـا «الحوثـي»، الذي يحمـل أفـكارًا نُكوصيَّة غيـر قابلـة للتطبيـق فـي بدايـة القـرن الحـادي والعشـرين، الـذي

(٢) انظر دراسة جيمس وإليزابت وسارة ـ هوب الزغبي:
Looking to the Next Decade Arab,Turkish & Iranian Opinion,
بيـن ٢٥ آب (أغسـطس) و٢٦ أيلـول (سـبتمبر) ٢٠١٩، قـام فريـق الزغبـي للبحـوث بإجـراء هـذا الاسـتطلاع، والـذي نشـر فـي تشـرين الثانـي (نوفمبـر) ٢٠١٩. الكتـاب متوافـر عبـر الشـبكة.

(٣) - المصدر السابق.

يَتُوق أهله إلى الحرية والدولة المدنية العادلة. التمدد الإيراني مغموس في الرغبات القومية الإيرانية، ومُلبَّس بأفكار مذهبية، ويخلط خلطًا غير منطقي بين «حُكم إسلامي» بحسب ما يراه، وقمْعٍ مُجَدول بالإنابة عن «المعصوم». أصبح نائب المعصوم معصومًا، ليس له علاقة بالتفاعلات السياسية والاجتماعية على الأرض، وهو كما يدعي «مفوَّضٌ من السماء»؛ ما أدخَل المنطقة في إشكالية قد يطول حسمها.

الثالث ـ المكوِّن الثالث هو «الإسلام السياسي السُّنِّي»، وهو قديم جديد. لقد نشأت حركة الإخوان بعد الحرب العالمية الأولى في مصر، التي ساءَ بعضَ المحافظين فيها آنذاك سقوطُ الخلافةِ العثمانية في الأَسِتانة. فقرَّر منظِّرو الإخوان الأوائل السعي لإقامة «خِلافة»، باعتبار ذلك ردَّ فِعل ـ كما يقال ـ على سقوط الخلافة العثمانية. ولكن مشروعهم بسبب فقدان النموذج المعرفي الحديث أصبحت فيه قوتهم كقَوْس قزح، ليس فقط ملوَّنًا، بل ومتلونًا أيضًا في بيئات مختلفة. إلا أنه في الغالب يفتقد، مِثلَ الإسلام الشيعي، «أجندة حديثة لإدارة المجتمعات». هذه الكتلة المتنوعة متكئة على الإسلام، ومستفيدة من خلو الساحة من منافسين سياسيين حداثيِّين، هي كتلة يجب عدم الاستهانة بها. صحيحٌ أنها فشلت في مصر سريعًا إبَّان حكم محمد مرسي، وفشلت في السودان بعد مدة طويلة نسبيًّا من الحكم[٤]، حيث قسَّمته إلى

(٤) لقد أورثت مجموعةً من الحروب أيضًا، مثل فصل السودان الجنوبي، وإشعال عددٍ من الحروب في الشمال.

قسـمين، وأشـعلت شـمالَه وجنوبَـه عـددٌ مـن الحـروب الأهليـة. إلا أنَّ جـزءًا مـن ذلـك المكـوِّن يشـارك فـي الحُكـم فـي تونـس، والمغـرب أيضًـا، ولـه امتـدادات تنظيميـة فـي كل مـن ليبيـا والكويـت والبحريـن، ومجموعـات نائمـة فـي دول أخـرى. هـذه الكتلـة «علـى تنوُّعهـا» فـي قـوس قـزح كبيـر سـوف تظـلُّ فاعلـة فـي العقـد القـادم فـي المشـهد السياسـي العربي، بسـبب فقر في نوعيـة التعليـم مـن جهـة، وفقـر فـي المناعـة المعرفيـة مـن جهـة أخـرى؛ مـا جعـل قطاعـات واسـعة فـي النسـيج العربـي تتبعهـا، إمَّـا جهـلًا أو تكسُّـبًا سياسـيًّا. ولكـن الجميـع يتغـذى بمسـتوًى علمـيٍّ ضعيـف، لـم تكـن بعـض الإدارات السياسـية بعيـدة عنـه. لذلـك، سـوف تظـل تلـك المجاميـع قائمـة دون فاعليـة، وتعمـل علـى تعويـق التحديـث، ولا تُقـدِّم بديـلًا عنـه، بسـبب قصـور فـي المفاهيـم والنمـاذج المعرفيـة لـدى الجماعـة.

هـذه الثلاثيـة (فلسـطين، والنمـوذج الإيراني، والنمـوذج الإخواني)، علـى مـا بينهـا وفيهـا مـن تضارُب فـي المفاهيـم واختـلاف فـي الأهـداف، سـوف تظـل فاعلـة فـي المشـهد السياسـي العربـي فـي العقـد القـادم، مـن خـلال جماعـات وتجمعـات ودول تـرى فـي اسـتمرار تلـك الشـعارات تحقيـقَ أهـدافٍ لهـا.

الموقـف الأميركـي سـوف تبقـى الولايـات المتحـدة مؤثِّـرة فـي تشـكيل الأحـداث بشـكل كلـي أو جزئـي فـي الشـرق الأوسـط، فهـي أكثـرُ وُجـودًا علـى الأرض، وهـي صاحبـة المصلحـة الكبـرى فـي الدفـاع عـن الأمـن والسِّـلم، ثـم إنهـا مفتـاح السـلام أو الحـرب فـي المنطقـة، إلا أنهـا تعانـي «أمراضًـا سياسـية» خطيـرة قـد تؤثِّـر

في فعاليتها. من هنا، تَظهر أهمية تشريح الموقف السياسي الأميركي، وتأثيره في العقد القادم على الخليج.

ترامب: جعجعة بلا طِحْن انفجرت في الولايات المتحدة مجموعة من القضايا السياسية، منها قضية السفير البريطاني في واشنطن منذ أشهر، وهي غير مسبوقة في الدبلوماسية العالمية، ثم قضية النائبات الأربع من الحزب الديمقراطي ذوات الأصول المشرقية في مجلس النواب الأميركي، اللاتي اتَّهمُنَّ ترامب تقريبًا بـ«الخيانة»، والأخيرة قضية تقديم الرئيس دونالد ترامب إلى محاكمة سياسية حول أحداث أوكرانيا[٥]. والطرف المقابل في كل تلك القضايا هو السيد دونالد ترامب، وهي جزء من سلسلة الأزمات المتجددة التي واجهها الرئيس الأميركي. الأزمة الأولى دولية، ومع أقرب حليف للولايات المتحدة تاريخيًّا؛ والثانية داخلية تجاه صلب التكوين الشعبي الأميركي المكوَّن من مهاجرين، وهو ما دفَع مجلسَ النواب إلى إدانة الرئيس بالعنصرية؛ والأخيرة هي ما جعل مجلس النواب يفتح تحقيقًا قد يؤدي إلى عزل الرئيس أو التأثير في إعادة انتخابه عام ٢٠٢٠[٦].

ذلك غيض من فيض من الأحداث التي ارتكبها الرئيس الأميركي، لِما يمكن أن يلاحَظ في حده الأدنى من عدم

(٥) سبب المحاكمة اتِّهامُ الرئيس باستخدام السلطة لمصلحة انتخابية.

(٦) الرئيس الأميركي في تصرفاته مُحيِّر للحلفاء والأعداء على السواء، فهو في بعض تلك التصرفات يبدو «متنمِّرًا»، خاصة على الحلفاء التاريخيين للولايات المتحدة، وعلى الأخص دول الخليج العربي.

انتظـام سياسـي مُعيـق ومقلـق. السـيد ترامـب لـه معـارك أخـرى خارجيـة مـع الحلفـاء والأعـداء، وربمـا يسـير علـى عكـس القـول الشـعبي الأميركـي الذائـع: «قبْـل أن تَدخـل معركـة عليـك حسـاب التكاليـف». يبـدو أن التكاليـف السياسـية البعيـدة المـدى هـي آخـر مـا يفكـر فيـه سـاكن البيـت الأبيـض، وقـد أثَّـرت تصريحاتـه تجـاه المنطقـة سـلبيًّا، حيـث «زلَّ لسـان الرئيـس بعبـارات غيـر لائقـة» سـبّبت خدوشًـا نفسـية ووتّـرت العلاقـات بيـن الإقليـم والإدارة الحاليـة.

ليـس مـن السـهل لأيٍّ مُتابع لتغريدات السـيد ترامـب وقراراته، أن يدَّعـي أنـه يعـرف «السِّـمة» الترامبيّـة التـي يسـير عليهـا الرئيـس. فهـي سِـمة سياسـية وشـخصية غيـر قابلـة للتفسـير أو المعرفـة أو حتـى التوقـع، قبْـل سـبر عـدد مـن الوقائـع الحاليـة والتاريخيـة. تَسـرَّع بعضهـم وقـال: إنهـا «سِـمة» رَجُـل الأعمـال، ولكـن ذلـك الرجـل لا يمكـن أن تُفسَّـر تصرفاتـه بعقلانيـة، ولا يمكـن التنبـؤ بالكثيـر منهـا. الأكثـر قربًـا إلـى التفسـير المعقـول قَـولان: الأول منهمـا إن القـوة الأميركيـة تَفقـد «زخمهـا» فـي العالـم، وتتخلـى تدريجيًّـا وبشـكل غامـض عـن القيـم الديمقراطيـة العميقـة التـي نشـأت عليهـا واسـتطاعت تسـويقها علـى مـدى قـرن وأكثـر. والقـول «الثانـي» إن القـوة الأميركيـة تتخلـى عـن الدفـاع عـن منظومـة الاسـتقرار العالمـي.

يمكـن معرفـة السِّـمة الترامبيـة مـن التبصـر فـي معادلـة «عـدم الكفـاءة فـي اسـتخدام القـوة الخشـنة فـي العقـود الأخيـرة، والنقـص الفاضـح فـي اسـتخدام القـوة الناعمـة».

ترامب هو التجسيد الأكثر إيضاحًا لها، ولكنه لم يصنعها وحده، إذ تكونت خلال أكثر من عقد نتيجة التحديات العالمية التي تواجهها الولايات المتحدة، وهي اليوم تتفوق على ما سبقها من تحديات. أمام الولايات المتحدة أربعة على الأقل من التحديات الكبرى: أوَّلها اضطراد نموِّ الصين بوصفها قوة عظمى اقتصادية، وسرعان ما سوف تتحول إلى قوة سياسية وتُزاحم المصالح الأميركية، وهي الآن قريبة إلى التفوق حتى التقني. التحدِّي الثاني حركاتُ العنف ذات المتَّكَأ الإسلامي، من بوكو حرام إلى داعش، مرورًا بإيران وأفغانستان وما يشبههما، وهي حركات شجَّعَت الولايات المتحدة بعضًا منها عندما كانت في صراع مع الاتحاد السوفيتي، ودُون كثير من الحساب للعواقب، وهي اليوم تسمَّى «إرهابًا» دوليًّا بالغ الخطورة. التحدِّي الثالث هو السباق في الفضاء الخارجي المتنامي والمكلف. والتحدي الرابع معارك الفضاء الإلكتروني المتزايد الخطورة، والذي سوف يصبح شاغلًا للدول في العقد القادم، لأنه يمكن أن يكون بديلًا لكل آلات الحرب المعروفة منذ بدء التاريخ. لا يبدو أن إدارة ترامب لديها وضوح في كيفية مواجهة التحديات الكبرى، فهي في صراع مع الصديق والعدو على حد سواء. والأساس أن الولايات المتحدة، منذ مدة ليست قصيرة، غيْرُ قادرة أو ربما غيْرُ راغبة في استخدام «القوة الخشنة». تلك الحقيقة ليست خاصة بالإدارة الحالية، ولكن أيضًا بما قبْلها، بسبب «متلازمة حرب أفغانستان والعراق»، التي

أثَّـرت سـلبًا فـي الـرأي العـام الأميركـي، وأيضًـا بسـبب التـراث السياسـي الأميركـي القائـم فـي الغالـب علـى النـأي بالنفـس.

المشـكلة ليسـت هنـا، ولكن المشـكلة الكبـرى أنها لم تَعُد تُحْسـن اسـتخدام «القـوة الناعمـة» أو إدارتهـا، والتـي كانـت تسـمى فـي وقـت مـا «القيـم الأميركيـة العميقـة». فحـادث السـفير مـن جهـة، والنائبـات مـن جهـة أخـرى، والقضيـة النابعـة مـن «مُلابَسـات أوكرانيـا»، تُنبـئ جميعُهـا بعـدم تسـامُح، وعـدم قبـول الآخـر فـي الثقافـة السياسـية لـلإدارة الحاليـة، وهمـا عنصـران مهمـان فـي القـوة الناعمـة الأميركيـة. منـذ أن تحـدَّث ثيـودور روزفلـت (نائـب الرئيـس وقتهـا فـي أيلـول (سـبتمبر) ١٩٠١) فـي مطلـع القـرن العشـرين، إلـى حشـد مـن مؤيِّديـه قائـلًا: «تَحـدَّثْ بِلِيـن واحْمِـلْ عَصًـا غليظـة»، بعـد ذلـك الخطـاب بأيـام، قُتـل الرئيـس وليـام ماكينلـي، وأصبـح روزفلـت رئيسًـا للولايـات المتحـدة، وبـدأ بتحقيـق ذلـك الشـعار علـى الأرض، وبتكويـن القـوة العسـكرية الأميركيـة، حامـلًا شـعار «أميـركا أُمَّـة عظيمـة». فالشـعار الـذي يتبنـاه ترامـب اليـوم ليـس جديـدًا. الفـرق بيـن ترامـب وروزفلـت أن شـعار الأخيـر تَحـوَّل إلـى منهـاج عمـل سياسـي فـي الداخـل والخـارج، أدى باختصـار إلـى أن يكـون القـرن العشـرون «قرْنًـا أميركيًّـا». وفـي بدايتـه تدخَّلـت أميـركا عسـكريًّا فـي أميـركا الجنوبيـة، ثـم خاضـت حروبًـا كبـرى. فـكان قرنًـا مُكلفًـا فـي الأرواح والمـال، وقـرْنَ الهيمنـةِ الـذي كلَّـف أميـركا سـبعمائة ألـف قتيـل ومليـون جريـح تقريبًـا فـي حـروب عديـدة، منهـا حربـان عالميتـان، واثنتـان مُنهِكتـان فـي فيتنـام وأفغانسـتان. تَمخَّـض عـن

كل ذلك فكرةٌ سياسية تبلورت في عهد السيد رونالد ريغان، وهي: «عَظِّمْ من القوة العسكرية والتقنية بشكل طاغٍ، حتى تصل إلى درجة تعدم عندها الحاجة إلى استخدام القوة».

العصا الغليظة أو حرب النجوم، بحسب ما عُرفت شعبيًّا في تلك الحقبة، آتَتْ أُكُلَها بانهيار الاتحاد السوفيتي، ولكنها لم تُنْهِ الحروب، خاصة في فضاء عالمي تنمو فيه قوًى اقتصادية هائلة (مثل الصين والهند)، وأخرى غير منضبطة. على الأقل في العقد الأخير (في عَهْدَي أوباما وترامب)، واجهت أميركا نفس المعضلة التي واجهتها عند البدء، حيث هاجر أسلافُ الأميركيين من أوروبا المشتعلة بالظلم والحروب، هربًا من الاستبداد والمذابح، ولكنهم تعلَّموا بسرعة أن النأي بالنفس لا يَعني عالَمًا مستقرًّا، فاشتركوا من جديد في حروب أوروبا أو في حروب لحسابهم، إلّا أن بعضها، خاصة في فيتنام وأفغانستان وأخيرًا العراق، أحرق أصابع الدَّاعِين إلى الحرب، فتَكوَّن ما سمَّته بعض الدراسات الأميركية «سندروم الحرب»، أي الابتعاد ما أمكن عن خوض الحروب.

إنّ عدم استخدام القوة الخشنة يعني تَراجُع هيبة الولايات المتحدة. فقد أسقطت إيران طيارة مُسَيَّرة ثمينة(٧) دون ردِّ فِعلٍ أميركي(٨). ثم إن تراجعها عن «القيم العظيمة» أفقدها القوة الناعمة، وما بقي هو شيء مما يمكن أن يسمى

(٧) أُسقطت الطائرة في ٢٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٩.

(٨) من أقوال الرئيس ترامب آنذاك إنه كان يُعِدُّ ضربةً انتقامية، ولكنه عَلِم أن ذلك سوف يُسقط ضحايا، فتراجَع.

«الاستبداد الديمقراطي». صحيحٌ أنه تناقُض في المفهوم، ولكنه مُعبِّر من خلال تلك الشَّعبوية التي تريد أن تعيد أميركا عظيمةً من جديد، إلا أن ثمن العظَمة هذه المرة هي الشعبوية، لا الانتصار في حرب، ولا الدفاع عن قيم إنسانية نبيلة. جزء من المعضلة التي يواجهها عالَمُنا وبقيةُ العالم، أن الصيرورة لا تتوقف هنا، أي إمّا حرب وإمّا سِلْم، وإمَّا أن يكون هناك نظام عالمي قادر على بسط السلام، وتعظيم احترام قواعد اللعبة الأُممِيّة المتمثلة بالقانون الدولي، وإمّا الفوضى. ذلك ما يُقلق في «جعجعة» السيد ترامب. فالقيادة تأخذ أشكالًا مختلفة، ولكل قيادة خصوصيتها، والقيادة الأميركية ليست استثناءً، ولكنها دائما تحتاج إلى «القوة العسكرية» لتكُون مكوِّنًا رئيسًا منها.

تَردُّدُ ترامب وإدارتِه، وتَوَهانُهما المشهودان، دليلان من أدلة أخرى على غياب «السِّمة». إنَّ إعلان الانسحاب من شمال سوريا ثم العودة عنه جزئيًّا، وتناقُض الموقف مع كوريا الشمالية، والذي كلَّف الإدارة ربما خسارة أفضل وزير دفاع في التاريخ المعاصر[٩]، كُلُّه يُفصح عن وجود خلطٍ ضبابي لدى الإدارة، يُفرق بين «الحفاظ على المصالح الأميركية» بحسب ما تفهمها الإدارة، و«الحفاظ على السِّلم العالمي» بحسب ما يرجوه العالم. وحينما يتبيَّن للإدارة أن الحفاظ على السِّلم العالمي جزء لا يتجزّأ من المصالح الأميركية، وأنهما

(٩) المقصود: جيمس ماتيس وزير دفاع أميركا.

متشابكان، فعند ذلك فقط تُثمر الجعجعة طِحْنًا. ولكن، ذلك لا يبدو قريبًا. لذا، فإن الاعتماد على الولايات المتحدة لبسط السلم في الخليج أصبح اعتمادًا مشكوكًا فيه. ومِن ثَمّ، يجب أوّلًا رأب الصدع الخليجي في العقد القادم، ثُمَّ التحول إلى بناء مشروع متكامل للحفاظ على السلم والأمن في الخليج، نابعٍ أولًا من شعوبه، مع الاحتفاظ بعلاقات إيجابية بأكثر ما يمكن من القوى في العالم.

الرؤية الاستشرافية للعقد القادم على الرغم من الحرائق المشتعلة حول الخليج، وبعضها يمسُّ دولَهُ أو أغلبَها مسًّا مجاورًا ومكلفًا، فإنَّ دول الخليج حتى الآن حافظت على السِّلم والتنمية في فضائها المباشر. إلا أن ذلك لا يمنع من التفكير في أن «عدم الإخلال بالسِّلم» في الخليج ليس مضمونًا، لأن هناك عوامل أخرى قد تُحدد ذلك، منها الصراع المحتدم بين الولايات المتحدة وإيران. وقد يتطوَّر ذلك الصراع إلى حرب ساخنة في العقد القادم، وذلك يعني الإضرار الكبير في تصدير النفط الذي تَعتمد عليه ميزانيات دول الخليج. ثم إن هناك احتمالًا «ولو ضئيلًا» وهو نشوء مطالَبات من تأثير الضغط الاجتماعي، أو من تأثير عدم التحرك بالسرعة الكافية في الإصلاحات المطلوبة.

إذًا هناك عدد الاستحقاقات مطلوب من دول الخليج معالجتها. فهناك إصلاحات واجب التفكير فيها في الدولة الخليجية، وقد جرى بعضها بنجاح، مثل إصلاحات المملكة العربية السعودية في القطاعين: الاجتماعي (وخاصة ما يتعلق منه

بتحريـر إمكانيــات المــرأة الســعودية)، والقطــاع الاقتصــادي الــذي يُــدار بكفــاءة. إلا أن هنــاك اســتحقاقًا سياســيًّا فــي بقيــة دول مجلـس التعـاون الخليجـي، تجـب العنايـة بـه فـي القريـب العاجـل أو المتوسـط مـن أجـل إكمـال مسـيرة الإصـلاح. فـي بقيـة دول الخليـج، تشـتكي مجتمعاتهـا مـن «تفشِّـي» ظاهـرة «الفسـاد»، وهـي ظاهـرة تسـتهلك مـن رأس المـال السياسـي للنُّخـب. والحديـث فـي اسـتئصال الفسـاد دون خطـط تُنفَّـذ علـى الأرض يزيدهـا سـوءًا، ويزيـد الشـارعَ توتُّـرًا. فهـي أحـد المنقِّصـات للتنميـة المسـتحقة.

الإدارة الرشـيدة عامِـل مُهـم أيضًـا فـي الإصـلاح العـام، ويصاحبهـا قوانيـن حديثـة عادلـة فـي التسـاوي، وتتوجـه إلـى المأسسـة. بذلـك، تُسـحب الذرائـع مـن القـوى التـي ترغـب فـي أن تُحْـدث شـرخًا اجتماعيًّـا فـي الدولـة الخليجيـة المعاصـرة، مسـتفيدةً مـن بعـض المثالـب. مـن جانـب آخـر، نحتـاج إلـى معالجـة شـجاعة للخلافـات الخليجيـة «المعلَنـة والصامتـة»، حيـث نَقلـع أسـباب التوتـر مـن الفضـاء السياسـي الخليجـي، ونمضـي سـريعًا إلـى «سـوق خليجيـة موحَّـدة»، مـن أجـل أن يشـعر المواطـن بـأن انتمـاءه إلـى الإقليـم فيـه فائـدة مباشـرة لـه. لقـد عمـل مجلـس التعــاون علــى الكثيــر مــن المؤسســات الجماعيــة، وهــي الآن تحتـاج إلـى أن تتحـول مـن «كـمْ» إلـى «كيـف»، مـن خـلال ترقيـة عمـل الأمانـة العامـة مـن سـكرتارية إلـى مفوَّضيَّـة، تُطبـخ فيهـا «بالتعـاون مـع أهـل الخبـرة في الخليـج» الخطـطُ المكمِّلـة لِلُّحمة المنشـودة. مـن نافلـة القـول إن التهديـدات التـي يواجههـا أمْـن

الخليـج سـوف تبقـى، وربمـا تتعاظـم فـي العقـد القـادم، وهـي تهديـدات جـادة قادمـة مـن نتـاج الحرائـق فـي الإقليـم المحيـط. لذلـك، فـإنَّ «شـدَّ العصـب» الخليجـي فـي العقـد القـادم، هـو أكثـر مـا نحتـاج إليـه لاسـتقرار دول الخليـج ونموِّهـا وتَقدُّمِهـا.

فـي الداخـل الخليجـي هنـاك شـعور لـدى كثيريـن، بـأن إعـادة النظـر الجـادة فـي التعليـم «كمًّـا وكيفًـا»، هـي أحـد العناصـر التي لا تَنتظـر. فنظـام التعليـم القائـم بشـكل عـام قـد فقَـد قدرتـه علـى إخـراج جيـل يمكـن أن يتعامـل مـع المسـتقبل. وتقـول لنـا الدراسـات العالميـة: إن ٦٥٪ علـى الأقـل مـن الداخلين فـي التعليم فـي العقـد القـادم، سـوف يعملـون فـي وظائـف ليسـت موجـودة اليـوم. وتلـك حقيقـة موضوعيـة مـن الواجـب وضعهـا فـي قمـة الأولويـات، تتطلَّـب منـا إعـادة الزيـارة لمؤسسـة المدرسـة، التـي كانـت فـي الجيـل السـابق مكانًـا للإشـعاع. أمـا اليـوم، فهـي مـكان لاسـتقبال الضغـوط، وخاصـة الفكريـة. المطلـوب هـو الحـث علـى التفكيـر النقـدي والابتـكار، ومتابعـة التكنولوجيـا التـي أصبحـت تَفُـوق كثيـرًا التعليـم والتدريـب المتاحَيـن فـي منطقـة الخليـج اليـوم. فيُتوقـع مـن العمَّـال ذوي المهـارات المنخفضـة اسـتخدام التكنولوجيـا، لتحقيـق قـدر أكبـر مـن الإنتاجيـة؛ إذ إنَّ توظيـف العمـال ذوي المهـارات العاليـة فـي مجـالات اختـراع منتجـات ومزاولـة خدمـات جديـدة، سـيكُون قيمـةً مضافـة إلـى الاقتصـاد.

الخلاصـات يتجـه الإقليـم إلـى مرحلـة غمـوض كبيـر، نتيجـة: الصـراع «الإيرانـي ـ الأميركـي»، والتدخـل الروسـي ـ التركـي، وصراع الأضـداد فـي العـراق، وضعـف القـرار الأميركـي أو ارتباكـه، وغيـاب

القرار الأوروبي، وحياد الموقف الصيني، وتفكُّك الموقف الخليجي البطيء الإصلاحات؛ ما يشكل الكثير من التحديات في العقد القادم لدول الخليج.

وقد تَجِد الدبلوماسية الإيرانية نفسها «مرتاحة» جزئيًّا أو مضطرة، فتقوم بعدد من المناورات الدبلوماسية، منها الإعلان المكرَّر لرغبتها في «التفاوض مع دول الخليج بشرط الاتفاق على إخراج القوات الدولية منه»[١٠]. وفي نفس الوقت تقوم بتهديد بعض دول الخليج (كما في توصيف الإمارات بأنها مُدُن من زجاج)[١١]، أو تحاول تحييد بعض دول الخليج الأخرى للاستفراد بالمملكة العربية السعودية.

تحاول بعض الدول التوسط بين الولايات المتحدة وإيران حيث فشلت محاولة ماكرون الرئيس الفرنسي الأخيرة، في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، لِجَمْع ترامب مع روحاني[١٢]، مع قبول الأول وترحيبه. أمّا المبادرة العمانية فغيْر واضحة، وغير ناجحة حتى الآن. وسوف تقوم بعض القوى الإقليمية بعمليات «شبه إرهابية»، ثم تدَّعي أنَّ طرفًا ثانيًا قد قام بهذه العملية (مثل عملية بقيق شرق السعودية، وعملية الباخرة الإيرانية في البحر الأحمر). ولا يُستبعد أن تقوم «حرب الصدفة» بين طرفَين أو أطراف دون أنْ يُخطَّط لها،

---

(١٠) مِثل: مبادرة هرمز الأخيرة من إيران.

(١١) بحسب ما يُردِّد زعيم حزب الله اللبناني، وهو الذراع «العربي» الأهمّ في تنظيم الهجمة الإيرانية على الجوار.

(١٢) في أيلول (سبتمبر) ٢٠١٩.

ولكـن تقودهـا الأحـداث الصغيـرة إلـى تلـك الحـرب. إنَّ أحـداث العـراق واليمـن وسـوريا سـوف تبقـى جروحًـا نازفـة علـى المـدى المنظـور، والتطـورات الأميركيـة الداخليـة قـد تأتـي بنتائـج غيـر متوقعـة فـي أشـهر تقـود إلـى انتخابـات عامـة، قـد لا يكـون فيهـا الرئيـس الحالـي طرفًـا فيهـا. ذلـك احتمـال لا بـد مـن التفكيـر فيـه.

أمـام كل تلـك التحديـات، يحتـاج الخليـج إلـى ديناميكيـة مختلفـة عــن الماضــي، تنظـر إلــى التحديــات، وتُقيِّــم الفُــرص، وتضــع الخطـط، مـن أجـل مواجهـة متغيـرات فـي العقـد القـادم، غيْـر محسـوبةٍ اليـوم.

٢ كانون الثاني (يناير) ٢٠٢٠

٧

سياسة ترامب الخارجية شخصانية وشعوبية يصعب التنبُّؤ بمستقبلها

بريطانيا أميركا الخليج خمسة وسبعون عامًا تمرُّ هذا العام على بدء انطلاق العلاقات بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، وهي علاقات امتدت بعد ذلك إلى دول الخليج بشكل تدريجي، حتى وصلت إلى مرحلة متقدمة في الربع الأخير من القرن العشرين وما بعده. وعلى الرغم من أن العلاقات الخليجية ببريطانيا العظمى في السابق كانت أطول زمنًا، إلا أن العلاقة بين دول الخليج وأميركا رغم قصرها النسبي كانت أكثر عمقًا. بريطانيا كان أكبر همِّها في معظم سنوات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حتى مدة طويلة، حماية خطوط الاتصال مع مستعمراتها في الهند، ثم تدخلت في الشؤون الداخلية الخليجية بحسب ما تَفرضه مصالحها، خاصة في دول مُطلَّة على الخليج عند الضرورة فقط. كانت فكرة «السلام في البحر» هي هاجسها الأول منذ سنوات القرن التاسع عشر، والتي أنتجت مجموعة من المعاهدات بين «حكومة الهند» ومشيخة «دول» الخليج، منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر حتى نهايته[1]. أما

---

(١) آخِر معاهدة وقَّعت عليها بريطانيا مع شيوخ الخليج، كانت في عام ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك الصباح في الكويت، وكانت سِرِّيّة ثم أُعلِنت بعد ذلك.

الداخـل، فلـم يكـن يُشـكل اهتمامًـا كبيـرًا لـدى الإمبراطوريـة البريطانيـة وحكومـة الهنـد المسـؤولة عـن العلاقـات فـي الخليـج، مـا دامـت الأحـداث الداخليـة لا تهـدد السـلامة والأمـن فـي بحـر الخليـج.

الحـرب العالميـة العظمـى الأولـى (١٩١٤-١٩١٨)، وسَّـعت تدخُّـل بريطانيـا فـي شـؤون المنطقـة بشـكل أكبـر بسـبب هزيمـة الإمبراطوريـة العثمانيـة، فأصبـح لهـا وجـود سياسـي فـي العـراق وشـرق الأردن، وجنوبًـا فـي عـدن، وامتـدّ نفوذهـا إلـى إمـارات سـاحل اليمـن الجنوبـي. أيضًـا تعاملَـت بشـكل أكثـر نشـاطًا مـع شـؤون الجزيـرة العربيـة فـي نفـس الوقـت، وأصبـح للمصالـح البريطانيـة أهـدافٌ اقتصاديـة إلـى جانـب الحفـاظ علـى السـلام والبحـث عـن النفـط واسـتخراجه، الـذي أصبـح مهمًّـا للأسـطول البريطانـي، لا سـيّما بعـد اكتشـافه فـي شـمال غـرب إيران وشـمال العـراق والبحريـن. فـكان لشـركائها النصيـب الأوفـر فـي نفـط كل مـن العـراق وإيـران، حتـى البحريـن والكويـت فـي وقـت لاحـق. أمـا المملكـة العربيـة السـعودية، فلـم تنجـح فيهـا المحـاولات البريطانيـة لاستكشـاف النفـط، مـا دفَعهـا إلـى السـماح للشـركات الأميركيـة بالعمـل فـي أراضيهـا، والتـي اكتشـفت تباعًـا النفـط فـي شـرق الجزيـرة، ثـم أسَّسـت شـركة أرامكـو[٢]. ومـن هنـا، نمـت العلاقـات بيـن المملكـة والولايـات المتحـدة. بعـد إعـلان بريطانيـا الانسـحاب مـن «شـرق السـويس» فـي سـتينيات القـرن العشـرين،

(٢) Arabian-American Oil Company شـركة الزيـت العربيـة ـ الأميركيـة، التـي أصبحت سعودية بالكامل في وقت لاحق.

تَزايـد الوجـود الأميركـي فـي منطقـة الخليـج سياسـيًّا واقتصاديًّـا حتـى عسـكريًّا، وهـذا الأخيـر كان فـي البدايـة Beyond the Horizon «خلْـف الأفـق»، وبعـد ذلـك ونتيجـة للظـروف المسـتجدة أصبـح وجـودًا فعليًّـا علـى الأرض[٣].

العلاقـات الدبلوماسـية المراقـب للعلاقـات الدبلوماسـية بيـن الولايـات المتحـدة ودول الخليـج، وعلـى رأسـها المملكـة العربيـة السـعودية، يلاحِـظ أنهـا لـم تكـن تسـير فـي اتجـاه واحـد وإن حافظـت فـي كل الظـروف علـى الحـد الأدنـى، إذ كانـت المصالـح والاجتهـادات الدوليـة والإقليميـة تَقـرب مـن تلـك السياسـات فـي وقـت، وتبتعـد عنهـا فـي وقـت آخـر. كان الخـلاف الـذي اتُّفـق علـى أن يبقـى خلافًـا لا يضـر بالمصالـح الأخـرى، هـو النظـرة إلـى الوجـود الإسـرائيلي وقيـام دولـة إسـرائيل وهضـم الحقـوق الوطنية الفلسـطينية. لقـد كان مؤسّـس الدولـة السـعوديّة الثالثـة الملـك عبد العزيـز بـن عبد الرحمـن رحمـه اللـه، لـه موقـف واضـح مـن ذلـك، وعلـى طريقـه فـي هـذا الملـف سـار كل ملـوك المملكـة. فـي بعـض الأوقـات كان يحـدث «صـدام مصالـح» فـي هـذا الملف بالـذات، كمـا حصـل عندمـا قـرّر المغفـور لـه الملـك فيصـل منـع بيـع النفـط لـدول عديـدة إبَّـان الصـدام العربـي ـ الإسـرائيلي فـي حـرب عـام ١٩٧٣، واسـتمر نشـاط المملكـة فـي هـذا الملـف علـى سـيرته، رغـم إغضـاب بعـض القـوى الأميركيـة فـي الداخـل الأميركـي. أمـا فـي الملفـات الاقتصاديـة والسياسـية الأخـرى، فقـد

(٣) خصوصًا بعد الاحتلال العراقي للكويت عام ١٩٩٠.

انسجمت السياسات «الأميركية والخليجية، وأيضًا السعودية» إلى حد بعيد، مثل محاربة «المد والتوسع الشيوعي» في ثمانينيات القرن العشرين. وقد ظهر ذلك التوافق في الملف الأفغاني إبَّان الاحتلال السوفيتي لذلك البلد.

في الغالب، في العقود الأولى من العلاقات الأميركية ـ الخليجية، كانت مساحة «الاتساق» في السياسات الخارجية أكبر من مساحة «الافتراق»، ولكن في العقود الأخيرة اتسعت مساحات الافتراق بسبب الملفات السياسية والاقتصادية المستجدة. أمّا الاتساق الكامل، فحدث في ملف أفغانستان، وفي ملف تحرير الكويت عام ١٩٩١. وما إن بزغ القرن الواحد والعشرون حتى ضَربت تلك العلاقات مجموعةٌ من العقبات، سببها زلزال تَمثَّل باعتداءات أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، التي شارك فيها العديد من أبناء الخليج. طبعًا ذلك أثَّر قليلًا في العلاقات، ولكنه أثَّر أكثر في النظرة الأميركية الشعبية إلى منطقة الخليج وتركيبتها السياسية. إنّ ملف ١١ أيلول (سبتمبر) مملوء بالثغرات، ويحتاج إلى من يعيد البحث والتنقيب فيه؛ إذ أثَّر في وقته وفي وقت لاحق (خاصة إبان حكم باراك أوباما (٢٠٠٨ -٢٠١٦) في متانة العلاقات، حيث انتقلت السياسات في البيت الأبيض تجاه رؤساء الخليج من حلفاء إلى أصدقاء، ووجَّهت لهم انتقادات بعضُها مبالَغ فيه. فبعد أن كان مبدأ الرئيس ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة (١٩٦٩- ١٩٧٤)، والذي اكتوى بنتائج حرب فيتنام التي امتدت عشرين عامًا (١٩٥٥- ١٩٧٥)، وأَطلَقت

تغيرات كبيرة في النسيج السياسي والاجتماعي في الولايات المتحدة، ومحصَّلتُها مقاومة التدخل الأميركي العسكري في الخارج، عندها خرج نيكسون بما سُمي لاحقًا بمبدأ نيكسون في الخليج، أي الحفاظ على أمن هذه المنطقة الحيويّة واستقرارها. فوجب الاعتماد على «العمودَين» إيران الشاه والمملكة العربية السعودية. ولكنَّ هذَين «العمودين» رغم محاولات إحداث انسجام بينهما، كانا مختلفين في الرؤى في ملفّات كثيرة. ففي عام ١٩٧٥ جرت محاولة ما سُمِّي بـ«مؤتمر مسقط» لترتيب أمر أمن الخليج، الذي حضرَته إيران والمملكة ودول الخليج والعراق، لكنَّ عقْد المؤتمر انفرط لخلاف كبير بين منظور إيران ومنظور العراق إلى أمن الخليج.

التغيرات الرئيسية حصلت مجموعة من التغيرات في الربع الأخير من القرن العشرين، أثَّرت في استراتيجية العلاقات بالولايات المتحدة، أوَّلُها حدوث انقلاب ضخم وكبير في إيران عام ١٩٧٩، غيَّر الكثير من التفاهمات التي حدثت بين دول المنطقة والولايات المتحدة، حيث اعتَبر النظامُ الإيراني الجديد أنَّ أعْدَى أعدائِه هو الولايات المتحدة «وحلفاؤها» (كما تسمِّيهم الأدبيات السياسية الإيرانية)، أي دول الخليج. بعد ذلك نشبت حرب ضروس بين العراق وإيران (١٩٨١- ١٩٨٨). وبسبب اعتقال النظام الإيراني لمجموعة من الدبلوماسيِّين والعاملين في سفارة الولايات المتحدة بطهران، ولأسباب ظهرت بعد ذلك، مثل الخلافات بين الحزب الديمقراطي الحاكم (جيمي كارتر) وغريمه الجمهوري، تعاملت الولايات

المتحـدة مـن خلـف الأبـواب مـع النظـام الإيرانـي فيمـا عُـرف بفضيحـة كونتـرا غيـت. وفـي نفـس الوقـت تعاملـت الولايـات المتحـدة مـع النظـام العراقـي الداخِـل فـي حـرب مـع طهـران، وظهـر ذلـك علـى سـطح تحليـلات المراقبيـن، وهـو أن الولايـات المتحـدة «مسـتفيدة» مـن الحـرب أو علـى الأقـل «تكيـل بمكيالَيـن»؛ مـا أضعـفَ مصداقيتهـا لـدى الحلفـاء.

ومـع دخـول القـرن الواحـد والعشـرين زاد اضطـراب العلاقـات تواتُـرًا وسـرعة؛ إذ كانـت اعتـداءات ١١ أيلـول (سـبتمبر) ٢٠٠١، كارثيـة علـى العلاقـات الخليجيـة والولايـات المتحـدة، ثـم جـاء النـداء المتصاعـد لـدى النخـب الأميركيـة بـ«الاسـتغناء عـن النفـط، الـذي كان مـن أولويـات أجنـدة بـاراك أوبامـا فـي انتخابـه أول مـرة عـام ٢٠٠٧». وقـد سـبق ذلـك النـداء الاحتـلالُ الأميركـي للعـراق عـام ٢٠٠٣، الـذي عارضتـه دول الخليـج، ووجـدت أنـه قـد يكـون كارثيًّـا علـى المنطقـة، حيـث جعـل إدارة بـوش الابـن تفتـح بابًـا خلفيًّـا مـع إيـران قبـل إجـراء العمليـات العسـكرية، وتَخضـع جزئيًّـا للشـروط الإيرانيـة، مـن أجـل أن تصـرف نظرهـا عـن عمليـة الاحتـلال. كلُّ ذلـك سـهَّل فـي وقـت لاحـق، عـن قصـد أو غيـر قصـد، تَغلغُـل النفـوذ الإيرانـي فـي ذلـك البلـد العربـي. ومـا لبثـت العشـرية الثانيـة مـن القـرن الحـادي والعشـرين أن جـاءت بمتغيراتهـا العميقـة، أي انـدلاع واسـع لمجموعـة مـن المتغيـرات الجذريـة فـي المنطقـة فيمـا سُـميت إعلاميًّـا بربيـع العـرب.

الولايـات المتحـدة الأميركيـة تحـت إدارة بـاراك أوبامـا أخـذت موقفًـا متعاطفًـا مـع تلـك الحَـرَاكاتِ الشـعبية الواسـعة، علـى

اعتبـار أنهـا اسـتحقاق تَأخَّـر مـن أجـل الحريـة والديمقراطيـة. فوقفـت الإدارة مـع الحـكام الجـدد، وهـم فـي الغالـب المجموعـات المنظمـة التـي قفـزت إلـى الحكـم فـي مرحلـة الفـراغ فـي بلـدان الثقـل العربـي، كمصـر التـي نجـح فيهـا الإسـلام السياسـي فـي استلام السـلطة فـي السـنوات التـي أعقبـت الحراك (٢٠٠١- ٢٠٠٣). لقـد كان ربيـع العـرب فـي الواقـع «ثـورة بـلا قيـادة»، فقفـزت الجماعـات المنظمـة لتقـود. وكان وصـول الإخوان المسـلمين فـي مصـر. هـذا وقـد عمّـت فوضـى فـي كل مـن ليبيـا وسـوريا، وبـرزت قـوًى رجعيـة فـي اليمـن.

الموقـف مـن إيـران إدارة أوبامـا فـي تحليلهـا للموقـف العـام فـي الخليـج، أخـذت جانـب مناصَـرة القـوى الجديـدة (معظمهـا دينـي)، وفـي نفـس الوقـت أرادت أن تصـل إلـى «ترتيبـات» مـع إيـران. وبعـد جهـود دبلوماسـية طويلـة نسـبيًّا توصلـت الـدول المفاوضـة وعلـى رأسـها الولايـات المتحـدة مـع إيـران، إلـى اتفـاق وُقِّـع فـي ١٥ تمـوز (يوليـو) ٢٠١٥، لتجميـد الأبحـاث النوويـة عشـر سـنوات[٤]. هـذا الملـف فجَّـر خلافًـا ظـلّ أخطـره مكتومًـا وخرجـت سـطحيّاته إلـى العلـن، بيـن الولايـات المتحـدة ودول الخليـج، إضافـة إلـى الملاحظـات التـي كانـت دول الخليـج تُوجِّههـا إلـى إدارة أوبامـا فـي موقفـه مـن «الربيـع العربـي»، إلـى

---

(٤) هذا ولم تَحضر أيٌّ من دول الخليج (مجتمِعةً أو عبر ممثّل عنها) تلك الاجتماعات، ولـم تتطـرق المفاوضـات إلـى التدخـلات الإيرانيـة فـي الجـوار العربي التـي تُزعزع الأمـن فـي المنطقـة، وتُطِيل الصراعات في كل من العراق وسـوريا واليمـن ولبنان، وتتدخـل أيضًـا فـي شـؤون الطائفـة الشـيعية فـي البحريـن والمملكـة والإمـارات.

جانب الموقف من إيران. طبعًا ردَّت الإدارة من جانب آخر في تصريحات رسمية، مُعلِنةً رغبتها في أن ترى سقفًا أعلى لدى دول الخليج في الحريات، خاصة تجاه المرأة وحقوق الإنسان والمشاركة، ورؤيتها لتدخُّل دول الخليج في مفاوضات مع إيران.

تلك ملفات شكلت عقبات دبلوماسية بين إدارة أوباما ودول الخليج العربية، وخاصة في موقفها تجاه قدرات إيران النووية، وتدخُّلات الأخيرة في الجوار العربي، في سوريا ولبنان والعراق، وعلى الأخص في اليمن والبحرين والسعودية والكويت. إنّ الخطر الإيراني غيْرُ مُعْطًى حقَّه لدى الإدارة الأوبامية، التي تُغامر بأمن الخليج وحلفائها التقليديين في سبيل استرضاء إيران.

إدارة دونالد ترامب والعلاقة بالخليج هناك نقاش بين المتابعين لمحاولة الإجابة عن سؤال مركزي، وهو: هل إدارة العلاقات الخارجية الأميركية «مؤسَّسِية»، أم خاضعة لـ«لشخصانية»؟ ذلك سؤال مركزي، ولكن يا للأسف لا توجد إجابة قطعية عنه. فهو في مكانٍ ما مؤسَّسِي، وفي مكان آخر شخصاني، ويعتمد على دعم ساكن البيت الأبيض للقرار الشخصاني أو للقرار المؤسَّسِي. في وضْع السيد ترامب وإدارته، يبدو أن «الشخصانية» هي أكبر من المؤسسية، ومؤشراتها واضحة، حيث استخدم الرئيس الأميركي «ترامب» تعبيرات وجُملًا تجاه رئيس الدولة في كوريا الشمالية، تتراوح بين الذم القبيح والمديح المبالَغ فيه، وأيضًا استخدم عبارات تجاه

دول الخليج خارجة تمامًا عن السياق الدبلوماسي، خاصة في ملفات تمويل القوات الأميركية والوجود العسكري الأميركي.

من ناحية، يبدو موقف ترامب العام من السياسات الإيرانية منسجمًا مع تقدير دول الخليج للتهديدات الإيرانية. فعند إسقاط الطائرة المُسَيَّرة الأميركية في ٢٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٩، نشَر الحرسُ الثوري فيديو لعملية الإسقاط إمعانًا في التحدي. ومن ناحية أخرى، يَظهر تقليصُ القوات الأميركية ومحدودية قدرتها على المساهمة في ضبط الحرب في شمال سوريا. وأخيرًا جاء سحْب القوات الأميركية من أفغانستان، بل التصريح العلني من رأس الدولة الأميركية بأنّ «طالبان يمكن أن تَحكم أفغانستان»، دون اعتبار للحلفاء الذين حاربوا مع الولايات المتحدة هناك. كل ذلك إلى جانب مؤشرات أخرى، يجعل المراقب يتفق مع القول إن السياسة الخارجية الأميركية في هذا العهد تميل إلى الشخصانية، وأيضًا تَحمل شيئًا من الشعوبية للداخل الأميركي. وهذا ما يثير القلق لدى الحلفاء.

الانتخابات الأميركية المقبلة من الجليِّ الآن، أن الانتخابات الأميركية في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢٠، سوف يخوضها شخصَان: دونالد ترامب عن الجمهوريين، وجو بايدن عن الديمقراطيين. أحدُهما سوف يصبح في كانون الثاني (يناير) ٢٠٢١ في البيت الأبيض. فماذا يمكن أن نتوقع من أيٍّ منهما تجاه دول الخليج والسياسات التي يمكن أن تُتَّبع؟ أولًا وُصول ترامب لن يكون مفاجأة، ولكن خسارته أيضًا ممكنة في ضوء التغيرات الاقتصادية الحادثة، وبالأخص تطوُّر وباء

كورونا في الولايات المتحدة[٥]، الذي سوف يؤثِّر في الاقتصاد بعُمق، وتكُون كل جهود السيد ترامب في هذا المجال قد ذهبت سدى. وأيضًا نرى موقفه تجاه الجائحة، والتي قلَّل من تأثيرها في البداية، ولم يكن مستعدًّا لنتائجها، إضافة إلى اعتقاد بعض الخبراء أن تلك الجائحة أحدُ أسبابها التغيرات المناخية، والتي نظر إليها السيد ترامب بخفة شديدة، إلى درجة انسحاب الولايات المتحدة من مقررات مؤتمر باريس للمناخ (أيلول (سبتمبر) ٢٠١٨).

في حال تخطي السيد دونالد ترامب كلَّ تلك العقبات، فإن المتوقَّع أن تَسير سياسته كما سارت في السابق تجاه الخليج، وتجاه العلاقات الأميركية الدولية (المَلْأَى بالمفاجآت). ومِن ثم يصعُب التنبؤ. فالآن، مِثل الحالة العراقية والحالة السورية وأيضًا اليمنية، سوف تبقى هاجس الإدارة القادمة. أما في حال فوز جو بايدن بالرئاسة وعودة الديمقراطيين، فإنَّ بَنْدول ساعة السياسة الأميركية سوف يتحول من أقصى اليمين (ترامب)، إلى الوسط أو إلى يسار الوسط. فهناك تراث سابق للسيد جو بايدن لِكونه نائب الرئيس أوباما ثماني سنوات، ويفاخر بأنه كان شريكًا في كل القرارات أو معظمها، التي اتخذتها (إدارتهما) تجاه العالم وتجاه الشرق الأوسط. أما

---

(٥) بحسب قول أمير طاهري في الشرق الأوسط (١٣ آذار (مارس) ٢٠٢٠): «قد تَجرَّد الرئيس ترامب من أكبر قصة نجاح يفخر بها». ولكن في المقابل (تعليق كاتب النص): «قد تُقدِّم له خدمة إضافية إنِ استطاع أن يُقنع الجمهور الأميركي بأنه هو وسياساته الذين أوقفوا الوباء، وربما قضَوا عليه» (كُتب هذا النص في النصف الأول من شهر آذار (مارس) ٢٠٢٠).

أهـمُّ وثيقـة تَشـرح موقـف بايـدن مـن قضايـا الشـرق الأوسـط، فقـد نُشـرت فـي مقـال مُطـوَّل فـي عـدد فـورن أفيـرز (آذار (مـارس) ٢٠٢٠)[٦]، حيـث شـرح بايـدن أجندتـه المقبلـة. ويـرى المراقـب أنهـا «أجنـدة» تُعبِّـر عـن «مانيفسـتو» للديمقراطييـن.

يـرى بايـدن أن ترامـب قـد فـرط فـي موقـع أميـركا العالمـي والقيـادي، وأضـرَّ بمصالـح الأصدقـاء فـي العالـم، وحـوَّل بعضهـم إلـى خصـوم. وأيضًـا أضـرَّ بمصالـح الطبقـة الوسـطى الأميركيـة العريضـة. وأكثـر مـن ذلـك، أنـه ابتعـد عـن القيـم الديمقراطيـة التـي كانـت مصـدر القـوة الأميركيـة. ولقـد حـطَّ مـن أهميـة التغيُّـر المناخـي، وهـو أحـد أهـم منجـزات الإدارة السـابقة، ولـه تأثيـر عالمـي فـي الأجيـال. ويـرى بايـدن أن العالـم أصبـح أكثـر تعقيـدًا فـي مواجهـة السـلطوية والدكتاتوريـة وتفشِّـي الأوبئـة، فانتشـر الفسـاد وغابـت المسـاواة. لذلـك، فـإن أجندتـه (وهـي طويلـة) سـوف تعتمـد علـى اتخـاذ قـرارات سـريعة، لإعـادة أهميـة الديمقراطيـة علـى المسـتوى العالمـي، حيـث سـيَعقد مؤتمـرًا سـريعًا للـدول الديمقراطيـة بعـد تسـلُّمه السـلطة. ويـرى أنـه بـدْءًا مـن كانـون الثانـي (ينايـر) ٢٠٢١، سـوف يعمـل الرئيـس القـادم علـى إنقـاذ سـمعة أميـركا الديمقراطيـة، ويعيـد الثقـة إلـى مؤسسـاتها، ويعيـد ترميـم العلاقـات بالأصدقـاء والحلفـاء. يضيـف بايـدن: «هـذا ليـس وقـت الخـوف، هـذا وقـت الاسـتفادة مـن قدراتنـا التـي أخذَتنـا إلـى انتصاريـن فـي حربيـن عالميَّتَيـن،

(٦) Joseph R. Biden «Why America must lead Again» Foreign Affairs, March, 2020.

وكانــت أيضًــا انتصــارًا لِلِّيبراليــة والديمقراطيــة علــى الفاشــيَّة. ســوف نســمح فــي حــالات خاصــة للمهاجريــن بدخــول أميــركا، وســوف نتابــع ونكشــف الأمــوال الســوداء المتصلــة بالمخــدرات والزعامــات التــي سَــرقت أوطانهــا، ونتابــع اقتــلاع الفســاد فــي كل مــكان، مــن هونــج كونــج إلــى الســودان ومــن شــيلي إلــى لبنــان». وكَتــب أيضًــا: «ســوف نُعيــد الأمــوال المســروقة مــن الشــعوب إلــى مســتحقِّيها، ونُعــزِّز قيــادات المجتمــع المدنــي حــول العالــم ونحفــظ حريــة القــول والمســاءلة للشــعوب، وســوف أعيــد دخــول الولايــات المتحــدة فــي اتفاقيــة المنــاخ فــي اليــوم التالــي لتَســلُّمي المســؤولية، ونعيــد التفــاوض مــع إيــران حــول اتفاقيــة عــام ٢٠١٥، التــي وقَّعــت عليهــا الإدارة الســابقة.

المقــال طويــل، فيــه معظــم ملامــح مــا ســوف تقــوم بــه الإدارة الديمقراطيــة الجديــدة مــن أعمــال، وهــي مناقضــة لكثيــر مــن السياســات التــي اتخذتهــا إدارة ترامــب. والســؤال: «هــل يصــل بايــدن إلــى الســلطة فــي آخــر العــام؟». أمــا أكثــر الأســئلة إلحاحًــا فهــي: «هــل يســتطيع بايــدن أن يُنجــز كل تلــك الوعــود فــي ســاحات مختلفــة لهــا أولوياتهــا هــي الأخــرى؟ وهــل يســتخدم القــوة الأميركيــة الناعمــة (الدبلوماســية والضغــوط) فقــط، أم أنــه علــى اســتعداد لأن يســتخدم قــوة أميــركا الخشــنة؟». والســؤال الأخيــر أمــرٌ مختلــف فيــه فــي الداخــل الأميركــي، وفيمــا بيــن الديمقراطييــن أنفســهم.

الخلاصــة أمــام العلاقــات بيــن دول الخليــج وأميــركا مجموعــة من

الملفـات السـاخنة، منهـا: ملـف الطاقـة، وملـف العلاقـة بإيـران وخططهـا التوسـعية، ومنهـا تحديـد مـا يناسـب مـن إصلاحـات «ديمقراطيـة» تراهـا أميـركا، وخاصـة الديمقراطييـن فيهـا، علمًـا أن بعضهـا قـد تـراه معظـم الـدول الخليجيـة غيْـر مناسـب فـي الوقـت الحالـي لمسـتوى التطـور والوعـي الاجتماعـي، ومنهـا الوجـود العسـكري فـي أراضٍ فـي الخليـج وحجـم هـذا الوجـود، فضـلًا عـن ملفـات سـاخنة أخـرى مثـل التـي تخـص اليمـن والمصالـح الاقتصاديـة المتبادلـة. وبالتأكيـد، ينبغـي لـدول الخليـج ـ أو لإدارات مختصـة فـي وزارات الخارجيـة الخليجيـة ـ أن تبحـث فـي المتغيـرات والاحتمـالات منـذ الآن، وأن ترسـم التوقعـات، وأن تقـوم أيضًـا مؤسسـات ومراكـز بحـث خليجيـة بعقـد النـدوات، وإشـراك الأشـخاص المحتمَليـن لتَولِّـي المسـؤوليات فـي الإدارات الأميركيـة، مـن أجـل شـرح القضايـا الخليجيـة المشـتركة. والأهـم هـو رأب الصـدع الخليجـي الـذي أصبـح اليـوم يشـكل الكثيـر مـن العقبـات، بسـبب ذلـك التنافـر فـي النظـر إلـى الأزمـات القائمـة والمحتمَلـة، والتـي يجـب علـى جميـع المختصيـن النظـر فيهـا وتوقُّـع الأحـداث المقبلـة.

٣٠ نيسان (أبريل) ٢٠٢٠

محمد غانم الرميحي

• مُساهم منتظم كتابةً وبحثًا في كبريات الصحف والدوريات والمجلّات العربيّة، منها: **الشرق الأوسط** (لندن). **النهار** (بيروت). **الأهرام** (القاهرة). **غولف ـ نيوز** (دبي)

• **١٩٩٨ ـ ٢٠٠٢:** الأمين العام **للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**. هذه المؤسّسة الرائدة ساهمت في نشر كتب قيّمة استفاد منها كلّ طالبي العلم في الوطن العربيّ. من أشهر هذه السلاسل: **عالم الفكر •عالم المعرفة •إبداعات عالميّة**.

• **١٩٩٠ ـ ١٩٩٢:** رئيس تحرير جريدة **صوت الكويت** التي صدرت من لندن يوم ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠ والكويت تحت الاحتلال العراقيّ .

• **١٩٨٢ ـ ١٩٩٨:** رئيس تحرير مجلّة **العربي** الشهرية، وهي أشهر الدوريات العربية وأعرقها وأكثرها شعبية. تتلمذ عليها وانتظر وصولها إلى دساكرهم البعيدة مئاتٌ من الشابّات والشباب العرب من بغداد إلى الخرطوم .

• **١٩٧٣ ـ ١٩٨٢:** أستاذ علم الاجتماع السياسيّ في جامعة الكويت.

• حائزٌ مجموعة من الأوسمة التقديريّة منها:
وسام الشرف الفرنسي من درجة فارس (٢٠٠٣)، **جائزة الكويت التقديريّة** (٢٠١٠).

مؤلفاتــــه

تُدرّس كتبــه في جامعــات الخليج ويُعــاد نشرها بوتيرة منتظمة. منهــا:

٢٠٢١: مجلس التعاون الخليجي ـ يا منزلًا لعب الزّمان بأهله، دار الجديد.

٢٠٢١: رسائل إلى محمّد القاضي. ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢، دار الجديد.

٢٠١٢: أولويّات العرب. القراءة في المعكوس، دار الســاقي.

٢٠١١: اضطراب قرب آبار النفط، دار الساقي.

١٩٩٩: عصر التطرّف، دار الساقي.

١٩٩٥: البترول والتغيّر الاجتماعيّ، دار الجديد.

ـ **الجذور الاجتماعيّة للديمقراطيّة في مجتمعات الخليج العربي المعاصرة**، دار الجديد.

ـ **معوقات التنمية الاجتماعيّة والاقتصاديّة، في مجتمعات الخليج العربي المعاصرة**، دار الجديد.

ـ **النفط والعلاقات الدوليّة** ـ وجهة نظر عربيّة، دار الجديد.

ـ **الخليج ليس نفطًا** ـ دراسة في إشكاليّة التنمية والوحدة، دار الجديد.

١٩٩١: هموم البيت العربي، الشركة الكويتيّة للأبحاث.

للمزيد مراجعة موقع الكاتب: www.rumaihi.info

أزَمــات وقضايـــا
إقلـــيمٌ في الـمَهَبّ

«لـم يَبْقَ مِنْ عَظَمَةِ الولايَات الـمُتَّحـدةِ سـوى «**اسْتِبدادِها الديـمُقراطيّ**».

كيفَ للاستِبدادِ أن يتزاوجَ والديـمُقراطيّة؟ أميركا اليوم بلدٌ شعبويّ يعبثُ بالقانـون الدُّوَلي وبأبسط القواعد الإنســانيّة. إن كـان العالـمُ ســفينـةً فربَـابِنَـتُـها قَراصِنـةٌ يَفرِضـون «لا شرائعهم» حيثما حلّوا.»



9 789953 112145